فرج خطاب

بئر الأسرار

روايـــة

الإهـــداء

إلى زوجتي الحبيبة

وأبنائي الأحباء

تصميم الغلاف

إبنتي الحبيبة الدكتورة علياء

المقدمة

إن الإنسان هو أعظم أعجوبة في العالم ..

فهو يستطيع أن يُحيل حياته إلى
نعيم .. بالرضا والحب والتسامح
والعطاء والترفُّع عن الصغائر ..
والسموّ بنفسه عن الدنيا ..

بينما يستطيع .. في نفس الوقت .. أن يُحيل حياته إلى عذاب مقيم بأحقاده وتطلعاته المبالغ فيها .. وتكالبه على الماديات .. وقِصَر نظره بالبحث عن الجاه والسلطان .

الفصل الأول

الهروب

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً
عندما أفاق كمال من نومه على رنين
هاتفه، إلا أنه قبل أن يجيب فَرَك عينيه،
وألقى نظرة سريعة على ساعة الحائط المعلقة

أمامه، فتثائب وتمطّى، واستعاد إلى الذاكرة صوراً من الحلم الذي يراوده بصورة تكاد تكون يومية، لقد سئِم هذا الحلم الذي يكدّر صفو حياته بانتظام،

فالطيور الجارحة تطارده، تكاد تأكل من رأسه، والأشباح تسيطر على مخيلته، وتكاد تطبق على أنفاسه، بينما يلفّه ضباب داكن، ويمتليء قلبه خوفاً ورعباً،

فيركض ويركض، وشيء ما يطارده، لا يدري ما هو، فإذا حاول الهروب سقط من إرتفاعات شاهقة، وبينما يرفرف في الهواء ويترنح أثناء سقوطه، يستيقظ من نومه والخوف يكدّر صفوه، إحساس رهيب يكاد

يقتله بينما هو طائر في الفضاء يرفرف أثناء سقوطه من هذه الإرتفاعات. تململ في مكانه، إلا أنه انطرح على وجهه، ثم دفن رأسه في الوسادة، وأسلم عينيه للنوم مرة أخرى،

وعاود الرنين يلهب أذنيه من جديد.

ما هذا؟

تساءل مستنكراً.

من يطلبني في هذا الوقت المبكر؟

أغلق الخط في وجه الطالب، وألقى برأسه على الوسادة، علّه يستطيع النوم مرة أخرى.كان كمال قد بدأ يُسلم عينيه للنعاس والنوم بعد أن عاد من صلاة الفجر في

المسجد، وهو ما اعتاد عليه كل يوم، فهو لا ينام كل يوم إلا بعد أداء صلاة الفجر في المسجد، أما هذه الليلة فقد كانت ليلة مميزة، ملأت قلب كمال وزوجته حسناء

بالسعادة الغامرة، بل غمرت البيت كله بالسعادة التي تنير مستقبل أي زوجين بالحب والأمل، عندما يعلمان بأنهما سوف يصيران أبوين بعد بضعة أشهر، بعد أن كان الإنجاب أملاً بعيد المنال! أمل طال إنتظار تحقيقه، فقد عادت حسناء من عيادة طبيبة التوليد الساعة العاشرة من صباح أمس بعد أن طمأنتها الطبيبة بأنها حامل في شهرها الثاني، لم تكن حسناء تدري كيف تتحمل هذه الفرحة التي

غمرت حياتها وملأت قلبها، إنه يوم رائع في حياة حسناء لن تنساه.

كانت الستارة القابعة على النافذة في لون النحاس، فبدت أشعة شمس الأصيل التي إنعكست عليها ذهبية اللون، رائعة، وكان النسيم في ذلك اليوم من أيام الربيع ينساب من النافذة إلى جوانب الغرفة رقيقاً ناعماً، منعشاً، يثير في النفس الشعور بالحياة، والبِشر، والجمال.أمسكت حسناء الستارة برفق، وبأطراف أصابعها الرقيقة أزاحتها، لكي تتدفق آخرأشعة الشمس الذهبية، والمتزينة بحمرة الشفق، إلى الغرفة فتملأ فضاءها بهجة ما قبل الرحيل.

أخذت حسناء مكانها أمام النافذة، وفي يدها فنجان القهوة الذي إعتادت تناوله كل مساء مع كمال، زوجها، وحبيبها، وراحت ترسل عينيها بعيداً، هناك، في السماء للإستمتاع بمشاهدة مشهد الغروب الذي طالما أثار إعجابها، واستدعى فيها الرومانسية الحالمة، منذ أن جاءت إلى هذه الفيلا مع كمال بعد الزواج، في مثل هذا اليوم، من سنوات خلت، نعم، فهو يوم لا يمكن أن تنساه حسناء.وأخذت رشفة من الفنجان، مع إبتسامة رقيقة، فقد تذكرت يوم أن سألها كمال عن تاريخ ميلادها، وكانت سعادته غامرة عندما علم أن تاريخ ميلادها يصادف تاريخ ميلاده،

ولكنها تصغره بثمانية أعوام وهو ما جعله يتفق معها على أن يجعلا تاريخ زواجهما يطابق نفس اليوم، فهو شيء جميل أن يولدا ويتزوجا في نفس اليوم.

كانت حسناء جميلة كالوردة المتفتحة، تتمتع بقامة طويلة، نحيلة الخصر، ذات وجه لامع مشرق، وعينان جميلتان زرقاوان، يشع منهما بريق وذكاء، وتنبض بالحيوية والشباب، والنضارة والأمل في الغد، وأحبت كمال بكل ذرة من كيانها حتى وجدت نفسها تعيش فيه، وبه، ومن أجله، فما أخلق كل منهما بالآخر، إنهما يحبان نفس الأشياء، ولهما نفس الآراء، ويتكلمان بنفس الأسلوب،

ولكن الحياة ليست دائماً ما تهادن، أو تدع الإنسان يهيء أموره وفق مشيئته، وبالطريقة التي يراها، فهناك مشيئة الله، وكانت مشيئة الله أن تتأخر حسناء في الإنجاب، وقضى الزوجان السنوات الطوال في طَرْق كل أبواب الأمل لإنجاب طفل يملأ حياتهما بالبهجة، ويملأ بيتهما بالنور، ويملأ قلبيهما بالسعادة. إنها في ربيع العمر، وقد أتمت اليوم عامها السادس والعشرين.

وبدأ ضوء القمر الساطع يضيء وجهها، ويبرز جمال تقاطيعه ورقة ملامحه ..

ولا شعورياً امتدت يداها لتحتضنا بطنها في حب ورقة، وكأنهما تحتضنان الطفل الذي أخبرتها بوجوده الطبيبة اليوم!

- إنتِ حامل ..

جملة اشتاقت إلى سماعها سنوات وسنوات، قفز قلبها طرباً، طار بها الخبر الرائع إلى عنان السماء، كل سعادة الدنيا غمرتها في لحظة.

- الله .. الله .. الله .. كم أنا سعيدة .. أحمدك يا رب ..

وتحسست بطنها، في محاولة أمومية، لا إرادية، لاحتواء أحشاءها بكامل راحتيها وقد إغرورقت عيناها بالدموع، دموع الفرح،

وعلت وجهها ابتسامة تشي بسعادة لا تقدر، سعادة غابت عنها سنوات طوال، قضتها في صراع نفسي، بين عدم

الإنجاب، وبين حبها لزوجها، الذي يقتلها خوفها من يأسه من الإنجاب، بين عشقها الطبيعي للأمومة، وبين عشقها لزوجها، وخوفها من أن تفقده في رحلة بحث بائسة عن الإنجاب، سنوات طوال، قضتها بين طَرْق أبواب عيادات أشهر الأطباء داخل وخارج البلاد، واستسلما للوصفات الغريبة للعطارين دون جدوى،

لم يكن يسعها إلا الدعاء، لم يكن لها إلا الأمل، لم يتركا باباً لم يطرقاه .. حتى

الإعلانات الإبتزازية العقيمة في التلفزيون جربتها في حماقة.

- إنتِ حامل ..

سمعتها اليوم، بعد كل عذابات السنين، سمعتها اليوم، وشعرت معها بسعادة الدنيا تتدفق إلى قلبها، وتملأ كيانها، بعد انتظار طال لسنوات وسنوات.

حاولت أن تتصل بكمال لكي تزف إليه الخبرالسعيد حتي تكتمل سعادتها بسعادته.

رن تليفونه حتى صمتَ ولكنه لم يرد.

قالت في نفسها :

"مش مشكلة .. خليها مفاجأة .. لما نتقابل في البيت .."

لا زالت النشوة تغمرها، حاولت أن تذهب من العيادة مباشرة إلى البيت لكي تحيا مع هذه الأفكار الجميلة التي أخذتها إلى آفاق المستقبل القريب بعد بضعة أشهر وهي تضع أول مولود لها، ورأت نفسها تداعبه، وتلامس أصابعها الرقيقة جسده الناعم بحنان وسعادة، وتلهو معه في شوق، وتعانقه في حب، إلا أنها عدلت عن هذه الفكرة، فلقد أحست بشوق غريب لزيارة محلات مستلزمات الأطفال، طافت بمحلات بيع لعب الأطفال، هذه اللعب للطفل حديث الولادة، وتلك للطفل في شهوره التالية للولادة، وهذه تساعده على الحركة والمشي.وبعدها، وبسعادة لم تغمرها من قبل،

مرت تسأل في محلات ملابس الأطفال، والأحذية، والدراجات والأسِرّة الهزازة، كل مستلزمات الأطفال، ولد أو بنت، لا يهم ..

يا لروعة هذا اليوم، هل هذا معقول؟

- اليوم هوعيد ميلادي، عيد ميلاد كمال، عيد زواجنا، اليوم علمتُ أنني حامل!لن أتصل بأحد لكي أخبره بهذا الخبر قبل أن أخبر كمال ..

وفي خطوات رشيقة، تراقصت أقدامها متجهة إلى أكبر محل لتنسيق وبيع الزهور، وطلبت أروع الباقات من أجمل الزهور، ثم عرجت على محلات بيع الحلوى والجاتوهات لشراء تورتة عيد الميلاد وعيد الزواج ولم

تنسَ شراء الشموع والبالونات الحمراء والخضراء وكل الألوان، كما إبتاعت الساعة القيمة التي كان كمال يُعجب بها ذات يوم وهما يتسليان بالطواف على المحلات، ومشاهدة الفتارين، فاليوم هو أجمل الأيام وأكثرها مناسبة لعمل الإحتفالات وتقديم الهدايا لكمال.

لا زال كمال لا يرد على إتصالها، وبينما كانت تُعِدّ العشاء، كانت تدندن كل أغنيات عيد الميلاد ..

سنة حلوة يا جميل ..

يللا .. حالاً بالاً .. بالاً .. حيوا أبو الفصاد ..

ح يكون عيد ميلاده الليلة .. أجمل الأعياد ..

فليحيَ أبو الفصاد ..

إنزل يا جميل في الساحة

وإتمختر كدة بالراحة

أنا أد عينيك مع إني

نظرة عينيك دباحة...

وكان العشاء فاخراً، وامتلأت كل الأركان بالزهور والورود، وامتلأ فضاء البيت بالبهجة والسعادة، وتزينت الطاولة الصغيرة-التي إفترشت بأحلى مفرش- تزينت بأجمل تورتة، نُقِشَ عليها " عيد ميلاد سعيد لأسعد زوجين "، وتجمعت كؤوس العصائر في دائرة حول التورتة، أُطفِأت الأنوار

الكهربية، أُضيأت الشموع، عُلقت البالونات بأزهى الألوان.دخلت حسناء غرفتها فتزينت وإرتدت أجمل ما لديها من فساتين، وكان جمالها يتألق في ضوء الشموع التي تنير غرفة الطعام، وتعطرت .. بالعطر المفضل لديه.لا زال تليفونه لا يرد، بدأت تنتظر في لهفة لحظة أن يصل، إشتاقت لرؤية السعادة في عينيه لحظة أن تخبره بالخبر السعيد، بدأ الوقت يمر بطيئاً، بدأت الدقائق تمر ثقيلة، وبدأت دقات القلب تعلو، وتعلو، حتى تحولت إلى طبول تنذر بالخوف، الخوف من مجهول قادم، داهمها إحساس غامض كاد يعتصرها، كما غمرتها موجة من الحزن

والتشاؤم، وأحست أن في الأمر شيئاً خطيراً، ولكن كيف؟ كيف يجتمع الخوف مع هذا الخبر السعيد بالحمل، إنها سعيدة جداً، خائفة جداً! ماذا دهاها؟ ولماذا داهمها هذا الشعور الغريب المفاجيء بالخوف؟ ولم تستطع التكهن بشيء، إنه أمر غريب حقاً.

وقبل أن تجمع شتات أفكارها، وتلملم شتات نفسها، تجمدت الكلمات على شفتيها وبدا على وجهها آية من آيات الهلع لم يرَ أحد مثلها على وجه إنسان، كما جمدت عيناها في محجريهما من فرط الفزع، وقد غرقت في دوامة من الذهول، وشحب وجهها، وفي

سكون الخوف قفزت مرعوبة، بقلب منقبض، يغوص في أعماقها لرنين الباب.

- من بالباب؟

سألت في صوت مرتجف، بكلمات مرتعشة، في ضعف لا يجعل كلماتها تصل إلى بضع خطوات، ولا تكاد تصل إلى مسامع من بالباب، ولذلك جاء الرنين مرة أخرى.

تساءلت مرة أخرى مرتعشة:

- من بالباب؟

وهي تحدث نفسها ..

"إنه ليس كمال .. فلماذا يرن كمال جرس الباب .. فليس من المعقول أن يكون قد فقد المفتاح .."

وجاء صوت كمال:

- إنه أنا يا حسناء .. كمال ..

وفتحت الباب قلقة، ولم يكن من الصعب عليه أن يعرف كم هي منزعجة مضطربة لدرجة البكاء، إحتضنها، ضم رأسها بين راحتيه، وقبلها في جبينها، متسائلاً في دهشة:

- ماذا بك يا حسناء؟! مم تخافين؟ إنني آسف يا حبيبتي .. فالمفتاح في جيب الجاكت الذي كنتُ أرتديه أمس .. وقد نسيتُ أن أنقله إلى الجاكت الذي إرتديته اليوم ..

قالت بكلمات مبللة بالدموع:

- لماذا يا حبيبي لا تجيب على الهاتف؟

وتذكر أنه ترك تليفونه في المكتب الآخر، ولم يأخذه معه أثناء إجتماع هام فاعتذر لها بشدة، قائلاً:

- أنا جد آسف يا حبيبتي على ما سببته لك من خوف وإزعاج.

وسرعان ما نسيَتْ حسناء الخوف والقلق، وصاحت مهلِّلة في سعادة كادت تجعل قلبها يقفز طرباً:

- أنا حامل يا كمال .. أنا حامل . .

ولكم كانت دهشته أن يسمع هذا الخبر بعد هذا الإنتظار الطويل، فاحتضنها،

وأحاط خصرها بذراعيه وراح يقبلها في كل مكان تصل إليه شفتاه قائلاً في سعادة بالغة:

- أحقاً ما تقولين .. أحقاً أنتِ حامل .. يا له من خبر رائع ..

وتساءل في حيرة:

- ولكن هل مررتِ اليوم على طبيبة التوليد؟ إحكي لي كل شيء، إنني سعيد كل السعادة بهذ الخبر الجميل ..

ورفع يديه إلى السماء شاكراً لله ..

- الحمد لك يا رب .. الحمد لله ..

بهذا حمد كمال ربه على هذا العطاء وهو أكثر منها سعادة، وقد أقبل عليها ثانيةً وراح يقبل جبينها في سعادة غامرة.قالت:

- ألف مبروك يا حبيبي ..

- ألف مبروك لنا يا حبيبتي .. أطلبي ماما وبابا لكي تخبريهما .. فهما في أشد الشوق لمعرفة هذا الخبرالسعيد ..
- نعم .. نعم .. ولو أنهما لن يتركاني أنام هذه الليلة ..

ولقد كانت على حق، وكان هذا ما جعل كمال يفتح عينيه بصعوبة عندما رن جرس الهاتف، وألقى بنفسه على السرير مرة أخرى علّ الطالب يتركه في حاله، ويدعه ينام ولو لبعض الوقت، إلا أن هذا لم يحدث، فقد أعاد الطالب محاولته مرة أخرى بالحاح، ولم يترك التعب والنعاس الشديد فرصة لأن يعرف كمال أن الرقم الذي طلبه هو الرقم

الخاص على الهاتف الذي يخصصه لأسرته في الشرقية، ولذا فقد ضرب بكفه فوق جبهته، عندما عاود الطالب الإتصال.

- يا إلهي.. إنه من الشرقية.. لعله خيراً يا رب..

وتناول التليفون، وأجاب بصوت يملؤه النعاس:

- ألو ..

وجاءه صوت والده مفزوعاً .. متلهفاً:

- كمال!

- نعم يا بابا .. أنا آسف .. فلقد ألقيت بجسدي فوق السرير بعد صلاة ...

وجاءه صوت أبيه مرة أخرى، فاقد الصبر منزعجاً، يقاطعه، في نبرة لاهثة:

- لا وقت يا كمال!
- خير يا ...
- بسرعة يا كمال .. لا تقضي هذا النهار في الإسكندرية ..اصطحب زوجتك .. واتجه فوراً إلى القاهرة .. فالقاهرة كبيرة ومزدحمة .. وسوف تستطيع أن تذوب بين أهلها.. ولن يتعرف عليك أحد هناك ..
- هل ...

وقاطعه أبوه مجدداً، قال مضطرِباً:

- نعم .. نعم .. لقد تعرف عليك أحدهم في أحد الشواطيء.. والحمد لله أنه لم يستطع تعقبك لكي يتعرف على عنوان سكنك وإقامتك.. وإلا كانت المشكلة أكبر ..إلا أن عائلة المرشدي قد قرروا فوراً أن يرسلوا من يبحث عنك في الإسكندرية .. وقد يكون ذلك اعتباراً من اليوم ..

فأجاب كمال متلعثماً، مرتعباً، مرتعشاً، أما نبرة صوته فكانت صادرة من إنسان استسلم للقدر، غارقاً في بحر من الحزن والأسى، وشعر كأنه يختنق وأحس بشيء يقف في حلقه، حتى ليكاد يكتم أنفاسه، وأما عيناه فقد

إغرورقتا بالدموع، حتى أنها كادت تسيل على خديه.

وسمع نفسه يقول في كلمات متقطعة، وكأنه يبذل مجهوداً لكي يتكلم، أو كمن يبحث عن الكلمات:

- حاضر.. حاضريا أبي .. ولكن الليلة فقط علمت أن حسناء زوجتي حامل.
- لن يضيرها الإقامة في القاهرة .. ألف مبروك ..

وشعرالأب بالمصيبة التي حطت فجأة على رأس ولده، وأردف في انكسار وإشفاق:

- إنني أشفق عليك يا كمال .. وأعرف حجم ما أطلبه منك .. ولكن أحيانا لا

يترك لنا القدَر بدائلاً للإختيار .. فلا
مندوحة من الإنصياع لأوامره ..

وشعر الإبن بقلب والده الواجف، الخائف، فقال يُطمئِن والده رغم أنه هو نفسه في حاجة لمن يطمئنه:

- حالاً يا أبي .. سوف أدبرأمرالسفر
حالاً .. لا عليك .. كن مطمئناً ..
سوف تسيرالأمورعلى ما يرام ..
وسوف أتولى أمر إقناع حسناء بالسفر
..

لم يكن لديه رفاهية التفكير في أمر السفر، إلا أن كمال ألقى نظرة حانية على وجه حسناء المشرق، وقد كان لها نصيب كبير من

إسمها، وأطال التمعن وكأنه يحاول أن يعرف، هل هو شعاع الضوء الذي تسلل إلى الغرفة عبر الستارة المنسدلة على النافذة وأضاء وجهها بضوء النهار، أم أن سعادتها الليلة زادتها إشراقاً، ولكن لم يعجبه كلا الاحتمالين، وقال يحدث نفسه:

- لا هذا ولا ذاك .. فوجه حسناء دائم الإشراق .. إن إشراق وجهها لا يخبو .. وبهاؤها لا يأفل .. كم أحب هذا الوجه الملائكي ..

وكانت حسناء هي الشيء الجميل في حياته، إنها الحلم الوحيد من أحلامه الذي كان حياً،

يحيا ويتنفس ولا يموت أو يتلاشى في وجه الواقع!

- يا للكِ من حسناء!

واقترب من وجهها، وبنعومة وحنان رفع بيده خصلة الشعر التي انسدلت على خدها وأحنى وجهه عليها وقبّلها قُبلة أودع فيها كل حبه ونهل منها كل الدفء لقلبه المحب!

وكأن جمال حسناء وحبه العميق لها قد أنساه شيئاً هاماً، فقال:

- آه .. يا الله! لقد كدتُ أنسى ..

وانتزع نفسه من جوار حسناء انتزاعاً، ونهض من فوق السرير، ولكنه لا يعرف كيف يتصرف، ولا يدري ماذا عليه أن يفعل،

إنه كالتائه، وران الصمت الرهيب، ولاحت لكمال فكرة غريبة حقاً..

- يا إلهي .. يا لقلبك الرهيف وروحك الصافية يا حسناء ..هل هناك علاقة بما حدث اليوم في الشرقية ..وما أصاب روحك من رعب وخوف بالأمس ..لقد كان خوفاً قاتلاً .. أبكاكِ .. بلا مُبرِّر! فهل كان هذا التوقيت بالأمس يتفق مع موعد علم أبي بالخبر؟ يا إلهي .. هل هذه هي الشفافية ؟

وبدت على وجه كمال أحاسيس مميته، وهزه الخوف المرعب، وتسارعت ضربات قلبه

وذهبت به أفكاره كل مذهب وأيقن أنه لا بد مما ليس منه بد ونقب بين أفكاره المضطربة عن مخرج لهذه المشكلة الرهيبة ثم أخذ يتحدث إلى نفسه وكأنه يهذي ..

- عليّ أن آخذ حماماً سريعاً .. وأرتب القليل من ملابسي وملابس حسناء .. ثم أوقظها .. ولنتناول طعام الغذاء اليوم في الحسين .. أو السيدة زينب ..

ولكن ما ذنب هذه الإنسانة التي باتت ليلتها تحلم بأول طفل لها .. والتي منحتني قلبها .. وكل حنانها .. بل كل حياتها ..

ولكن ليس هناك من خيار أخر ..

وقبل أن يتناولا طعام الغداء في القاهرة، كان قد عرج أولاً على فندق فاخر، خمس نجوم، وحجز به جناحاً له ولزوجته لمدة ثلاثة أيام ..

- هل بهذه السهولة .. وبهذه السرعة أيضاً .. استطعتَ أن تقنعني أن نسافر إلى القاهرة؟

سألته حسناء هذا السؤال وهي تتناول طعام الغداء، وهي تداعبه، ومع ابتسامة رقيقة استطاع أن يرسمها على شفتيه بتكلف شديد أجابها هامساً:

- أليس طعاماً رائعاً؟! ثم أنك حبيبتي، ثم أنني، ثالثاً، أريد أن أقضي بعض

الوقت في الحسين .. أو السيدة زينب .. تبركاً وفرحة مني بمناسبة حملك .. أليست هذه مناسبة تستحق منا التبرك بأولياء الله الصالحين؟ ألا يروق لكِ قضاء بعض الوقت في الحسين والسيدة زينب؟ آه .. لا أعتقد أن هناك اعتراض .

- كلا.. كلا.. ليس هذا.. ولكنني أعتقد أن حبي لكَ.. وقلبي الضعيف هو الذي يجعلني أسلسُ قيادة!
- وأنتِ تعلمين أنني أذوبُ فيكِ حباً وعشقاً ..

- هذا هو .. إنه كلامك الجميل هذا هو الذي يجعلني لا أرفض لك طلبا .. ولكن قل لي .. لكم من الوقت سوف نقيم هنا .. في القاهرة؟

- ربما .. وربما ..

- !!!

وابتسمت ابتسامتها الساحرة، بينما عيناها ووجهها يفشيان أنها لا تعرف ماذا يقصد، قالت وهي تنظر إلى عينيه في انتظار الإجابة:

- عُدنا للألغاز ..

فقال موضحا:

- ربما نمكث هنا حتى تقولي بنفسك كفى .. وربما تقولي بنفسك دعنا من الإقامة في الإسكندرية .. ولتكن إقامتنا دائمة في القاهرة!

ثم استطرد بعد أن مسح يديه في منديل السفرة، حيث فرغ من تناول طعامه.

- ربما أُعد لكِ مفاجاة .. تجعلك تقولين هذا بنفسك!

- أفصِح يا كمال! .. هل حقا هناك مفاجأة؟

وكانت قد اكتفت بما أكلت وشربت العصير

- هيا بنا يا حبيبتي ..

- إلى أين؟

- أرجو أن تعجبك المفاجأة ..

وكان كمال قد سأل مدير الفندق إذا كان يعرف ولو بالمصادفة إذا كان أحدهم يعرض فيلا للبيع أو شقة على النيل

- أين تريدها؟

ولم يفكر كمال كثيراً، فقد عقد عزمه على شراء فيلا أو شقة، المهم الموقع وهو يحب الإقامة في مكان يطل على النيل أوفيلا في وسط البلد، فأجاب بثقة:

- في وسط البلد .. أو حتى شقة .. بشرط أن تكون على النيل ..

- موجود طلبك الأول .. ولكن قيمتها مرتفعة جدا ..

- دعني أقرر بنفسي .. إذا كان ثمنها مرتفعا أم أنها تستحق!

- هيا بنا ..

- ألستَ بحاجة للاتصال بالمالك؟

- سوف أفعل حالاً ..

وتركه كمال يُجري ترتيباته، وعاد إلى حسناء وأخبرها أنه قد حجز لهما جناحا بالفندق لمدة ثلاثة أيام، وفي الوقت الذي كانت تأخذ فيه حماماً كان كمال قد عاد إلى مدير الفندق وعلم أنه رتب له موعداً مع المالك خلال ساعتين لإجراء المعاينة، ولذلك عندما سألته حسناء:

- إلى أين؟

قال:

- أرجو أن تعجبك المفاجأة

وكانت الفيلا مذهلة، كانت حسناء تفغُر فاهاً منذ اللحظة الأولى لدخولها الفيلا، كاد قلبها يقفزطربا من بين ضلوعها، فكانت تتكون من دورين، الدورالأرضي يضم غرفة معيشة ومطبخاً، بجانب تراس كبير بواجهة زجاجية بارتفاع دورين، أما الدورالثاني فيحوي غرفة نوم رئيسية وحجرتان اضافيتان، كما كان هناك حمام سباحة في المنطقة الخضراء المواجهة للفيلا مباشرة، وأما الحديقة فكانت تجعل الفيلا قطعة من الجنة

قالت في سعادة غامرة:

- كمال!

- !!!

- ياللروعة .. هل هذه هي؟ ولكنها ستكون باهظة الثمن!

- يا حبيبتي .. إنها لا تساوي عندي ثمن هذه السعادة التي تغمرك .. وهذا البريق اللامع الذي يتلألأ في هاتين العينين الزرقاوين .. الرائعتين .. وكأنهما نجمتان تتلألآن في كبد السماء ..

- هل يمكنني أن أُقبّلك يا حبيبي؟

- في غرفتنا يا حبيبتي .. سيكون لديك الوقت الكافي لكي تفعلي ما هو أكثر من ذلك!
- إنها أجمل من فيلا بابا في الإسكندرية .. سوف يفرح هو وماما كثيراً بها
- الحمد لله يا حبيبتي .. الذي أهدانا إياها

وهكذا تم له ما شاء دون أن يعرف أحد عنه أي شيء، لماذا غادر الشرقية،
لماذا ذهب إلى الإسكندرية، لماذا غادر الإسكندرية، لماذا ذهب إلى القاهرة، ولا حتى زوجته تعرف.

الفصل الثاني

الإسكندرية

بدأ العمل على إنشاء مدينة الإسكندرية بأوامر من الإسكندر الأكبر سنة 332 ق. م.حيث اتخذها وخلفاؤه من بعده عاصمة لمصر لما يقارب ألف سنة حتى الفتح الإسلامي لمصر سنة 641 م. وكان ذلك بقيادة عمرو بن العاص، ويبلغ تعداد سكانها نحو الأربعة ملايين نسمة، وقد اشتهرت عبر التاريخ من خلال العديد من المعالم مثل مكتبة الإسكندرية القديمة والتي كانت تضم أكثر من ثمانية ملايين كتاب، وما يزيد عن 700,000 مجلد، وهناك أيضا منارة الإسكندرية، والتي أعتبرت من عجائب الدنيا السبع القديمة، ولقد سُمّيت الإسكندرية

بعروس البحر الأبيض المتوسط، وهي أيضا موطن عروس كمال، التي بهرته بجمالها، وبساطتها، ورقتها، وزرقة عينيها التي تشبه في صفائها، زرقة مياه البحر الأبيض المتوسط، فقد اتجه كمال إلى الإسكندرية قادما من الشرقية في جنح ظلام إحدى الليالي عله يستطيع أن يتوارى عن عيون عائلة المرشدي، وفي أحد الفنادق الفخمة أقام بضعة أيام يحاول أن يفهم ما حدث ويستوعب الوضع الجديد الذي عليه أن يتعايش معه، ولم تطل فترة إقامته في الفندق، فقد قام بشراء شقة كبيرة في أحد الأبراج في شارع النبي دانيال، وفي أحد الأيام، وبينما

كان يطالع الجريدة اليومية قرأ عن إعلانات لشركات تعمل في مجال الإستثمار العقاري والسياحي فقال في نفسه وكأنه وجد ضالته:

- آه .. إن هذا هو المجال الحقيقي .. الذي أستطيع من خلاله أن أغطي على نشاطي الأصلي .. وتجارتي ..وعليّ أن أتريث قليلا .. قبل أن أقرر إقتحامها و مزاولتها ..ولكن كيف أقتحم هذا المجال .. إنه مجال يتطلب-ربما أكثر من غيره من المجالات-إلى الخبرة الطويلة في سوق العمل بالسياحة .. والإستثمار العقاري والسياحي.

على أي حال، فأحيانا تغري كثرة الأموال بالمجاذفة، خاصة إذا كان الثراء قد جاء سهلا، وما هو قادم، أكثر وأسهل، وهكذا عقد عزمه، وإتخذ قراره.

- فلنبدأ .. على بركة الله!

وفي قلب المدينة، اشترى كمال طابقين في أحد الأبراج الشاهقة، وحدث نفسه "نعم هذا هو المكان الذي خُلِق لهذا النشاط .. فإنه نشاط يحتاج إلى مظاهر عالية .. وتتسم بقدر كبير من الفخامة والوجاهة .. وعليّ أن أنفق الكثير في التأثيث .. فالتأثيث لا يقل أهمية عن المكان .."

وقام كمال بتأسيس (شركة الإسكندرية للاستثمارات العقارية والسياحية) وبإعلان صغير، جاءت عشرات البنات اللاتي ترغبن في العمل في السكرتارية، وكان كمال يرى أن هذه هي أول خطوة، اختيار أجمل البنات مع إجادة اللغة الإنجليزية والحاسب الآلي، ولحسن الحظ فهن أصبحن كثيرات، وكانت عبير هي أجمل المرشحات للعمل وأكثرهن خبرة في مجال الكومبيوتر وأعمال السكرتارية.

ضغط السيد كمال على زر جرس السكرتيرة، بعد أن جلس على الكرسي الفخم

الخاص بوظيفته الجديدة، رئيس مجلس الإدارة، وبعد أن تناول فنجان القهوة.

- أفندم ..
- أريدك أن ترسلي إعلاناً إلى جريدة الأهرام .. فنحن بحاجة إلى مدير عام للشركة.
- أمرك يا فندم ..
- هل تجيدي ذلك؟
- نعم يا فندم .. تعلم حضرتك أنني قضيت في عمل السكرتارية عدة سنوات .. كما أن لي خبرة جيدة في التواصل مع وسائل الإعلام .. وصيغة الإعلانات عن الوظائف المختلفة ..

- حسناً .. بسرعة يا عبير .. ولكن دعيني أقرأه أولاً قبل أن ترسليه إلى الجريدة.

- أمرك يا فندم ..

وبعد يوم واحد من نشر الإعلان، تدفق على الشركة الكثيرون من طالبي شغل الوظيفة، كان كمال يجهل كل شيء عن إدارة هذه الشركة، ولذا فهو لن يقنَع إلا بمن يرى فيه المدير الكفء حتى يتعلم هو نفسه منه شيئاً فشيئاً

واستأذنته عبير، السكرتيرة، في الدخول إلى مكتبه.

- ادخلي يا عبير

- إن الجميع ينتظر نتيجة المقابلات يا فندم .. فهل هناك من تراه مناسباً فاستدعيه .. هل ترى منهم من هو كفء يا فندم؟ على الرغم أنني لم أستشعر منهم أحداً يصلح .. إلا أنني أخشى ألا يكون هذا هو رأي سيادتك
- في الحقيقة يا عبير لأ .. ليس من بينهم من أقنعني بأنه يستطيع أن يدير هذه الشركة بالطريقة التي أرغب فيها ..

وأدارالكرسي بحيث يواجه النافذة الزجاجية الكبيرة من خلفه والتي بدا من خلالها الأفق في مشهد رائع، ونظر إلى أعالي السماء وكأنه يرصد النجوم ثم أردف:

- إنني أريد أن أبدأ بداية قوية .. ولن أكون كذلك بغير مدير قوي .. كفء ..
- يدير الدفة بطريقة احترافية ..فلا أريد أن أكون أنا في وادِ .. وهو في وادِ أخر
- ربما يا فندم إذا ...

وصمتت عبير، فقد ينهرها إذا ما اقترحت عليه أمراً، فهي لم تكن قد خبرت ردود أفعاله بعد، إلا أنه بادرها بسؤاله:

- ربما ماذا؟
- ربما يا فندم .. إذا أضفنا في الإعلان جملة بسيطة .. قد يأتي من يحوز رضاك .. وثقتك .. وتقتنع به.

- أفصحي يا عبير .. زيديني ..

- ربما يا فندم .. إذا أضفنا أنه لا يُشترط أن يكون المتقدم للوظيفة ذكرا كأن نقول:

"فمن يجد في نفسه الكفاءة من الجنسين .. فليتقدم بطلبه..." فسوف يكون هناك متسعا من الإحتمالات .. وتكون الفرصة أكبر في تقدم إناث .. قد تكون خبرتهن أكثر من الذكور .. أو أنه لم تُتح لهن الفرصة في الشركات الأخرى .. أقول ربما.

ولمعت عيناه، وارتسمت إبتسامة خفيفة على شفتيه تنم عن إستحسان الفكرة، وقال:

- أشكرك يا عبير .. فهذا الإقتراح يُحسب لكِ .. إذهبي إذن وافعلي ذلك .. أحسنتِ.

وقد كان، وحان وقت إجراء المقابلات، وأصلح كمال من هندامه، وأصلح ربطة العنق، وجلس في كبرياء وتعالي وكأنه يستعد لاجتماع رسمي.

- عبير .. أدخلي أول المتقدمين .. أو المتقدمات ..

وجلس يترقب، وكانت عيناه تراقبان عن كثب، من ذا يدخل أولاً، هل هو شاب، هل هي فتاة، كيف مظهرها أو كيف يبدو، فالمظاهر أيضاً هامة ولها دور كبير في

نجاح صاحبها مثل الكارزما تضيف الكثير إلى عناصر تكوين الشخصية، وقال يحدث نفسه:

"أريد أن أنتهي من هذه المرحلة بكفاءة عالية .. وإلا فلن تسير الأمور بالشركة وفق ما أرغب فيه .."

وقطعت حبل أفكاره فتاة تدخل بخطوات واثقة تُخفي نصف وجهها خلف نظارة طبية وسلاسل ذهبية من الشعر الأصفر تنسدل فوق ظهرها وكأنها ذيل حصان، تبدو في أواخر العشرينات من العمر، متوسطة القوام، وبدا من خلف النظارة عينان متسعتان ثابتتان وقد ركزت على وجه السيد الذي يجلس على

كرسي رئيس مجلس الإدارة، والذي سوف يختبر خبرتها بعد دقائق، ورسمت الفتاة ابتسامة بسيطة على شفتيها، اللتين تزينتا بأحمر شفاة خفيف أحسنتْ الفتاة في اختيار لونه المنسجم مع لون البلوزة، وجاءه صوتها في مخارج كلمات دقيقة واضحة، تشير إلى شخصية متزنة، قالت تحييه:

- صباح الخير يا فندم ..

أجابها، وقد أشار إلى الكرسي المقابل له:

- تفضلي ..

وتناول منها ما معها من أوراق، وبدأ يطالعها ..

- أسماء؟

- نعم يا فندم ..
- ماجستير في إدارة الفنادق، ثلاث سنوات خبرة في وظيفة مديرعام .. بشركة دار السلام للاستثمار العقاري ..
- بالضبط يا فندم ..
- ولماذا تريدين ترك عملك يا أسماء بهذه الشركة؟
- جميعنا نبحث عن الفرصة الأفضل يا فندم!

إبتسم، فقد أعجبته صراحتها وطموحها

- وهل تعتقدين يا أسماء أنها هنا؟
- عليّ أن أحاول يا فندم!

وإتسعت شفتاه بالإبتسامة التي رأتها أسماء على كل ملامح وجهه واللمعة التي ملأت عينيه حتى أنه بدا مسروراً، و شجعتها تلك الإبتسامة فاستتلت: - لديّ أفكار يا فندم .. أرغب في تطبيقها .. وإنجاحها هي الفرصة التي أرغب فيها .. وأبحث عنها ..

- حسناً .. هاتِ ما عندك يا أسماء .. فإنني أيضا أبحث عن فرصة .. ونجاح مدير الشركة هي فرصتي التي أبحث عنها! أبحث عنها أنا أيضا .. ولا مانع أن يكون هدفنا مشتركاً ..
- بالعكس يا فندم .. من المهم جداً أن يكون هدفنا واحد ..

واكتفى بالنظر إليها، ومنحها الفرصة لكي تكمل حديثها، فاستطردت:

- إن فترة دراستي للماجستير قد وسّعت من دائرة معارفي في المنتجعات السياحية..في الساحل الشمالي..في شرم الشيخ..وفي الغردقة .. وقدمتُ لهم جميعا دراسات في التايم شير..أو المشاركة بالوقت.. وتعاملتُ معهم جميعا في هذا المجال..أثناء عملي بالشركة..وأفكاري الجديدة تتعلق بهذا الموضوع .. وسوف أختار مديراً لهذا الفرع من العمل .. بعد إذن سيادتك يا فندم .. أقصد في حال اختياري لشغل

الوظيفة..لأن هناك فرع أخر من العمل يوازي في أهميته هذا الفرع الذي حدثتك عنه ..

وصمتتْ برهة، علّه يعلق على ما تقول، إلا أنه قد آثر أن يترك لها فرصة عرض كل ما لديها، ولذا أردفت متسائلة:

- هل أكمل يا فندم دون أن تعتبره تجاوزاً لحدودي؟
- يمكنك ذلك!
- يتطلب الأمرعدة أبراج..أوعلى الأقل في البداية برجاً واحداً..تكون كل الشقق فيه معروضة للتمليك أو للبيع

أقصد..فهل هذا الأمر متاح؟ أم أنه علينا الإكتفاء بالفكرة الأولى؟

وصمتت شفتاها، في حين ركزت عيناها على وجه الرجل لكي تتبين رد فعله على ما تطرحه من أفكار.

وفكر السيد كمال بضع ثواني، ثم قال:

- يمكنك اعتبارها ثلاثة أبراج
- والحال هكذا يا فندم..سيكون لهذا الفرع مديرأخر..وسيكون علينا اختيار مدير كفء للدعاية والتسويق..وآخر للمبيعات..الذي يراقب ويوجه مشرفي التسويق .. لضمان تحقيق الكفاءة في التسويق في إطار خطة إستراتيجية

طموحة يقوم بإعدادها المديرالعام..وربما يعاونه في إعدادها مديرالتسويق ..ولا مانع من أن يشارك في الرأي حولها مشرفو التسويق..بل والمسوقون أنفسهم .. إذا كان لهم رؤى تستحق أخذها بعين الإعتبار.. وكل ذلك يصب في صالح الشركة .. لضمان حسن سير العمل ..

- وما دورك إذن يا .. أسماء؟
- إن هذه يا فندم هي الفرقة الموسيقية..والفرقة الموسيقية لا تعمل بغير مايسترو..بغير قائد..إنه يخطط لها..وينسق بينها..ويوجهها..ويراقب

تنفيذها..ويصحح الأداء..ثم يبتكر أدوات جديدة للتنفيذ..ولا تنتهي الخطط ..ولا تنتهي أو تتوقف أدوات ووسائل التنفيذ التي هي دائمة التغير..وعلينا أن نستفيد من التقدم التكنولوجي والإفادة من هذا التغير المتسارع وهذا التقدم..فالعالم يتغير بوتيرة سريعة..والأدوات تتغير ربما يومياً مع تطور وسائل الإتصال والدعاية والإعلام والإعلان..وعلينا مواكبة هذا التطور.. وإلا فلن يكون هناك تقدم في العمل..وتكتمل الصورة بإختيارعدداً من مندوبي التسويق المؤهلين من ذوى

الخبرة..الذين نقوم بتدريبهم لكي ينفذوا سياساتنا التي نخطط لها بدقة..وبنجاحهم في ذلك..تنجح سياساتنا..وتتحقق أهداف الشركة بإذن الله..التي هي أهدافنا كفريق عمل متكامل..فلا بد أن يعزف المسوقون ومشرفو التسويق ومدير المبيعات سيمفونية واحدة.. يقودها المدير العام ..

- هل يمكن الإعتماد .. في البداية .. على مدير واحد للفرعين؟ على أن يقوم بالعمل تحت إشرافك مباشرة ..

- يمكن ذلك يا فندم في البداية فقط .. ثم مع التوسع في العمل علينا الفصل بينهما .. للحصول على نتائج أفضل ..

- حسنا..وهل يمكن..في البداية أيضا..أن يكون هو نفسه مديرالمبيعات؟

خاصة أنه سوف يكون كفء..وعلى دراية كافية بمهام الوظيفة..

- حتي هذا ممكن..حيث أنني سوف أقف بجانبه أسانده..حتى يتطلب التوسع في العمل مديراً متفرغا للمبيعات..فتكون ظروف العمل هي التي فرضت وجوده.

- حسناً..يمكنك أن تنتظري في الإستقبال يا أسماء..
- أشكر لكم يا فندم إتاحة هذه الفرصة..

وكان قد استغرق في لقاءه مع أسماء، وركز في الحوار معها لدرجة أنسته فنجان القهوة الذي يقبع أمامه، في انتظار رشفاته! حتي أنه لم يعد ساخناً، وطلب عبير:

- عبير.. أريد فنجان قهوة أخر.. ثم أدخلي الطالب التالي..

ودخل شاب نحيف طويل، شعره مهذب، حليق الذقن، وقد اختار ملابسه باهتمام، فالتناسق واضح في الألوان، ويشير حذاؤه اللامع إلى أنه شاب جاد، مرتب الأفكار،

ملتزم، كما تشير خطواته إلى ثقة بادية بالنفس.

- صباح الخير يا سيدي ..
- تفضل ..

وكانت الأوراق التي قدمها للسيد رئيس مجلس الإدارة تشير إلى أنه يحمل درجة بكالوريوس سياحة وفنادق، ودبلوم عالي في إدارة الفنادق ..

- سعيد.. هل يمكنك العمل تحت إدارة فتاة؟
- مؤكد يا سيدي.. فما المانع؟ أقصد ولم لا؟ إذا كانت تستحق أن تكون في هذا المكان.. بل أنه يمكنني أن أتعلم منها..

وأستفيد من خبرتها.. وقد أضيف لها.. فالتعاون مطلوب في كل الأحوال..

- حسنا..يمكنك الإنتظار في الإستقبال..

وطلب عبير..

- نعم يا فندم ..
- هل هناك الكثيرون؟
- ثلاثة يا فندم.. هل أُدخِل أحدهم؟
- كلا.. أدخلي أسماء وسعيد.. واطلبي من الباقين أن ينتظروا قليلاً.. ريثما نفرغ من الإجتماع.. ومن ثم نستدعيهم..
- أمرك يا فندم..

ودخلت أسماء رافعة الرأس تنبعث من عينيها أشعة تفشي بسعادة غامرة امتلأ بها قلب الفتاة التي أحست أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمها في الحصول على هذه الوظيفة، أما خطواتها فكانت ثابتة مرحة، وقد بدا وجهها متألقاً ينضح بالبِشر والإطمئنان، وكان سعيد يسير ببطء داخل المكتب وقد عقد ساعديه أمام صدره يزهو بالنجاح في الحصول على الوظيفة الجديدة، يقولون أن في هذا السلوك ما يعكس الثقة بالنفس، وفي هذه المرة نهض السيد كمال واستقبلهما، وجلس أمامهما إلى طاولة الإجتماعات، فكانت هذه إشارة منه أحبّاها،

حيث فهما من ذلك أنهما قد تم قبولهما للعمل بالشركة، وأنه قد تم إسناد الوظائف لهما طبقاً لنتيجة المقابلات مع رئيس الشركة، فهذا أول اجتماع إذن! وبادرهما:

- نرحب بكما على رأس فريق العمل بالشركة ..

ثم تساءل:

- متي ترغبا في بداية العمل؟
- إذا لم يكن هناك مانع .. فلنبدأ منذ اليوم!

قالت أسماء ذلك، فلم تستطع أن تُخفي حماسها للعمل وسعادتها بالقبول، فهل

تستطيع أن تؤجل العمل حتى ولو ساعة؟ كلا !

ويبدو أن سعيد أحس أنه عليه ان يقول مثل قولها..

- يمكنني أن أبدأ منذ اليوم أنا أيضا..

ثم أضاف:

- ونحن نشكر لكم إتاحة هذه الفرصة لنا.. ونعدكم أن نكون عند حسن ظنكم .. وفعلا سوف نعمل بروح الفريق.. وسوف يكون النجاح والتقدم هو هدفنا .. وفوراً سوف أتبادل الأفكار مع الآنسة أسماء..

قال السيد كمال في جدية وبصوت عميق..

- ولكن هناك شيء واحد.. عليكما قبوله..

وفي صوت واحد، قال الإثنان في ترقب، وقلق..

- وما هو يا سيدي؟

- لقد قبلتُ بكما.. وسوف تبدآن العمل منذ اليوم.. ولكن هل يمانع أحدكما أن أسأل في الشركة التي كان يعمل بها..عن بعض المعلومات التي تخصني كصاحب عمل؟

- أبداً يا سيدي.. فلا شيء أخفيه.. ولا سلوكيات منحرفة أخشى أن تعرفها ..

كما أنه ليس هناك ما يشين أو يبعث إلى الخجل..

هكذا كان الرد، من كليهما..

- عبير.. بسرعة..

ودلفت عبير في عجل إلى المكتب..

- أفندم..

- عبير.. لقد تم اختيار الآنسة أسماء في وظيفة مديرعام الشركة.. والسيد سعيد سوف يعمل تحت إدارتها.. في وظيفة مديرالمبيعات.. أرشديهما إلى مكتبيهما.. ووجّهي إليهما باقي الطالبين.. فسوف تبدأ أسماء منذ الآن في أداء واجبات وظيفتها.. باختيار من

تشاء من موظفين ممن تحتاج إليهم الشركة.. على أن تحاول الإستفادة من الطالبين الموجودين اليوم..إن أمكن ذلك..

وصمت برهة، ثم تابع قائلا:

- أما بالنسبة للمندوبين.. وموظفي البيع "IN DOOR" من الداخل بالتليفون.. أو أي وظائف ترى أسماء أننا بحاجة إليها.. يمكنك مساعدتها في صياغة إعلان مناسب.. دعيني أراه قبل إرساله إلى الجريدة.. ثم تابعي معها.. ودعيها تُجري لهم المقابلات بنفسها.. وتختار من تراه مناسباً.. وبالمناسبة ..

أخبريها أننا في حاجة إلى مدير إداري.. ومدير مالي..

واستدار كمال، وأرسل بصره بعيداً في الأفق وسرح بخياله..

"إن الوضع هنا جيد.. ولا بأس به.. والإسكندرية مدينة جميلة.. ولكن هل أستطيع أن أعيش هنا وحدي؟ وأبي وأمي وإخوتي.. وكل عائلتي.. لقد اشتقتُ إليهم جميعاً..كم هو ثمن رهيب هذا الذي أدفعه نتيجة ما حدث.. لا بد أن أجد طريقة ما للتواصل معهم أسرتي.. مؤكد هناك طريقة آمنة للتواصل معهم.. ومهما كانت مكلفة.. عليّ ألا أحسب للتكلفة أي حساب.. فسوف يصيبني الجنون

إذا ما طال الحال هكذا.. وإذا لم أستطع التواصل معهم..ولكن عليّ أن أنجح هنا أولاً..غداً أذهب بنفسي وأعرف كل شيء مطلوب معرفته عن الموظفين الجدد.. فلا يجب أن أسلّم بصدق حديثهم وأوراقهم.. وإلا كان الخطأ كبيراً.. ولا أريد الندم.."

كان الشك من أهم سمات كمال، ولذا فقد قرر أن يذهب في صباح اليوم التالي إلى الشركة التي كانت أسماء تعمل بها حتي يطمئن إلى أنها لم تخفِ عنه شيئاً بخصوص عملها أو سبب ترك عملها لديهم، وأيضا سعيد.

الفصل الثالث

حسناء

كان كمال شاباً يقترب من الثلاثين من عمره، متوسط الثقافة رغم أنه أنهي تعليمه الجامعي، لا تشغله كثيرا الأحاديث في السياسة أو

الدِين، فقط جَمْع المال هو كل ما يشغله، كل ما كان يحكُم تصرفاته، هو علاقته بالمال والحياة الدنيا، المرأة الجميلة كانت تحوز إعجابه، وقد يسعي وراءها، كان يهتم كثيراً بمظهره والتناسق والتناغم بين كل قطعة يرتديها في أي مناسبة يظهر فيها، وأنواع العطر الذي يفوح منه في أي وقت، كان يبدو وسيما دائما، أما ابتسامته فلم تكن لتغيب عن وجهه، فهو يتعامل مع الجميع من خلال عينين واسعتين سوداوين مرحتين، وابتسامة مجاملة لا يهم أن تكون متكلفة أو صادقة، المهم أن يكون محبوبا من الجميع، وأن يكون محور الحديث للكثير ممن يحيطون به، وهو

ما جعله كثير العطاء! إنه لم يكن يساعد أحداً رغبة في ثواب في الحياة الآخرة! بل رغبة في جمع الكثيرين حوله، والشهرة والظهور في ثوب التقوى والورع! وكان هذا هو مظهره وهو في طريقه متجها إلى شركة دار السلام للإستثمارات العقارية والسياحية التي كانت أسماء تعمل بها، الرجل الوسيم! وقال لنفسه عندما وصل إلى مقر هذه الشركة:

"حسناً.. هذا هو العنوان الذي أعطتنيه أسماء"

وبعد أن دلف إلي داخل المبنى كان مهما جداً له أن يعاين مظاهر الأبهة والعظمة في المكان ..

وأومأ برأسه إعجابا وهويحدث نفسه ..

"رائع .."

وهمّ كمال بالدخول إلى المصعد، وسبقته إليه فتاة، وبسرعة كان قد رمقها بنظرة فاحصة، تاه من خلالها مع أفكاره التي أخذته وحلقت به بعيداً بعيداً"

"إنها لا تتعدى العشرين إلى الثانية والعشرين من عمرها.. يا لهما من عينين ساحرتين.. إن وجهها كله عبارة عن عينين واسعتين رائعتين.. ذوات الأهداب الطويلة الساحرة.. التي تبدو وكأنها الشاطيء الذي يظلل زرقة البحر في عينيها اللتان تتألقان وتلمعان كنجمتين تقبعان تحت قوسين رائعين من

الحواجب المرحة الرشيقة..التي تميل إلى اللون البني.. أكثر منها إلى اللون الأسود.. ويتوارى نصفهما خلف هذه الخصلات الرشيقة من الشعر الناعم الذهبي.. الذي ينسدل عليهما في سلاسل من الذهب.. فتمد أصابعها الدقيقة الفاتنة برفق.. ترفع عن عينيها هذه الخصلات.. التي سرعان ما تعود لكي تغطي نصف حاجبيها..يا إلهي.. يا لروعة هاتين الغمازتين اللتين تعلوان خدودها الوردية فتأسرالقلوب..وتخطف الأبصار.. وتسر الناظرين.. خاصة عندما تبتسم هاتان الشفتان الدقيقتان.. فتذوب فيها الأفئدة.. حباً وعشقاً .."

وأفاق كمال على صوت رقيق، ناعم يأتي من هاتين الشفتين الجميلتين المبتسمتين، واللتين تزينان هذا الوجه الملائكي المشرق.

- حضرتك يا باشا لم تضغط على الزرار الذي ينقلك إلى الطابق المطلوب.. فإلى أي طابق تصعد؟

- آسف يا آنسة.. إنه الرابع..

- حسناً .. إنه هو الطابق الذي طلبته أنا.. فلا حاجة لك بإعادة الضغط عليه مرة أخرى..

- أشكرك يا آنسة..

- إنك تقصد شركة الإستثمار العقاري والسياحي إذن

- وكيف لكِ أن تعرفي ذلك؟!
- ببساطة..لأن الأدوار من الثالث إلى الخامس.. هي مقر الشركة

قال وقد سبقت إبتسامة عينيه إبتسامة شفتيه:

- آسف لكِ مرة أخرى..
- أنتَ تتأسف كثيراً.. على أي حال.. هل أنتَ هنا من أجل نظام التملك بالمشاركة.. أم ترغب في شراء شقة في أحد الأبراج المعلن عنها؟
- لقد وصلنا ..

فتح باب المصعد وخرج، إلا أنها إستوقفته وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة كادت تُفقِده رشده وهي تقول:

- لم تُجبني.. حتى أوجّهك إلى المكان الذي تقصده..

- لا هذا ولا ذاك يا سيدتي .. إنني راغب في لقاء السيد زياد.. صاحب الشركة..

- حسناً.. عليك إذن أن تتبعني

وفي خطوات رشيقة سارت، وسار خلفها مبتسماً، وقد راحت عيناه صعوداً وهبوطاً تفحص تفاصيل كل مناطق الجمال في جسد الفتاة، وهو يحدّث نفسه المتعطشة ..

"ما أجملك أيتها الفتاة.. وما أجمل هذا الفستان على جسدك.. لقد أبدع من صور.. ويا له من قوام يُذهب العقول.. إنني لا أعرف

لماذا أعتقد أن أمك وأباك قد أنجباك بعد أن جمعا كل مواصفات الجمال والسحر.. لكي يصنعا منها بنتاً واحدة .. فكانت أنتِ"

وطرقت بأصبعها طرقات رشيقة مرحة على باب عُلِّقَتْ عليه لافتة صغيرة أنيقة كُتِب عليها"رئيس مجلس الإدارة" ثم دخلت قبل أن يُؤذَنْ لها بالدخول وفي طرف الغرفة المقابل كان مكتب كبير قد إهتم جداً من صنعه بأن يُظهر كل مظاهر الأبهة في كل قطعة منه، وأيضا الكرسي الذي أخذ مكانه خلف المكتب، كل شيء يوحي بالثراء والعظمة، وعلى الكرسي جلس رجل في الستينات من عمره، وقد تستطيع أن ترى فيه الوقار دون

جهد منك، وأقبلت الفتاة على الرجل وقبلته في خده قائلة:

- هناك من يرغب في لقائك يا أبي العزيز..

ثم استدارت وهي تشير بحركة من رأسها إلى الضيف، وفي نبرة ترحيب وتأهيل نهض السيد زياد، وتقدم صوب الضيف خطوة باسطاً يده للمصافحة..

- أهلاً بك ومرحباً..

- أشكر لكم هذا الكرم.. الذي يأسر القلوب..

- تفضل..

وقال كمال وهو يجلس موجها حديثه إلى السيد زياد، ولكنه ينظر في إعجاب شديد للفتاة الحسناء التي أسرت مشاعره ..

- إن الآنسة هي إبنتكم إذن يا سيدي..
- أرى أنكما قد تقابلتما..
- في صدفة سعيدة يا سيدي.. في المصعد.. وهي من أرشدتني إلى مكتبك..
- حسناء! من فضلك أطلبي من السكرتيرة أن تأتي لتعرف من السيد ماذا يشرب.. وتُحضر لي قهوتي.. ولتُحضر لكِ ما تشائين..

- أشكر لطفك يا سيدي.. وأرجو ألا أكون مزعجاً في طلبي..

وأخرج من سترته بطاقة تعريف منسقة بديعة التصميم .. كُتِبَ عليها بخط رائع"شركة الإسكندرية للاستثمار العقاري والسياحي رئيس مجلس الإدارة..كمال الشرقاوي" فتناول السيد زياد الكارت من الضيف وقرأه باهتمام والإبتسامة لم تفارق شفتيه والبريق اللامع المرحب بالضيف يشع من عينيه، وقال مداعباً ولا زال ينظر إلى الضيف:

- إنك تنافسنا إذن.. تفضل.. سل ما شئت..

- عفواً يا سيدي.. إنكم تمتلكون السوق والخبرة.. أما أنا فأمتلك الرغبة في البداية.. والأمل في النجاح..

- نأمل لكم التوفيق إن شاء الله، ولن نألُ جهداً لمساعدتكم.. فماذا كنتَ ترغب في معرفته.. وكيف نساعدك؟

- أسماء.. التي كانت تعمل لديكم..

- !!!

ونظر إليه السيد زياد متسائلا.. بعينيه..

- أرجوأن تفيدني ببعض المعلومات عنها.. كأن يكون لها أي سلوكيات خارجة.. أو ما قد يشوب أمانتها.. فقد التحقت بالعمل لدى شركتنا.. أو تكاد

وقد يكون لديكم ما تودون تحذيري منه بهذه الخصوص..

ـ آه.. كلا.. كلا.. إنها فتاة مجتهدة ولا غبارعليها.. وسوف تدفع عملكم إلى الأمام.. إذا أُعطيَتْ الفرصة.. والمساحة الزمنية الكافية.. فالخبرة التي لديها تؤهلها لأن تفعل ذلك..

ـ ألستَ غاضبا منها بسبب ترك العمل لديكم.. والبحث عن فرصة لها في شركة أخرى؟!

ـ ها أنت قد قلت بنفسك.. فالكل يبحث عن فرصة أفضل.. فكن مستعداً دائماً بتوفير البديل.. فقد يترك العمل لديكم

أيّ من العاملين فجأة.. للإلتحاق بالعمل في أي شركة أخرى.. فلا تتفاجأ..

- سوف يكون هذا أول درس لي أتعلمه منكم.. في عملي الجديد.. وأرجو أن يكون هناك الكثير من الدروس

وضحك كمال، كما ضحك السيد زياد، أما حسناء فقد كانت مشغولة باستقبال المشروبات، وهمت لتقديمها بنفسها لوالدها وللضيف ..

كان كمال يشرب قهوته، وآلية الشرب مع الفنجان وأفكاره مع السيد زياد وقلبه مع حسناء أما عيناه فقد تراوحت في حيرة مع الثلاثة لا تعرف أين تستقر!

وبعد أن فرغ كمال من تناول قهوته هَمّ بالوقوف لكي ينصرف، ونظر مبتسما للسيد زياد وقال:

- لا أعتقد أنني سوف أغادر دون تحديد موعداً لشرب القهوة والتعارف أكثر فإن معرفة أسرة مثلكم لهو شرف كبير لي فأرجو أن تمنحوني هذا الشرف

ومع إيمائة بسيطة من السيد زياد وضع كف يده اليمنى على قلبه وهو يقول بتواضع شديد وأدب جَمّ:

- بل الشرف لنا يا سيد كمال..

وبينما لم تفارق الإبتسامة شفتيه قال كمال بصوت رشيق:

- إذن فلتحدد موعداً..

وكان كمال يتمتع بسمة أخرى من السمات التي تحدد ملامح شخصيته كإنسان، خلاف السمة التي تحدثنا عنها سابقاً، ألا وهي الشك، فكان يجيد التمثيل، والكذب، ولذلك عندما سألته حسناء بعفوية عما إذا كان يقصد أن يأتي بأسرته للتعارف أم سيكون بمفرده كما جاء اليوم، فقد استطاع في لمح البصر، أن يمحو من كل ملامحه من البِشْر والتفاؤل والسعادة التي كانت تغمر وجهه طوال فترة وجوده مع حسناء ووالدها، كل هذه الملامح قد تبدلت في لحظة، بمسحة من الحزن العميق، والعيون الذابلة التي أرهقها طول

السهاد، وألم الوحدة! وقال وهو يتنهد ويقف عند مخارج الكلمات، ويبطيء حتى تكاد الكلمات تقف في حنجرته، وينخفض صوته، ويتحول رتم الكلمات إلى رتم بطيء متقطع:

- أنا آسف يا أنسة حسناء.. فأنا أعيش وحيداً.. لا أسرة لي بعد الحادث الذي وقع لأسرتي.. والدي.. ووالدتي.. وأختي.. لقد كان حادث سيارة مريع.. فقدتُ معه كل أسرتي..في لحظة واحدة.. حزينة بائسة..

وقد تأثر السيد زياد جداً لهذه القصة المأساوية، وأجلسه مرة أخرى، حتي يهدأ من مشاعر الحزن التي أعادته إليها حسناء عندما

جعلته يتذكر هذه الحادثة الأليمة، أما حسناء، فقد آلمها أن تكون هي التي أعادت إليه - دون أن تدري- ذكريات حزينة جعلته يفقد توازنه، حتى أن عينيه إغرورقتا بالدموع، فتوجهت إليه، وقد ارتسمت على وجهها كل كلمات الأسف والاعتذار، وضاق اتساع عينيها، واحمرت وجنتاها، قالت:

- إنني جد آسفة يا سيد كمال.. لم أكن أود أن تغرق هكذا في بحر من آلام الماضي.. وذكريات الأحزان..

فقال وكأنه يهمس حزناً وقد شعر أنه استطاع أن يلمس قلبها:

- لا عليك يا آنسه حسناء.. فقد اعتدتُ هذه الآلام.. والوحدة.. فلا أكاد أنام يوماً.. دون السباحة في بحور هذه الذكريات.. الحمد لله..

ومد يده على عينه، وكأنما يمسح دمعة تسللت منها حزناً وألماً، وقال متسائلا:

- اتفقنا يا سيدي؟

ولم يكن أمام السيد زياد، أمام هذا المشهد الدرامي، إلا أن يقول حتى دون تفكير:

- نعم.. نعم.. اتفقنا.. وأعتقد أن حسناء لا تمانع في مرافقتي.. أليس كذلك يا حسناء؟

ـ كلا.. كلا.. لا مانع عندي يا أبي.. فقد أعوضه ما أحدثته له اليوم من ألم..

ياللمخادع، من الخارج دموع وأحزان، ومن الداخل قلب يرقص بين ضلوعه! فقد استطاع خداعهما وحدّث نفسه اللئيمة:

"لا أسئلة شخصية بعد اليوم.. فلقد أوهمتهما أنني مقطوع من شجرة.. لا أب.. لا أم.. لا أخوات.. حتى لا أقارب.. فلأتقدم طالبا يد حسناء.. دون أي إزعاج.. ولكن ياترى.. هل هي مخطوبة؟ هل هي مرتبطة؟ يا رب لأ..لا هذا.. ولا ذاك.. يا رب.."

وكان هاجس ارتباطها يؤرقه كثيراً، وخوفه من الرفض يسهده، ويجعل النوم يجافي عينيه..

ولبّى السيد زياد الدعوة ورافقته حسناء، فقد كانت متعلقة جداً بوالدها، وكانت هي الفتاة المدللة وقد أحبها والدها كثيراً ومنحها مساحة كبيرة من ثقته وبالتالي من الحرية التي حافظت عليها جيداً ولم تجعل والدها يوماً يندم على ذلك أو يحاول أن يُحَجّمها، بل كان راضياً دائماً على تصرفاتها سعيداً بها..

واختار كمال مطعماً من أفضل مطاعم الإسكندرية وأشهرها وأكثرها فخامة وجاء بحلته الجديدة الأنيقة التي اشتراها خصيصاً

للظهور بها اليوم مع ربطة العنق والقميص، كان طاقما راقياً اشتراه من أرقى الماركات وصفف شعره وحلق ذقنه وسكب على ملابسه هذا العطر الذي يمكن تمييز رائحته من مسافة بعيدة ويدوم لساعات وساعات، كان يرغب أن يبدو كما اعتاد دائماً، الرجل الوسيم، ولما كان كل شيء إنما يخضع للترتيبات والخطط، فقد حدّث نفسه .. وهو شارد الذهن ..

" فلتنطوي هذه الدعوة على مظهر جيد من مظاهر الأبهة والثراء.. حتى يكّون الأب والإبنة انطباعاً رائعاً.. يستمرمعهما لباقي

الأيام.. وسوف يساعد هذا كثيراً في جذب انتباه حسناء.."

وفعلا كان المكان فاخراً، والطعام رائعاً، إلا أن حسناء لم تكن الفتاة التي تعطي مشاعرها لهذه المظاهر السطحية، كما أنها لم يكن ينقصها تناول الطعام في مثل هذا المكان، ولم يكن ليبهرها هذا العطر، ولم تكن حتى تلتفت إلى مثل هذه السيارة الفارهة، لقد اعتادت أن تزن الأمور بموضوعية بعيداً عن القشور، ولم يكن كمال قد خبر طباعها بعد، فتعامل مع هذا الموقف كما يتعامل مع أية فتاة عادية ..

ولكنها حسناء! واحتار كيف يصنع؟ وكان دائم الشرود، دائم الحيرة، وكثيراً ما كان يحدث نفسه:

"يا لحيرة قلبي.. فهل أستطيع أن أجعل هذه الحسناء تشعر بي.. وتعرف كم أهيم بها.. هل أستطيع أن أُشْعِرها بهذا الحب المبرح الذي سيطرعلى قلبي.. و جوارحي من أول نظرة؟ وعائلتها.. هناك عائلتها.. ما هي حساباتهم في مسائل زواج بناتهم؟ إنها عائلة أرستقراطية.. ومن الجائز أنهم يضعون كشفا كاملا بأسماء من يرشحون إبنتهم للزواج منهم وبالطبع .. لن أكون واحداً منهم..إن هذا من شأنه أن أضاعف من محاولات الحصول

على قلب هذه الحسناء.. وبأية ثمن! وهو ما يقوّي من فرصة تأثيرها عليهم للموافقة.. و من الواضح أن والدها لا يرفض لها طلباً.. فإذا رفضت هي..وإذا رفضوا؟ سيدمرون برفضهم سعادتي .. سيحطمون قلبي .. سيسحقون روحي.. إنني لا أستطيع أن أتخيل ذلك..سيردونني خائباً.. خاسئاً..يا ويلاه ! ماذا أنا صانع لو رفضوا طلبي؟"

وحاول طرد هذه الأفكار من رأسه، فقرر أن يتقدم إلى أبويها فيطلب يدها ومن يعلم؟ قد يكرِمان وفادته ويكذِّبان مخاوفه ويبددان قلقه، ألا ليتهما يفعلان فيحققان سعادته ويُحييان روحه وقلبه ويمنحانه الحياة، هكذا كان يحلم،

ولهذا قرر أن يحسم أمره، وأخبرهم أنه يرغب في زيارتهم لمسألة شخصية، وحددوا الموعد المناسب للزيارة، ورحبوا كثيراً باستقباله، وقبل الموعد المحدد بساعة استقل سيارته الفارهة، واتجه إلى بيت حبيبة روحه التي أذهلته بحسنها وذكائها وفطنتها، وأسرت قلبه بخفة ظلها ورقتها، وتساءل في حب وإعجاب بينه وبين نفسه:

"يا للحسناء الرائعة.. كيف.. كيف يجتمع في بنت واحدة كل ذلك الحسن في الأخلاق والجمال والفكر.. والرقة.. والحنان والإنتماء إلى مثل هذه العائلة العريقة؟"

وأخذ يمنّي نفسه..

"يارب يوافقوا.. يا رب لا تجعلهم يرفضون طلبي.. فيهلك قلبي.. وتنسحق روحي.. وتتبدد كل أمالي في السعادة والهناء.. يا إلهي .."

وأفاق .. قائلا:

"ها قد وصلتُ.."

وترجّل عامداً من سيارته في مكان بعيد قليلاً من البيت.. حتى يسيرعلى قدميه بعض الوقت لكي يمنح أنفاسه الفرصة في الإنتظام ويمنح قلبه الفرصة في الخفقان الطبيعي ويعيد ترتيب أفكاره في سكينة ويستقر صدره في مكانه بدلاً من هذا الصعود والهبوط الذي يعكس اضطراباً واضحاً في كل شيء وتعود

السكينة إلى نفسه، وكان يشعر أنه يسير خطوة للأمام وخطوة للخلف ثم يسير بخطوات بطيئة مترددة ونفس هائجة مائجة، متوجسة، ها هو الباب، إنه يقترب منه، ووقف جامداً في مكانه، وجعل يزدرد ريقه في حيرة وارتباك، وقد انقبض انقباض اليائسين وحدّث نفسه وهو يجول ببصره حوله لا يلوي إلى شيء:

"ماذا أفعل؟ كم مريع هذا الموقف الذي يستوعبني.. وكم هو مرعب هذا الشعور المدمر.. ماذا دهاني؟ فهل أعود أدراجي؟ إنني أود لو سلِمتُ من هذا القلق الشديد الذي

طفق يملأ صدري.. وأجنّب قلبي هذا الخوف.. وأجنّب روحي هذا الذعر!"

ولكنه - وعلى الرغم من هذا الخوف والذعر- مشيَ متجهاً إلى بيت حسناء حتى لا يفقد بقلقه وخوفه وتردده ما يود أن يقدّم عمره مقابل حصوله عليه وتحقيقه، ألا وهو قلب حسناء! وحتى لا يلوم في المستقبل نفسه التي أضاعت بترددها ما يتمناه وما تتمناه روحه وقلبه، ولن يجدي حينئذ التحرق على نار الحزن والندامة، ولن ينفعه خوفه وقلقه، وفجأة، يراوده الأمل وتطل على نافذة حياته المشرقة شمس حسناء فتضيء غده فيجد

نفسه مفعمة بالتفاؤل، فمن يعلم؟ قد لا يخيب مسعاه! ويتجنب مرارة الخيبة من يعلم؟

وتساءل بينه وبين نفسه يحدثها وكأنه قد مُسّ ..

"أين كمال الذي يمشي في الأرض زهواً وعجباً؟ أين رأسه الشامخ إلى أعلى في خيلاء؟"

ثم إبتسم إبتسامة بلهاء، وكأنه كان يحارب نفسه لاستعادة ثقته في نفسه وقوة أعصابه التي طالما تباهى بها، ووقف يحاول أن يستجمع كل قواه التي شعر أنها قد خارت وذابت في هذا الحب الغريب من أول نظرة!ها هو الباب، واندفع فجأة، وكأنه

يغالب تردده! ورن جرس الباب، وأصلح من هندامه ورفع رأسه عاليا ومرر يديه على شعره ليثبته ويعيد ما لعب به الهواء ومسح وجهه بكفيه ومسح تحت عينيه التعرق الذي أحدثه اضطراب أفكاره وخوفه وقلقه، وبدأ يقنع نفسه بأنه في أحسن حال! وفُتِحَ الباب، ودلف إلى داخل البيت، كانت خطاه ثابتة، وابتسامة لا تعني شيئاً قد ارتسمت على شفتيه، فهو لم يقابل أحداً بعد! وترامى إلى مسامعه صوت موسيقى تنبعث من الداخل، تبين له فيما بعد أنه صوت حسناء جاء مرحباً به!

- أهلا بك يا سيد كمال.. تفضل..

وكاد يعود أدراجه إلى الخلف! إلا أنه رآها قادمة نحوه في خطى رشيقة، وكأنها تطير في الهواء ولا تلمس الأرض بقدميها، أو كأنها نسمة إنما تداعب وجهه في حلم جميل من ليلة رائعة، ورأى ابتسامتها الساحرة، فمادت الأرضُ تحت قدميه وكاد يتهاوى، وأفاق على سحر صوتها العذب وكأنه الهمس الرقيق الحالم، هل يمكن أن يحدث هذا؟ هل كان يمكن لأي فتاة أن تفعل ما فعلته هذه الفتاة؟ بالطبع لا! فليس هناك إلا حسناء واحدة!

- تفضل يا سيدي.. إن والدي ينتظرك.. ونحن جد سعداء بتشريفك لنا.. ومسرورون بمجيئك..

قالت حسناء ذلك وهي تبسط له يدها الرقيقة للمصافحة وقد أشرق وجهها بابتسامة عريضة زادته إشراقاً وقد إمتدت يدها الأخرى في رشاقة لترفع عن عينيها خصلة ناعمة من شعرها المتطاير يداعبه الهواء في مرح..

- إنه لشرف لي يا حسناء..

ثم صمت فجأة، ونظر حوله حتى يطمئن إلى عدم وجود أحد قد يسمعه، ووقف مرة أخرى يصلح من نفسه و يصلح ربطة العنق، إنه لا

يعرف ما جعله يخرج عن الخطة التي كان قد أعدها، والتي كانت تبدأ بالحديث إلى السيد زياد، واستعاد رباطة جأشه وقال:

- حسناء.. لقد أتيتُ اليوم.. إنما لكي أسألكِ سؤالاً واحداً.. فيه حياتي.. وفيه فنائي!

ولكنه ما أن بدأ حديثه، حتى طاوعه لسانه فانطلق، واستتلى بصوت إمتلأ بكل الحب الذي إستقر في قلبه منذ أن وقعت عيناه على هذه الفتاة وكأنما قد حُلّت عقدة من لسانه :

- لقد أتيتُ اليوم فقط لكي أسألك رأيكِ في شخصي!

وغضت حسناء من طرفها واختلجت أهدابها في حيرة وخجل ولم تجد ما ترد به من كلمات فكان الصمت أبلغ..

وأردف.. وقد بدا لسانه حراً طليقاً:

- أجل.. أود أن أسألكِ.. ماذا لو تقدمتُ إليكِ بطلبك للزواج.. فهل تقبلين بي زوجا لكِ؟ هل توافقين؟ وأسأل الله ألا تكوني مرتبطة بأي شكل من الأشكال.

وكست الحمرة وجهها خجلا، ودهشت من هذه المفاجأة والحيرة التي لم يكن على كمال أن يوقعها فيها، ونظرت اليه لا تلوي إلى شيء، وصمتت وكأنما لا تعرف ماذا عليها

أن تقول، وكانت نظراتها سهام استقرت في قلبه، وبدأت تلعب به الأفكار..

"ويحي! إنها تردني خائبا.. إني أرى في نظراتها الرفض القاتل.." قال نافذ الصبر.. متلعثماً:

- ماذا يا حسناء؟ هل قلتُ ما يسيئكِ؟

صمت قليلاً.. ثم أردف متسائلا.. في كلمات مرتعشة:

- أم هل تراكِ ترديني بخفى حنين؟ مرفوضاً.. متألماً.. إني أنتظر منكِ الإجابة.. فهل تقبلين.. فتطيب نفسي وأغتبط.. أم ترديني خائبا يتنازعني الشقاء والفشل؟

وأخيراً جاءت كلماتها، فكانت جناحين انتزعاه من ذعره وحلقا به في سماء

الأمل وقفز قلبه مرفرفاً فرحاً من بين ضلوعه عندما قالت مبتسمة تلك الإبتسامة التي يتيه بها حباً..

قالت متسائلة.. في خجل:

- ألا تبالغ كثيراً في أمورعواطفك يا سيد كمال؟
- صدقيني يا حسناء إذا قلتُ لكِ أنني غير قادر على وصف ما أشعر به تجاهك.. بل إن الواقع أكثر بكثير مما

يبدو لك.. ومما أقول.. أو أصف.. ولا أبالغ في شيء..

وتوقف برهة.. مرت ثقيلة.. ثم قال متردداً:

- أرجو ألا أكون قد إقتحمتُ عليكِ حياتك بهذا السؤال.. وأخشى أن أكون- دون أن أدري .. ودون أن أقصد- قد تسببتُ في إحراجك..

- كلا يا سيد كمال.. إنها المفاجأة .. ولكن.. ألا ترى أنكَ متسرع؟ لقد مضى على تعارفنا وقت ليس بالطويل.. إنني بالكاد أعرفك.. وأنت.. أنت لا تكاد تعرف عني شيئا!

وتهلل وجهه.. وانفرجت أساريره..

- إنكِ لا ترفضين إذن..
- كما أنني لم أقبل بعد! وكل ما أطلبه منك هو الفرصة.. الفرصة لك لتعرفني أكثر.. وتعلم عني ما لم يسمح الوقت القليل الذي مضى بأن تعلم عنه شيئا! دعني أقرر مع الوقت.. ولك أيضاً أن تأخذ فرصتك لكي تقرر القرار الصواب.. فالزواج إرتباط لا يجب أن يتم إتخاذ قراراً بشأنه في عجلة ودون دراسة متأنية..
- هذا يكفيني.. هذا يسعدني.. فلتأخذي وقتك.. ولكن.. لتعلمي يا حسناء منذ الآن.. أنني لن أنام.. ولن يهنأ لي بال..

حتي تردي لي روحي.. وتعيدي لي فؤادي.. ببشرى موافقتك**!** ولسوف توافقين إن شاء الله..

وصمت ثواني معدودات.. ونظر في عينيها.. وقال مبتسما:

- إن لك وجها رائعاً تسهل قراءة تعابيره**!**

ومرة أخري أدارت وجهها بعيداً عن وجهه.. ووجهت نظراتها بعيداً عن عينيه.. وقد احمرت وجنتاها خجلا.. كما أذهلتها المفاجأة.. إنه موقف مفاجيء لم تكن تتوقعه.. وقالت.. وكأنها تريد له أن يفيق..

- ألا تري أنك تبالغ كثيراً يا سيد كمال؟
إنني لا زلتُ أصرُّ على أن فيما تقول مبالغة كبيرة.. وأعمق من أن أفهمها!

قال- وكأنما يدافع عن نفسه - وقد إمتلأت عيناه حباً.. يشع منهما بريق السعادة.. فلا يستطيع من يراهما إلا أن يعلم مدى هذا الحب.. وعمقه.. قال:

- أبالغ؟ وهل قلتُ إلا بعض ما أرغب في البوح لك به؟

هزت الفتاة رأسها في دهشة.. وعلت وجهها إبتسامة الحيرة.. والإستغراب.. وقالت:

- فلندخل إذن.. لعلنا قد قضينا هنا وقتا طال كثيرا.. ربما يتساءل أبي عن السبب..

قال متسائلا:

- فهل أحدّثه في الأمر إذن؟

قالت.. وكأنها غير معنية:

- إذا كانت هذه هي رغبتك.. فافعل.. ولكن إذا سألني بابا على رأيي في هذا الأمر.. فسوف أطلب الوقت الكافي لدراسة الفكرة.. لأنه علينا أن نتريث حتى يعرف كلانا الآخر جيدا..

قال لها ممتناً شاكرا.. لأنها منحته هذه الفرصة لكي يصارحها بحبه.. ويعبر لها عن مكنون قلبه:

- أشكرك يا حسناء.. أشكرك من كل قلبي على إتاحة هذه الفرصة لي.. وأعدك يا حسناء ألا تندمي.. ولتأخذي كل الوقت الذي ترغبين فيه.. وليهنأ قلبي من عينيك بكل السعادة..سوف أصبر.. حتي يعيل الصبر من صبري!

كان الحياء والخجل سمة بارزة في حسناء، فهي لم تعتد مثل هذا التركيزعلى الغزل في مواجهتها، ولم تكن تدري فعلا كيف تواجهه، وكيف تتصرف، ولا ماذا تقول ..

ولم تكن حسناء تخفي عن والدتها شيئا، حيث كانت الأخيرة تعاملها كما الصديقات وبرفق ومودة توجهها إلى الصواب إذا ما أخطأت أوإذا ما فعلت شيئا من شأنه أن يجعلها محطّ اللوم أو العتاب من قِبل الأخرين أو ما من شأنه أن يسيء إليها، قالت لها بابتسامتها المشرقة التي كانت تعني كل الحنان والحب لحسناء بينما يداها تداعبان شعر إبنتها الوحيدة التي استقرت رأسها على حجرها:

- لقد فعلتِ خيراً يا حسناء عندما طلبتِ فرصة كافية حتى يتعرف أحدكما على الأخر، طباعه، وقربه إلى الله، فكره، سلوكياته وردود أفعاله في المواقف

المختلفة، ماذا يحب وماذا يكره ثقافته، مدى تدينه، ماهي أفكاره عن الزواج وعن الزوجة وكيف يتعامل معها.

كانت والدتها إمرأة دون الخمسين من عمرها، أنجبت ثلاثة أبناء، دفنت منهم إثنين فحظيت حسناء بكل الحب والمودة والرعاية.. وكانت الأم طويلة القامة، ذي رقبة طويلة، ذات بشرة بيضاء كريمية اللون، نحيفة، تبدو دائما مشدودة إلى الوراء قليلا، يمتد شعرها الكثيف الأشقر في شبكة وراء رأسها، أما خداها فكانا جميلان، بينما تزين غمازتيها وجهها المتألق .. وربما كان هذا هو السبب في سحر ابتسامتها، أما حياتها ومعاملاتها مع

الآخرين فقد أكسبت وجهها نظرة الفخر والإعتزاز التي تخلو من الغطرسة، بينما صوتها الناعم كان يعكس هدوءها ورقة طباعها وعدم اندفاعها بالصراخ في وجه أحد مهما كان السبب، ولقد ورثت حسناء معظم هذه السمات والملامح، قالت حسناء وهي تطبع قبلة حانية شاكرة على خد أمها:

- حسنا يا أمي.. هذا ما سوف أفعله.. فأنا ليس لي رغبة في قبوله.. ولا رغبة في رفضه.. وسوف تكون الفرصة لي.. وله.. وسوف أجتهد في دراسة شخصيته بتجرد.. وكذلك أفكاره..

ومرت الأيام..وتعددت اللقاءات ..و كان له ما أراد!

فقد أعجب السيد زياد بهذا الإنسان الذي يفيض تواضعا! رغم الثروة التي هبطت عليه من السماء، فهو الوريث الوحيد لأسرته التي قضت في حادث السيارة الأليم! وأعجبت حسناء بهذا الشاب مرهف الحس، الرومانسي والذي أغرقها بالهدايا الثمينة، رغم أنها ليست في حاجة إليها، ويضمها بعينيه تحت جفونه ويضعها في قلبه، ويملأ أذنيها بالعسل من الكلمات الرقيقة المعجبة، وكلمات الغزل التي تذيب القلوب، ولكن هل يمكن أن تنجح هذه المحاولات في التقرب من السيد زياد بما

يكفي لتزويجه من إبنته؟ إن الإجابه عند كمال! فعليه هو فقط أن يفعل المستحيل!

ولم تمضِ بضعة أشهر، حتي كانت حسناء زوجته! والحق، أنه أمضى معها أسعد سنوات عمره، يتمرغ في حنانها، ورقتها، ويسعد بجمالها وأنس جوارها، وأنوثتها، وأهم من كل ذلك، إخلاصها، أما حسناء، فكانت دائماً ما تبدي لأسرتها سعادتها بزواجها من كمال، وتتحدث عن حبه لها وعطفه عليها وكرمه، فهو لا يرفض لها طلباً، ولا يبخل عليها بأثمن الهدايا، إنها أهله، والإسكندرية وطنه! إلا أن تأخر الإنجاب، كان هو الشيء الوحيد الذي ينغص عليهما

حياتهما، إلى أن جاءتهما البشارة، يوم أن زفت لها الدكتورة نبأ حملها، قبل اليوم الذي قرر فيه المطارَد المغادرة، والبحث عن جُحر جديد، دون أن يُعلِم أحد شيئا، عن الفأر الهارب! ولا عن الجُحر الجديد! فكانت القاهرة هي الوطن البديل.وأفاق كمال من شروده، وتذكر إعجاب حسناء البالغ بهذه الفيلا لحظة دخولها لأول مرة، وتذكرها عندما صاحت :

- كمال!
- !!!
- ياللروعة .. هل هذه هي المفاجأة؟ ولكنها ستكون باهظة الثمن!

- يا حبيبتي .. إنها لا تساوي عندي ثمن هذه السعادة التي تغمرك .. وهذا البريق اللامع الذي يتلألأ في هاتين العينين الزرقاوين .. الرائعتين .. وكأنهما نجمتان تتلألآن في كبد السماء ..

- هل يمكنني أن أقبّلك يا حبيبي؟

- في غرفتنا يا حبيبتي .. سيكون لديك الوقت الكافي لكي تفعلي ما هو أكثر من ذلك !

ووجدت حسناء في حياتها الجديدة في القاهرة ما أضاف إلى حياتها من تشويق وإثارة، فكانت تنتقل بين حياة أسرتها في الإسكندرية

وبين القاهرة، كلما أرادت أن تكسر الملل وتغير من روتين الحياة، وكانت قد انضمت إلى بعض الجمعيات الخيرية، فهي تعشق الأعمال الخيرية والتصدق وقضاء الوقت في ملاجيء الأيتام، حاملة الهدايا لهم واللعب للصغار منهم، وهكذا مرت الشهور، وشعرت حسناء بعلامات الولادة، وكان مولودها الأول، لقد أصبحت حسناء أمّا، وكان حسن قد ورث عن أمه جمال الملامح واتساع العينين والشعر الناعم، فكان صبيا جميلا أحبه أبوه حباً جماً حتى بعد أن أصبح لحسن أختاً، وكانت فرح أيضا طفلة جميلة ورثت عن أمها كل ملامح الجمال، وقد سبقها أخوها

حسن إلى الوجود قبل خمسة أعوام، أما أختها فاتن فتصغرها بعام واحد.

وما أن أصبح الطفل فتاً فتياً، حتى كان على أبيه أن يعهد إليه بالمسئولية، ويشركه معه في أعماله التي سوف تؤول إليه بعد والده ويطلعه وحده على سر أسراره، ولذا فقد جلس إليه يوماً وقال:

- ما رأيك يا حسن في نزهة إلى مكان بعيد .. نتحدث سويا.. دون أن يقاطعنا فيه أحد .. دون أن يسمع أحد ما قد نتفق عليه .. وهو هام .. وهو لك وحدك .. ولا أريد أن يعلم به أحد .. أي أحد ..

- حتى أمي يا أبي؟
- خاصة أمك يا حسن!
- !!
- نعم .. خاصة أمك .. وأختك فرح وأختك فاتن .. لا أحد يا حسن ..
- تحت أمرك يا أبي .. واضح أنه شيء هام ..
- هيا بنا ..

وأفصح الأب لإبنه عن مكنون صدره، وعن سر أسراره، ورفع له غطاء البئر، بئر الأسرار، بئر الماضي، وكان على حسن أن يتواصل مع أسرته الكبيرة في الشرقية بعد

أن أطلعه أبوه بكل الأسرار ولكن في حذر
ودون إطلاع الآخرين بما
علم من والده عن الأسرة الكبيرة، وواصل
حسن التواصل مع جده وأعمامه في
الشرقية، وكان حزنه شديداً عندما علم أن جدته وافتها المنية، بعد صراع مع مرض السُلّ، وكان الولد إبن أبيه، فاتخذه ذراعه الأيمن في تجارته السرية، ولم يجعله حسن يندم على أن أولاه هذه الثقة غير المحدودة، بل منحه كل شيء، وفعل كل ما يرضيه، فحافظ على سره، وأتقن عمله لدرجة أذهلت الأب، فاطمأن على إبنه وعلى تجارته، في حياته، ومن بعده.

الفصل الرابع

بديعة

لم تكن أسرة كمال الصغيرة المتمثلة في زوجته حسناء وطفلتيه فرح وفاتن، لم تكن تعلم شيئاً عن أسرته الكبيرة في الشرقية، فقد قصد بذلك أن يبعدهم عن ماضيه حتى يجنبهم ويجنب نفسه مشاكل لا يستطيع لها حلاً، فماذا يقول لهم إذا أرادوا التواصل مع جدهم وأعمامهم وزيارتهم في الشرقية، وبماذا

يبرر هروبه من الشرقية إلى الإسكندرية تحت عباءة الظلام في إحدى الليالي الحالكة الظلام،

مئات من الأسئلة لا يستطيع أن يجيب عليها، وحتى إذا خاطر وأجاب على هذه الأسئلة فلن يستطيع توفير الحماية لهم إذا ما فكروا في التواصل مع أسرتهم الكبيرة في الشرقية، فهناك من يبحث عنه ويتربص به، ولذلك فقد إحتفظ بسره بين جنباته، وظل يتواصل هو وحسن مع أسرته سراً وبطريقته الخاصة.

ونشأ حسن ينهل من حنان أمه وحب أبيه، وكذلك ترعرعت فرح وفاتن بين أحضان الأم الدافئة، والأب الذي يفني حياته لرعاية

أبنائه، وبين جد وجدة يذوبون عشقاً لأحفادهما في الإسكندرية، وكانت فرح تحب فاتن حباً جماً، وقد إعتادتا اللعب معاً، وكانت - كلتاهما - طفلة خفيفة الروح، فصيحة اللسان، عذبة الحديث، كانتا تلهوان معاً، فتجعل فاتن أختها فرح في دور الأم، وتخاطبها - في

لهوهما- ماما حسناء، وتتخيلان القصص والأفلام، كما كانتا تبعثان الروح والحياة في كل اللعب، وتجعلان منها شخصيات حقيقية تتحدث معهما، تسألانها وتجيب، وتضحك، وكانت الأم تسعد كثيراً لهذا الخيال الواسع لدى طفلتيها .. فتكتفي بمراقبتهما تلهوان، في

سعادة لا نهائية، وكانت مدرستهما الإبتدائية تبعد مسافة غير بعيدة من البيت، ولذلك فقد إعتادتا الذهاب إلى المدرسة سيراً على الأقدام، وأيضاً الدروس الخصوصية، لم يكن عليهما الذهاب إليها في سيارة أو حتى بصحبة أحد، وكان يوماً من أيام الشتاء، ورياح ديسمبر الباردة تهب، بينما السحب متجمعة في السماء، وقد تكاثف الضباب، عندما كانت فاتن عائدة من درس خصوصي في مقرر الرياضيات، ولفت إنتباهها صراخ يدمي القلوب لطفل رضيع، صراخ يستمر بغير إنقطاع ولا توقف، أللهم إلا لكي يأخذ الصغير أنفاسه ومن ثم يعاود الصراخ،

وكان الصوت قادماً من ركن يلاصق سورالفيلا التي تقيم فيها فاتن التي إتجهت صوب مصدر الصوت، وهالها المشهد الرهيب الذي هز كيانها، وأسال من عينيها الدموع الثخينة وكأنه زلزال إنفطر له قلبها، كان الطفل الباكي يقبع بين ذراعين صغيرتين ناعمتين لفتاة صغيرة لا تتجاوز الثانية عشرة من عمرها تحتضن أخاها وقد إتخذت من حجر كبير مقعداً لها بجوار سياج الفيلا.

جلست بديعة - وكان ذلك إسمها - تبكي لبكاء أخيها، ولا حول له، ولاحول لها ولا قوة، إنه طفل رضيع، لم يكن قد مضى على إستقبال الدنيا له إلا بضعة أيام،

وقد إستقبلته الحياة بإحتفال غريب من نوعه، خبر فيه ما هو الجوع من أول يوم خبر فيه البرد القارس، مع أول أنفاسه، فكان رد فعله بكاء لا ينقطع، ربما كان رد فعله هو تمرد، أو إعتراض على هذا الإحتفال المبكر بمولده مصحوباً بأقصى درجات الجوع، وأقصى درجات البرد، وكانت بديعة تجلس على هذا الحجر منذ وقت لا تعرف كيف تقدره، فالزمن في مثل هذه الأحوال يتوقف، ويأبى ألا يتقدم، فالثانية هي ساعات ثقيلة وكأنها الدهر كله، وكانت المسكينة تبدو في غاية البؤس والشقاء والتعاسة، ولا زالت السماء ملبدة بالغيوم، وقد بدأت الطفلة الباكية تستسلم

للإنهيار بعد أن إستسلمت لصفعات البرد القارس الذي يسفع جسدها النحيف الضعيف القابع تحت رداء مهلهل لا يستطيع مقاومة سهام برد ديسمبر الذي ينفذ من ثنايا هذا الرداء البالي إلى عظامها فيطحنها طحناً، وبعد أن إستسلمت للجوع الذي يمزق أحشاءها، فلم تكن قد تناولت أي صنف من أصناف الطعام هذا اليوم، وما يزيد من عذاباتها، هو هذا الصراخ المتواصل الذي يكاد يصمّ أذنيها، فلم يكن أخوها بأفضل منها حالاً، جوعاً، وبرداً، وكان خوف الطفلة على أخيها يرعب قلبها ويحطمها، فإذا كان هذا هو حالها مع الجوع والبرد، فكيف هو حال

هذا الرضيع بعظامه اللينة التي لا تستطيع أن تصمد أمام برد يطحن العظام، وكاد قلبها يتوقف عن الخفقان، وقد أسقط في يدها، فلم تعد تدري ماذا تفعل ولا إلى أين تذهب ولا إلى من تلجأ، فراحت دموعها تناجي ربها بينما كانت تنهمر على خديها وتدعوه، ليس من أجلها، بل من أجل جابر، أخيها الرضيع، الذي لم يذق طوال اليوم اللبن، حتى ملأ صراخه المكان، لعل قلباً رحيماً يهوي إليه، فيسد جوعه، ويوقف ألمه الذي يعذبها، ويفني روحها، حيث شعرت أنها وحيدة في هذا الكون، ولم تعد تعرف شخصاً واحداً مستعداً لمساعدتها، بعد أن ماتت أمها بحمّى النفاس،

بعد يوم واحد أو يومين من ولادة جابر، وشعرت الطفلة المسكينة أنه بموت أمها، قد مات كل شيء، وليس أمامها في هذا الوقت العصيب إلا الدعاء والإبتهال إلى الله عز وجل، فجلست تبكي في هدوء، بين أحزانها وأساها، وبين خوفها أن يفقد أخوها حياته، جوعاً، وبرداً،

وغمر قلبها ألم شديد عصره بضراوة، كأنما إنغرست فيه أنياب حيوان مفترس،

أين أنت يا أمي، لماذا تركتي أخي جابر المسكين وهو في حاجة ماسة إلى أحضانك الدافئة، وإرضاعه، وبات ذهن الطفلة المسكينة في حُمّى من الإضطراب، لوضعها

المذري تنتظر عودة أمها بيأس قاتل، فهي بدونها تشعر بالضياع والوحدة، وهي وحيدة، لا تعرف كيف تقاوم هذا التيار الجارف، وسط الأمواج المتلاطمة، تقذف بها وسط هذا البحر الهائج، لم تعرف بعد كيف تعوم في هذه الحياة التي تقسو عليها كل القسوة وبكل ما أوتيت من قوة، دون أن ترِقّ أمام صِغَر عمرها الذي لم يتجاوز الثانية عشرة، بل دون أن تأخذ في الإعتبار هذا الطفل الرضيع الذي سلبته أمه في اليوم الأول من حياته البائسة وتركته يصارع وحيداً، جوعاً لا يرحم معدته، وبرداً لا يرحم عظامه الواهنة، وكأنهما حبات القمح تتقلب بين حجري

الرحاية، تطحنهم طحناً، فراحت تعتصر ألماً، وقد تحشرجت الصرخات في جوفها، وتبكي حزناً على مكابدة هذا الصغير آلام الجوع والبرد القارس، وبدأ هذا الأمل الذي كان يلوح لها من بُعد كما تلوح أضواء المرفأ للسفينة الضالة، بدأ هذا البصيص البعيد الغامض لآخر أمل، بدأ يبهت ويهتز ويترنح، ويلفظ أنفاسه الأخيرة، كضوء شمعة خافت يتراقص، تعصف به الرياح، ويا لها من رياح، ودلّها قلبها المكسور المحطم إلى السماء، إلى الله عز وجلّ، فهو الأمل الذي لم يعد هناك أمل سواه، ورفعت بديعة ناظريها

إلى السماء بعينين دامعتين وقلب مزقه بكاء الطفل، تناجي ربها، فهو ملاذها الأخير:

- يا رب.. ألطف بنا.. ليس من أجلي.. فأنا يمكنني إحتمال الجوع والعطش وحتى البرد.. ولكن جابر.. كيف له أن يتحمل.. ومن أين لي بالحليب.. حتى أطعمه.. وإذا أغرقتنا الأمطار.. فبماذا نحتمي.. وإلى من نلجأ؟

وما لبثت بديعة أن سمعت وقع أقدام تقترب منها .. ولم تكن قد شعرت بها إلا حينما أصبحت منها قيد خطوتين .. فرفعت إليها وجهها المبلل بالدموع .. ولم تكن تدري ماذا تقول .. ولم تزل تنشج بالبكاء .. بل أفلتت

من فمها أنّاتْ التوجع الحزينة المتألمة .. وتأوهت بما كان كافياً لأن يدمي قلب فاتن .. التي أرعبها أن يكون هناك فتاة بهذا البؤس .. تحتضن بين ذراعيها الصغيرتين الناعمتين أخاها، بينما يبكيان بهذه الحرقة، بل يصرخان ألماً وحزناً، وقبل أن تقول شيئاً، كانت فاتن قد انتزعت معطفها الصوفي الأحمر الذي كانت ترتديه لتحتمي به من هواء الشتاء البارد، وألقته على كتفي الطفلة الصغيرة البائسة وضمته بيديها الحانيتين على الطفل الرضيع حتى تحول بين جسده الهزيل وبين الهواء شديد البرودة الذي يتسلل

إلى عظامه الهشة، وقالت بكلمات عطوفة هي أشبه بالبكاء:

- ضعي هذا المعطف حول كتفيكِ، فالبرد أشدّ من أن تتحمليه أنتِ والطفل الرضيع.

وحاولت بديعة أن ترفض هذه التضحية من طفلة صغيرة تعرّض نفسها لهذا البرد القارس من أجل حمايتها هي وحماية الطفل الرضيع، وحاولت أن تعيد المعطف إلى صاحبته الصغيرة الرحيمة، قالت بكلمات تبللها الدموع:

- بل ضعي المعطف على كتفيكِ حتى لا تصابي بنوبة برد، فلا أقبل إيذاءك من

أجل حمايتي .. وأشكر لك كرمك وعطفك ..

- إنه ليس من أجلك .. بل من أجل هذا الطفل المسكين ..

وتوقفت بديعة عن الكلام، فكانت الدموع المنهمرة كافية لشرح ما بداخلها وما يحدث لها، وكانت منهارة تماماً، منهوكة القوى، فقد قطعت المسافات الطويلة تمشي مشية الطفلة الذليلة الحزينة، ومرت بمحلات الملابس الجاهزة، واشتهت الدفء بداخل أي معطف من هذه المعاطف زاهية الألوان القابعة خلف زجاج الفتارين، وقضت الوقت الطويل وهي تسير على غير هدى، حتى بدأت ساقاها

تلتويان، وأصبحت خطواتها غير متزنة، وهي تتنقل بين طرقات لا تعرفها، ولا تعلم إلى أين تذهب، إلى أن غلبها الجوع، وقهرها البرد، وحطم روحها بكاء أخيها الذي كان يخترق أذنيها، فيلهب نفسها، ويدمي قلبها، وعندما أنهك التعب قواها، وألهب اليأس روحها، تهالكت على هذا الحجر، بينما تداعب أنفها الروائح الشهية التي إنبعثت من الشواء والطهو والتي ملأت الجو من حولها، في المطاعم الكثيرة التي تراصت بالقرب منها على جانبي الطريق، وهي تتضور جوعاً،

وتشتهي لقمة، لإسكات الألم الذي يلهب معدتها، ولا زال الطفل يرسل صراخه فيملأ المكان، ويمزق نياط القلوب، قالت فاتن بعطف للفتاة الصغيرة وهي تساعدها على النهوض:

- هيا يا أختي مع هذا الطفل .. هيا ندخل البيت لحمايته من هذا البرد..

فالسماء تبدو ملبّدة بالغيوم.. والمطرعلى وشك الهطول.. و سيكون وبالاً عليكما ولن يتحمله الرضيع.. وسوف نتحدّث بالداخل..

وبعد كثير من التردد والتمنع سارت معها بديعة، خاصة بعد أن طمأنتها فاتن أن أمها سوف ترحب بهما لأنها محبة للخير، ومحبة

للناس جميعاً، وبعد أن أكدت لها أن جابر سوف يجد لديهم من ترضعه، وهي المربية التي تعمل لديهم، فإبنتها لديها من العمر فقط أربعة أشهر، وهي تعرف معنى الأمومة، ومعنى فقدان الطفل لأمه في هذه السن المبكرة، وهناك، في الداخل، كانت الطفلة وأخوها محل ترحيب، فقد إستقبلتهما السيدة حسناء إستقبالاً كريماً، حيث أرسلت الطفل الرضيع

إلى المربية التي أرضعته حتى شبع، ووفرت له الدفء، فنام حيث تنام طفلتها،

أما بديعة فقد وجدت في الطعام الشهي ذكي الرائحة الذي قدمته لها السيدة حسناء ما سد

جوعها، وأسكت تقلصات معدتها الخاوية، التي لم تذق طعاماً منذ ليلة أمس فأقبلت على الطعام تلتهمه بنهم دون أن تنطق بكلمة، وقد أهدتها فرح معطفاً من معاطفها التي كانت تناسب قياسها لكي تعطيه لأختها صفية لتقيها برد هذا الشتاء القارس، وأدركت بديعة أنها ليست وحدها كما كانت تعتقد، فهناك الله عزّ وجلّ، كما أن هناك أناس طيبون، وأطفال رحماء، واطمأن قلب الطفلة، وأحبت هؤلاء القوم، وأحست أن هناك من يريد أن يسمع لها، وأحبت أن تُخرج ما بداخلها، فراحت بديعة تحكي حكايتها..

إنها تنتمي إلى قلعة الكبش، وهناك باقي أخواتها، أربعة بنات، وكلهن يصغرنها سناً، صفية وصفاء وفوزية والأخيرة نادية، وخالتها تقيم في السيدة زينب، وهؤلاء هم كل أهلها، أما أبوها، فقد خرج من البيت يوم وُلِدَ أخوها جابر، دون أن يراه، وربما لو رآه، لما خرج ولم يعد، ولا يعرف أحد مكانه، ولا يعرف أحد أحيّ هو، أم لحق بالأم إلى الرفيق الأعلى، وراحت الطفلة تحكي المزيد.

الفصل الخامس

الأم الطفلة

مع إشراقة يوم جديد من أيام الربيع الدافئة، كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية تتدفق متلألئة على هذا العش المتواضع، الخالي من كل شيء، إلا من الحب الجميل الذي جمع قلبي الزوجين، هذا العش الذي أُعلِنَ فيه بداية الحياة الزوجية لزوجين سعيدين، هما وداد، وأكرم، ولم تكن وداد غاضبة من عدم قدرة أكرم على تأثيث بيت الزوجية، بل كان لديها أمل كبير في الغد، فسوف يدبران أمورهما معاً، وعلى الرغم من أن الطريق حالك

السواد، والليل مظلم، إلا أن الأمل كنجوم السماء، تبدو أجمل وأكثر تلألؤاً، عندما تكون السماء أظلم ما تكون!

كذلك هو الأمل، فهو يبدو قريباً، لأن الحياة لن تكون أقسى مما هي عليه الآن!

وبهكذا أمل بدأت وداد حياتها الزوجية مع أكرم، كانت تحبه كثيراً، فبمجرد أن تراه مقبلاًعليها، يضيء وجهها بالفرح، وكان هو سعيداً بها وبحبها وطيبة قلبها،

وغمرت وداد هذا العش البسيط بالبهجة والتفاهم، وكان هذا العش هو غرفتين وحمّام في البدروم الذي استأجره أكرم ليكون سكناً له، وأيضاً يتخذ منه محلاً للتفصيل وإصلاح

ملابس السيدات، في حي من أحياء العشوائيات، يقال له قلعة الكبش، وكانت وداد فتاة على قدر متوسط من الجمال، ممتلئة الجسم قليلاً، ناهدة ولكن الحيوية وجمال الروح كانت تنبعث دوماً من عينيها، وتشرق كالبريق، كنجمة تتلألأ في السماء، أوهكذا كان يراها أكرم، فكان يرى في عينيها الإبتسامة المشاغبة، وكثيراً ما كان يرسل من عينيه شعاعاً من الرغبة يتفحص صدرها الممتليء، فيشعر بشيء كاللهب على وجهه فتسري الدماء حارة في كل جسده، وكثيراً ما كانت تلاحظ ذلك، وكثيراً ما كانت تبتسم، وكثيراً ما كانت تتجاهل،

كان أكرم يعمل خياطاً، وهي المهنة التي جعلته يصادف وداد ذات يوم عندما قصدته تطلب منه أن يصلح لها العباءة القديمة، ولاحظ أكرم بعد عدة زيارت قامت بها وداد له لإصلاح ثيابها القديمة لاحظ أنها تتعامل معه بحذر وتحفظ شديدين، وجدية تامة، وأنها ليست من هذا الطراز من الفتيات اللاتي توقعن الرجال في حبائلهن بالفعل أو بالقول، ووجد فيها الكثير مما يبعث على حبها، فأعجِبَ بها وطلبها للزواج، خاصة وأنه عَلِمَ منها أنها - تقريباً - مقطوعة من شجرة - مثله - وليس لديها من الأقارب إلا أختها المتزوجة، ولم تكن لتمانع، بل على العكس

من ذلك، فلقد أحست وداد أن الحظ قد بدأ يبتسم لها بعد طول عبوس فظروفها الإجتماعية لم تكن تمنحها الخيارات لتختار ما يناسبها، وهو ما جعل من أكرم عريساً مناسباً، وزوجاً لا بأس به، بل جيداً، وسرعان ما تزوجا، وأصبح أكرم غارقاً إلى أذنيه في حبها، ويكاد يلتهمها بعينيه طوال الوقت، وهي تغدو وتروح ترتب بيتها، فلقد كان لا يزال يرنو إليها وبريق الإعجاب يتألق في عينيه، يراقبها، ولا يحوّل عينيه عنها، وكان وجهها ينبض بالحياة والصحة والشباب، وعندما يبادلها الحديث كان أكرم يجد صوتها ينساب رناناً بالبهجة،

متفائلاً بالمستقبل الباسم الذي ينتظرهما معاً، سعيداً وراضياً بحاضره الجميل،
ولم يكن أكرم يأخذ حياة الزوجية مأخذ الجد، متكاسلاً، فكان زواجه وزوجته يحوزان الأولوية من شَغْل وقته، ومن تفكيره، ولكن مع مرورالأيام التي كانت تنساب من بين أيديهم، وبعد أن إنتهى شهر العسل سريعاً، بدأت متطلبات الحياة تضغط عليهما، وشعرا بالمسئولية، فبدأت وداد تطلب منه أن يصحو مبكراً بدلاً من أن يصحو كل يوم مع آذان الظهر، فقالت له في لين:

- أريد أن أطلب منك شيئاً يا أكرم..
- أطلبي وأنفذ يا حبيبة أكرم..

هكذا جاء جوابه مشجعاً، فقالت له بكلمات الرجاء:

- يجب أن تصحو مبكراً..إنهم يقولون أن الطائر المُبَكّرهو الذي يظفر بالدودة .

فقال ضاحكاً:

- ولكنني لستُ طائراً..
- كما أنكَ لا تحب أكل الدود!

واستغرق الإثنان في ضحك طويل عميق، ولم تكن حياة وداد مع أكرم سهلة بهيجة، ولكنها لم تكن تتوقع غير ذلك، فهي تعلم جيداً أن الحياة أكثر صعوبة بغير كفاح، وفكرت كيف تكون أكثر إيجابية، وكيف تتحمل مع زوجها الأعباء الملقاة على عاتقه لكي تقوم

بمسئولياتها على أكمل وجه، و لكي تحافظ على بيتها وعلى حب زوجها، وقررت أن تستعين برأي أختها في هذا الشأن، وكانت سعيدة جداً عندما طلبت من زوجها أن يتوقف عن التدخين فأذعن لطلبها واستطاع فعلاً أن يتوقف عن التدخين، وبدا لها زوجاً كريماً في بيته، ويحبها كثيراً، وهو ما جعلها لا تتوقف عن التفكير، كيف يمكنها مساعدته في مواجهة متطلبات الحياة لإستقرار حياتهم، وبناء كيان متماسك للأسرة التي يرغبان في تأسيسها بين جدران هذا البيت، و فجأة، إلتمعت في ذهنها فكرة جديدة كما يلتمع فجأة نجم في السماء، فقررت أن تتعلم الحياكة،

لكي تقاسم زوجها المسئولية، فهي تعلم أن الحب - رغم أهميته- لا يكفي وحده لبناء بيت الزوجية الصغير، بل أن المشاركة والترابط والتراحم هي أشياء ضرورية لمواجهة ما قد يعترض طريق حياتهما من عواصف الحياة، والمشاكل والمسئوليات والتحديات، بعناد وصمود وإصرار على البقاء ..

نعاند الدنيا .. وتعاندنا ..

نلاطمها .. وتلاطمنا ..

حتى ننتزع منها أحلامنا ..

هكذا كانت ترى حياتها، لابد أن تكون أيامها سلسلة من الكفاح، ووجدها أكرم فكرة لا بأس

بها، وكانت وداد فتاة محبوبة في الحي وترتبط بعلاقات صداقة مع الفتيات وألفة ومودة خاصة مع الجيران حيث كانت تتمتع بقلب رقيق وسلوكيات لا تخرج عن الأعراف والإتزان، وبعد أن أتقنت الحياكة والتفصيل للسيدات، سرعان ما أصبحت أحب النساء إلى قلوب جيرانها في الحي، فقد كانت تتساهل كثيراً في تقدير أجور الحياكة وإصلاح الثياب وتتسامح أكثر مع غير القادرات

وكرست وداد حياتها لزوجها العطوف ولبيتها وحياة الزوجية، فبدت سيدة محبوبة، وزوجة صالحة، كان ما ينتظرها هو أن تكون أمّاً

صالحة، وفي كل يوم يزداد حب أكرم لها ويزداد إرتباط كل منهما بالآخر، وقد رأى مقدار تفانيها من أجل سعادته ووفائها وإخلاصها من أجل الحفاظ على بيتها، وبدأت ثمرة الحب والزواج تتحرك في أحشائها، فلم تسعها الدنيا بما رحبت، وزفّت إليه بُشرى حملها السعيد وهي تُحلّق في سماء الأمومة، والأمل الجديد، مع الحياة الجديدة،

غداً تكتمل سعادتنا، باكتمال أسرتنا، قالت له في سعادة ما بعدها سعادة:

- حبيبي.. إختر إسماً جميلاً لطفلنا القادم إن شاء الله..

تحسس بطنها بكلتا راحتيه واقترب بأذنه يلصقها على بطنها يتسمع حركة الجنين وقال والدنيا لا تسعه لفرحته وسعادته:

- جابر.. سوف نسميه جابر..
- وإذا كانت صبية.. سوف نسميها بديعة..

قالت ذلك وهي راضية بعطاء الله، صبي أو صبية، ولكنها فوجئت برد فعل غريب جداً، أهالها وأرعبها، فقد إنتفض بصورة مفاجأة، وقال صائحاً:

- لا .. لاأريد بنتاً! إنه ولد.. فأنا لا أحب البنات!

قالت بدهشة:

- إنها إرادة الله.. فهذا الأمر لا يرتبط بما أحب وما تحب.. وهو رزق.. والولد والبنت سواء.." يهب لمن يشاء إناثاً.. ويهب لمن يشاء الذكور.. أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً.. ويجعل من يشاء عقيماً.." صدق الله العظيم..

وعلا صوته يصرخ في وجهها، وكأن عاصفة قد هبت، في يوم عاصف رهيب حتى كاد صراخه يصمّ أذنيها، قال:

- ألا تفهمين.. لقد قلت لكِ أنني لا أحب البنات.. ولن يكون هناك معنى لحياتي بدون ولد يحمل إسمي من بعدي..

ولم تجد وداد معنى لثورته المفاجأة، ولم تفهم سبباً لصراخه، ولماذا هاجت الدنيا من حوله، وصار نكِداً حادّ الطباع.

قالت له وهي في أشد حالات الدهشة والإستغراب:

- كم هو غريب ما تقول يا أكرم.. هل نتدخل في مشيئة الله؟

قال بنبرة جديدة، هي صراخ أكثر منها كلمات وتفاهم:

- لا أريد كلاماً كثيراً حول هذا الموضوع.. قلتُ لكِ أنني لا أحب البنات.. ألا تفهمين؟

- يبدو أنكَ أنتَ من لا يفهم معنى إرادة الله.. قل لي إذن.. إذا نفذ أمر الله.. وكانت بنتاً.. ماذا عساك أن تفعل؟

- سوف تعلمين يومها..

ومرت الأيام في توتر، مع كل يوم تزداد وداد توتراً وقلقاً، وجاء اليوم الموعود وبدأت أول آلام الوضع تنتابها، وكانت مشاعر متناقضة متضاربة تجتاحها، فهي بين آلام الوضع الشديدة، وبين فرحتها باستقبال أول مولود لها، وبين خوفها من أن تكون المولودة بنتاً، فيجِنّ جنون أكرم، الذي يتوعدها بالسوء إذا أنجبت له بنتاً

وبدأت ترسل صرخات آلام الولادة في كل أرجاء البيت، وجلس مرتعباً يُنصِت إلى الجلبة والصياح التي تملأ جنبات البيت، يصيخ السمع، ويتسمع لصوت الطفل الجديد، ويتساءل هل هو صبي أم صبية، وسأل أختها التي جاءت متهللة تبشره بسلامة وداد، لم يسألها عن سلامة وداد، سألها عن الطفل، أ وَلَد هو أم بنت، قالت له:

- أبشر يا أكرم.. إنها بنت زي القمر..

إمتقع وجهه، وتبدلت سحنته، أراد أن يصرخ في وجهها، ولكنه لم يستطع أن ينبس ببنت شفة، بكى، ودفع الباب بقدمه، وخرج غاضباً، كما لم يغضب من قبل

ومع خيوط الفجر الأولى عاد، لكي يُلقي بجسده على الفراش وينام، لم يسأل عن زوجته، لم يسأل عن الطفلة الجديدة، ومع مرور الوقت، وتسلسل الأيام، تعافت الأم، وبدأت بديعة تتحرك، حتى ملأت البيت بالحيوية والبهجة، ولاحظت الأم منذ الساعات الأولى أن الأب لن يكون أباً صالحاً للبنات، فلا هو يسأل عن طفلته ولا هو يداعبها، ولا يلعب ويلهو معها، وبعد عامين، جاءت الطفلة الثانية، صفية وتحطم قلب الأب، وجاءته القابلة بعد عامين آخرين، فبشرته بطفلته الثالثة صفاء

ولم تعد مشاعر الزوج كما عهدتها وداد، بل أن حبه لها قد مات بالتدريج وأخذت أحاسيسه ومشاعره في الذبول حتى جفت، واكتفت منه وداد بوجوده في البيت، يؤنسهم، وربما حقق وجوده لهم الأمان، واكتفت منه وداد بتوفيرالأمان، وكرست حياتها لبيتها ولبناتها، وكانت وداد في أحيان كثيرة تحاول أن ترضيه وتقنعه بأن الله عز وجلّ لا يمكن معاندته، بل علينا قبول قدره، وشكره على عطاياه، وأن الولد ليس بأفضل من البنت، ولكن في كليهما خير ورزق، وأن السبب في كون المولود ولد أو بنت ليس عائداً إلى الزوجة، ولا هو طبقاً لرغبة الزوج، ولم يكن

ذلك ليقنعه، ولم يكن ذلك ليعيده إلى رشده، ولو كان يستطيع أن يتزوج من أخرى لفعلها، ولم يكن ليتأخر عن الزواج يوماً واحداً، فهو يريد الولد، ولو من زوجة أخرى، وكانت المولودة الرابعة صبية جميلة، هي فوزية التي جاءت بعد أربعة أعوام من ولادة صفاء، وجنّ جنون أكرم، وعاد للتدخين، ربما ليس من أجل التدخين، بل من أجل مكايدة وداد ونكاية بها! واعتاد العودة قبل الفجر مترنحاً،

وفسدت علاقته بالبيت، ولم يعد يحترم زوجته، ولا يعاملها كعهدها به، وبات يثور لأتفه الأسباب، واعتاد ضرب بناته، لسبب

ولغير سبب، وأخذ يؤنبها ويلقي عليها اللوم، إذ كيف تلد له أربع بنات خلال تسع سنوات من زواجهما، ألا تستطيع أن تنجب له الولد؟ وكان أن أنجبت له بعد عامين آخرين " نادية " البنت الخامسة، وهو ما أفقده صوابه، وسخر منها ومن بناتها، لقد تغيرت سلوكياته في البيت تماماً، وبات كمن فقد رشده، ولم يعد يحفل بأحد، وأصبح نزِقاً ضيّق الصدر سريع الإنفعال، وأدمن السهر خارج البيت حتى ساعات الفجر الأولى، كما أدمن الشرب، وامتدت يده ذات مرة على وجه وداد فصفعها صفعة ألقتها أرضاً، وانهال عليها

سباً وإهانة، فمن لا تلد له ولداً لا تستحق منه
إلا
إهانتها وضربها الضرب المبرِّح! وأصبح
مولعاً بضربها، والقسوة على بناتها،
وتحملته وداد وتحملت قسوته من أجل رعاية
بناتها وحفاظاً على بيتها، ومن أجل الأيام
الخوالي، وأملاً في أن يهتدي إلى الصواب
ويعود إلى سابق عهدها به ..
وكانت تدعو له بالهداية عندما كانت تتذكر
أيام التفاهم والحب الذي جمعهما يوماً من
الأيام، وانفرط عقد الأيام سريعاً، ومرت
الشهور، وانتفخت بطن وداد للمرة السادسة،
وهزء بها أكرم، فلن تلد له هذه المرأة الغبية

إلا البنات، هكذا كان يحدث نفسه، وصوّر له أقران السوء في مجالس الشرب أن إمرأته إنما تتحداه لأنها تعلم أنه لن يستطيع معها شيئاً، ولو كان يضربها ويعاملها بقسوة لأذعنت

لأمره وأنجبت له الولد! ولغير ما سبب، وقف يهدد زوجته ويوجه لها السباب وهو يقول لها صائحاً صارخاً في وجهها:

- هل تتحدينني؟ سوف أريكِ كيف تنجبي لي صبياً كما أريد.

وأمسك بشعرها وهم يضربها، إلا أن البنات تحولقن من حوله باكيات صارخات يحاولن إبعاده عن أمهن ويطلبن منه أن يكُفّ عن

ضربها، وفي ثورة عارمة، وبحركة عنيفة دفع البنات بكلتا يديه، فألقى بأجسادهن الضعيفة بعيداً عنه، فوقعن على الأرض متألمات، وكان المشهد أليماً بالنسبة للأم، ولكنه عاد إليها، وأرسل ذراعه في قوة، يريد أن يبطش بها، ويسدد لها لطمة موجعة، إلا أنه كان عليها أن تلقنه درساً لا ينساه، بعد أن ضاقت به ذرعاً، وهو أن للصبر حدود، فصرخت في وجهه، والشرر يتطاير من عينيها:

- إلا بناتي..

وبسرعة مدهشة، تفادت الضربة، وأمسكت بذراعه بقوة، تحذره بنبرة تحدي لم يعتدها منها من قبل، وبكلمات جريئة لم يتوقعها:

- إياك وبناتي.. إياك أن تلمسهن بسوء.. ولتعلم يا أكرم.. أنني لن أسمح لك من اليوم وصاعداً.. أن تمسسنا بسوء.. لا أنا.. ولا بناتي.. واعلم أنك لن تدنو مني بعد اليوم..

وقد عرف من الشرر الذي تطاير من عينيها، ومن قوة صوتها، ونبرة التحدي، عرف أن هذه المرة غير كل مرة، وتختلف تماماً عن سابق عهده بها، فلن تتقبل بعد اليوم ضرباته، كما لن تستسلم لسبابه، ولا إهاناته التي لا

تنتهي، واستوعب الدرس، ولم يحاول العودة إلى ما فعل! ولا إلى ما قال! وبعد أن فعلت وداد ذلك كانت تندهش أن زال عنها التوتر، ولم تكن وداد تشعر بالخوف من أكرم، بعد ذلك اليوم، وباتت تحتضن بناتها سعيدة بهن دون أن تحسب لزوجها أدنى حساب،

فليخرج وقت ما يشاء، وليعد إلى بيته وقت ما يحب أن يعود،إنه لم يعد موجوداً بالنسبة لها، حتى وهو بالبيت، وجاءت ساعة الولادة فخرج من البيت.

"لن أستطيع أن أتحمل هذه المرأة الغبية وهي تبشرني بالبنت السادسة.. لعنها الله هذه الزوجة البائسة! ولعن بناتها الستة!"

هكذا كان يحدث نفسه وهو يغادر البيت قبل أن تلد زوجته، وتفانت البنات في خدمة أمهن مع خالتهن والقابلة، وأخيراً جاء صراخ الطفل يبكي، وأخيراً جاء جابر! لقد كان أبوه يريد أن يسميه جابر، ولكن أين هو لكي يفرح به ويضمه إلى صدره، ويحضنه ويسعد به، لقد خرج، ولم يعد، لم يرَ أكرم إبنه الذي عاش ينتظره لسنوات طوال، وفي اليوم الذي جاء فيه جابر إلى الحياة، خرج أبوه من البيت ، بل من حياتهم، ولم يرَه، ولم يعُد! وراحت الأم المسكينة في غيبوبة، ثم وافتها المنية بعد يومين متأثرة بحمّى النفاس، وفجأة، ودون سابق إنذار، وجدت بديعة،

الطفلة ذات الإثنى عشرة ربيعاً، وجدت نفسها مسئولة عن أسرة من خمسة بنات، لا تزلنَ أطفالاً، وصبي، له من العمر، يومان!

وذبُلَت وردة الربيع المتفتحة، وأطاح بها خريف مبكر، أما عن الطفل فقد طلبت خالتها منها أن تأتي به إليها كل يوم لإرضاعه، في بيتها في السيدة زينب، وأما عن البنات فكان على بديعة أن تعمل بالبيوت في خدمة من يدفع لها، لإعالتهن وإطعامهن، وحاولت أختها صفية والتي تصغرها بعامين، حاولت أن تساعدها في عملها بالمنازل حتى تستطيع أن توفر من النقود ما يلزم لإعالة الصغار،

إلا أن بديعة أحاطتها بذراعيها واحتضنتها باكية وقالت لها:

- بل دعي العمل لي.. واهتمي أنتِ في غيابي بأخيكِ جابر وإخواتك الصغار وليس هذا بأقل مما سوف أقوم أنا به من عمل.

وباتت بديعة باكية، جزعة، مرتجفة، كانت خائفة كل الخوف، خائفة حتى الموت، هل تستطيع أن تقوم بهذا الدور، هل تستطيع أن توفر الطعام لهذا الجيش من الأطفال الجياع، هل تستطيع أن توفر اللبن لإرضاع جابر، لقد جافاها النوم،

وأطاحت الكوابيس بأحلام الطفولة البريئة الجميلة، فلم تعد تحلم باللِعَب والدُمَى، لم تعد تحلم بالقفز هنا وهناك مع أقرانها من الأطفال، بل باتت تحلم بصراخ جابر يبكي جائعاً، وأخواتها البنات، لا تجدن طعاماً ولا شراب، وهي تقف بينهم جميعاً، لا حول لها ولا قوة، وجفت الدموع في مُقلتيها، وفي الصباح الباكر أوصت بديعة أختها صفية على أخواتها خيراً، ثم أخذت جابر إلى السيدة زينب حيث تقيم خالتها، وبعد أن رضع وشبع عادت به إلى البيت في قلعة الكبش حيث تقيم هي وإخوتها، بعدها أخذت بديعة طريقها إلى المنازل التي هي في حاجة

إلى خدمتها، وكانت بديعة تعود في المساء
متعبة منهوكة القوى، كانت تخدم في
المنازل، كانت تفعل كل شيء لكي تعود في
المساء بالطعام لأخواتها التي أصبحت هي
لهم الأم والأب، والدنيا كلها، هي لهم كل
شيء! وتوافرت اللقمة، وكان الطعام كافياً ألا
يبيت الأطفال جوعى، وكان جابر هو
المسئولية الكبرى،
وفي هذا اليوم البارد، ذهبت بديعة كالعادة
إلى بيت خالتها لإرضاع جابر، وكان طفلاً
بكّاءً كثير البكاء، فما ذنبها وماذا تفعل له،
وكيف لها أن تعرف ما يبكيه،

إلا أن زوج خالتها كان ثائراً، فصرخ في وجهها، آمراً ألا تعود به أبداً، فبيته ليس حضانة، وعليها أن تجد له مرضعة أخرى، وفجأة إحتدم النقاش، فقد كانت الخالة تتعاطف كثيراً مع أبناء أختها المرحومة، وكيف لا وهم لا زالوا أطفالاً، لا حول لهم ولا قوة، وكانت صرخاتها في وجه زوجها قوية، إلا أن صرخات زوجها كانت تتدفق كألسنة اللهب، إنه ثائر، ولا يتوقف عن الصراخ في وجه الجميع، ولم تكن الطفلة ترغب لهما في الإستمرار في الغضب ولا مواصلة الصراخ والتراشق بالكلمات في شجار لا يعلم نتيجته إلا الله، خاصة وأن الإنفعال

أخذ يضرج وجوههم، وبدأ الشرر يتطاير من العيون.

احتضنت بديعة أخاها الرضيع بين ذراعيها ومضت خائفة، باكية، لا تعرف إلى أين تذهب، ولا تعرف ماذا تصنع مع هذا الطفل، ولا تعرف كيف ترضعه،

وانقضت الساعات، والجوع يلهب معدتها، والتعب من كثرة السير يلهب قدميها والبرد يحطم أضلعها. وقد تستطيع الطفلة أن تتحمل كل ذلك، إلا أنها لا تستطيع أن تتحمل صراخ جابر الرضيع بين ذراعيها الصغيرتين وهو يتألم من الجوع، ويقاسي من شدة البرد.

وقد ظلت بديعة هكذا تعاني طوال اليوم، حتى إذا أهلكها التعب وأنهكها الجوع،
ألقت بنفسها يائسة، بائسة، على هذا الحجر الذي يلاصق سياج فيلا فاتن، وقد خارت قواها، وأصمّ صراخ جابر أذنيها، وراحت الطفلة تبتهل إلى الله أن ينقذ أخاها من الهلاك، فلو ظَلّ هكذا بلا طعام وبلا تدفئة لهلك لا محالة.
وبينما هي تبتهل إلى الله وتدعو، فإذا بالقلب الرحيم، قلب فاتن يحقق أمر الله، فتقابلها فاتن بينما هي تدعو، وتعطف عليها، وتصحبها إلى الداخل، وفي الداخل تتيقن الطفلة أن الله موجود، وأن الله قد استجاب لدعائها، كما

تيقنت أن بالدنيا أناساً طيبين، واتفقت السيدة حسناء مع بديعة على أن تُحضِر جابر كل يوم إلى المربية لديهم فترضعه كما ترضع إبنتها، كما اتفقت معها على أن تعمل لديهم في الفيلا كل يوم عدا يوم الجمعة، وذلك مقابل أجر مُجزي سوف يكفي لسد حاجاتها هي وأخواتها ويكفي كل متطلباتهم، كما أرسلت معها المعاطف والملابس الثقيلة والصوفية التي تقيهن هذا البرد القارس، كما لم تنسَ الأغطية، فليل ديسمبر لا يمكن تحمله بدون أغطية، ولا يمكن مواجهته ملتحفين السماء.

الفصل السادس

الأسرة الصغيرة

لم تكن بديعة تعرف أين أباها ولا لماذا خرج من البيت غاضباً، ولا تعرف كيف تبحث عنه، إلا أنها كانت تجتهد قدراستطاعتها أن تدير شئون هذا البيت، بعد أن وجهت الدنيا لها الضربة القاضية، ضربة تحت الحزام، لقد ذهب أبوها، إلى أين لا أحد يعلم، ثم ذهبت أمها، رحمها الله بعد رحيله بيومين فقط، وأصبحت هي وحيدة، في مهب الريح، تحمل مسئولية أسرة تتكون بالكامل، من بضعة أطفال!

وكانت الأيام تنزلق يوماً بعد يوم كحبات السبحة، وبالتدريج، ومع مرور الأيام، بدأ التوتر الذي كان يجثم على صدرها بدأ يزول، وكأنها قد تقمصت دور الأم، فكانت حقاً لإخوتها الأم الحنون، واتفقت بديعة مع أختها صفية أن تحافظ الأخيرة على انتظامها في المدرسة، وأن تشجع أختها صفاء على الدراسة وتساعدها في استيعاب دروسها، أما الأخت الصغيرة فوزية فلم تكن في سن الدراسة بعد، أما الأخت الصغيرة نادية التي لم تكن قد أكملت عامها الثاني بعد، فكانت لا تزال تتعثر في خطواتها الأولى، وقد بدأت لتوها تتعلم كيف تنطق بالكلمات، وكان على

بديعة إفطام أختها نادية، فلن تستطيع توفير اللبن لها ولأخيها جابر في نفس الوقت فحسبُها البحث لجابر عن اللبن الكافي لإرضاعه، أما عن نفسها فقد قررت بديعة أن تكتفي بهذا القدر من التعليم وذلك لكي تتفرغ لتربية أخيها الرضيع جابر وأيضاً مراعاة شئون الأسرة الصغيرة والبيت.

وكما قال الشاعر أحمد شوقي:

ولأمر ما.. وسرٌّ غامضُ تسعد النطفة أو يشقى الجنين

فوليد .. تسجد الدنيا له وسواه في زوايا المهملين

قفز قلب الأم الصغيرة، خوفاً وهلعاً، عندما طرق عم سلطان باب المنزل، وفتحت له، ودارت بها الدنيا، فقد إعتقدت المسكينة أن عم سلطان صاحب البيت إنما جاء لكي يحصِّل قيمة الإيجار الشهري للبيت أو يطردهم شر طردة، ومادت بها الأرض، وشحب وجهها، ولاحظ عم سلطان التوتر الذي إشتمل على جسد الصغيرة، وكان يرى صدرها يعلو ويهبط من الإرتباك وأدرك ما يفزعها، قال
في نبرة طيبة أبوية رحيمة:

- لا تفزعي يا إبنتي.. فلا أحد يجهل ظروفك.. وأما عن قيمة الإيجار لهذا

البيت.. فقد تنازلتُ عنها ولن أطلبها
منكِ أبداً.. وقد علمتُ أن أهل الحي
جميعهم يقفون إلى جواركِ.. ولن
يخذلوكِ.. وأما عن نفسي.. فسوف
أحضر إليكم بين الحين والحين..
للإطمئنان عليكم.. وتوفير ما قد
تحتاجون إليه من مستلزمات المعيشة..
وأما عن إخوتكِ.. فلن أوصيكِ عليهم
.. لأننا نعلم ما تقومين به من أجلهم.

ومضى عم سلطان، بينما ظلت بديعة واقفة في مكانها، تحاول أن تستوعب ما يحدث، ربما لم تكن الطفلة تسمع من كل هذا الحديث شيئاً، وربما سمعت منه ما سمعت ولم تفهم

منه شيئاً، لقد فهمت منه شيئاً واحداً، وبعده توقف عنها الفهم وذلك ليس لأنها لا تفهم، بل لأن فرحتها بأن عم سلطان قد أعفاها من القيمة الإيجارية، وأنه لم يحضر اليوم لطلبها، ولن يفعل ذلك في المستقبل، كانت فرحتها بهذا الخبر أكبر من أن تستوعبها، كان في هذا الخبر ما يكفيها من سعادة وما يثلج صدرها ويزيل كابوساً يثقل على كتفيها بحمل لا طاقة لها به، وشكرت بديعة عم سلطان كثيراً، رغم أنه كان قد قال ما قال وذهب لا ينتظر منها الشكر ولا العرفان.

قال ما قال، وهو لا يعرف أنه بذلك أحيا عند الطفلة روحاً جميلة هي في حاجة

حقيقية إليها، فهناك أناس طيبون يحيطون بها ويساندونها ويدعمونها بالمال، وبالطيب من الكلمات والمشاعر والعطف، ولم يعرف عم سلطان حجم الطاقة الإيجابية، والقوة الحقيقية التي منحها موقفه الشهم لهذه الطفلة في مواجهة أعباء الحياة والتصدي لكل مسئولياتها لتدبير أمر أسرتها الصغيرة.

وفي سعادة بالغة، راحت بديعة تحكي موقف عم سلطان منها لأختها صفية وكيف تنازل لهم عن القيمة الإيجارية للبيت على الدوام، وفي اليوم التالي كان موقف عم سلطان منها هو أهم خبر سارعت بديعة إلى الحديث عنه مع خالتها عندما جاءت لزيارتها والإطمئنان

عليها وعلى إخوتها، وفرِحت الخالة كثيراً بهذا الخبر الذي أزاح هماً كبيراً وعبئاً ثقيلاً عن عاتق الطفلة الصغيرة، وكانت مناسبة جيدة لأن تعتذر الخالة عن موقف زوجها الغاضب فقالت لها بعطف الأم وحنانها:

- ألا زلتِ غاضبة يا بديعة من موقف زوج خالتك؟
- إنني لم أحزن من أجلي يا خالتي.. ولكنني حزنتُ من أجل أخي جابر.. فلقد كان جائعاً.. ولم أكن أعلم حينها إلى أين أذهب به.. كما لم أكن أعلم ماذا عليّ أن أفعل..

- أشهد الله يا إبنتي أنني غضبتُ منه كثيراً لما فعله بكِ.. وكان بيننا حديث غاضب.. ولكنني لا أعرف كيف أفعل به.. وماذا أفعل معه.. إنه زوجي.. وإذا تماديتُ معه.. قد يتمادى.. فتخرج الأمورعن السيطرة.. ولا أحد يعرف إلى أين قد تصبح النتائج..

- تعرفي يا خالتي.. ربنا ساعدني يومها.. وقابلتني فاتن.. والمشكلة كلها تم حلها.. وسوف أعمل لديهم بالبيت.. بأجر كبير.. والأهم من ذلك.. أن الست المربية سوف ترضعه مع إبنتها..

ولم تكن الخالة تتحمس لفكرة عمل بديعة لدى بيت فاتن، فاقترحت عليها أن تساعدها حتى تتعلم الحياكة، وخاصة أنه لديها ماكينة الحياكة والأدوات اللازمة جميعها للحياكة، فهي من علّمَت أمها وداد من قبل رحمها الله، فأخبرتها بديعة أن أمها كانت قد علّمتها بعض الشيء عن الحياكة وإصلاح الملابس، وأنها قد تتعلم سريعاً لأنها تهوى هذا العمل، وهذا ما شجع الخالة على تعليمها وتدريبها على الحياكة، ولم تتركها إلا وقد أتقنت هذا العمل، ثم إصطحبت الخالة بديعة ومرت على الكثيرات من سيدات الحي والفتيات وأخبرتهن بأنه يمكنهن الإعتماد

عليها في إصلاح ملابسهن وأيضاً تفصيل ملابسهن الجديدة وخاصة العباءات، وفي الحقيقة أن الخالة كان لها الدور الكبير والهام في تحقيق النجاح والكفاءة التي إكتسبتها بديعة فشجعت الفتيات والسيدات للتفصيل وإصلاح ملابسهن لدى الخياطة الجديدة،بديعة، التي عُرِفَتْ في الحي كله بلقب الأم الصغيرة، وأحياناً يطلقون عليها الخياطة الصغيرة، وبدأ العائد من هذا العمل يؤتي ثماره وبدأت الأسرة الصغيرة تعتمد على نفسها إلى حد بعيد في توفيرالإحتياجات والضرورات اللازمة للحياة البسيطة بين جنبات هذا البيت الصغير، الذي يضم

مجموعة جميلة من الأطفال، قرروا أن يكونوا أخوات صالحين يحمي بعضهم بعضاً ويعين بعضهم بعضاً بقلوب متفتحة مثل زهرة الربيع.

ونجحت الطفلة الصغيرة في إدارة دفة هذه الأسرة، ونجحت فيما فشل فيه الكثير من الأسر في توفير الحب والتعاون بين كل أعضاء الأسرة، فقد كانت أماً صالحة بالفطرة، وكانت الحياة تمر سراعاً بكل أوجهها المتقلبة وبكل أيامها المتناقضة، المشرقة منها، والمتجهمة.

"يا للأيام..هل هذا معقول..ثمانية عشرة عاماً.. هي عمرك الآن يا بديعة.. لقد

كبرتِ.. وظهرت على وجهك وملامحك آثار السنين.."

هكذا حدّثتْ بديعة نفسها بينما كانت تنظر في المرآة وتمشط شعرها ..

"أللّه يرحمك يا أمي.. لقد مضى على رحيلك ستة أعوام..حُرِمنا فيها من حضنك ومن حبك وحنانك..كيف كنتُ سوف أبدو.. لو أنك كنتِ معنا.. نترعرع في أحضانك.. وننمو في رحاب حنانك وعطفك.. وننعم برعايتك..هل كنتُ سوف أبدو أصغر من ذلك بكثير؟ لا يهم مظهري الآن..فسوف أكون سعيدة لو كنتِ الآن راضية عني كل الرضا.. إنني وإخوتي جميعاً نتذكرك.. وندعو لكِ بالرحمة ونرجو

أن تكوني راضية عنا..رحمك الله يا أمي..واعلمي أن الله عزّ وجلّ.. قد سخّرَ لنا السيدة حسناء.. فكان لها دور رائع في حياتنا جميعاً.."

ومدت يدها لكي تمسح الدموع التي تسللت من عينيها وأحست بها حارة على خدودها.

وفي الحقيقة أن الدعم الذي قدمته السيدة حسناء لبديعة كان دعماً كبيراً عاونها في الحفاظ على كيان أسرتها الصغيرة، كان دعماً مادياً وعينياً ومعنوياً وهو ما شجع بديعة على التردد على فيلا السيدة حسناء ليس للعمل وليس لرضاعة جابر بل لمجرد

الزيارة حباً للسيدة حسناء وحباً لفاتن وفرح فكان للسيدة حسناء دورهام في حياة بديعة وتوازنها كما كان لإبنتيها فرح وفاتن دورهام في مسيرة حياتها وخاصة في مراحل تعليم صفية وصفاء، وكانت فرح وأختها فاتن على قدر كبير من التواضع وليس لديهما أي قدر من التعالي وهو ما ورثته من الأم السيدة حسناء التي كانت قد وهبت حياتها لأعمال الخير وكان لها دور فعال في المؤسسات المجتمعية والجمعيات الخيرية، وارتبطت بديعة وصفية بعلاقة صداقة جميلة مع فرح وفاتن وشملت هذه المجموعة من الصديقات أمل التي كانت

جارتهن في قلعة الكبش والتي كانت أيضاً زميلة دراسة مع فرح في المدرسة الثانوية بالسيدة زينب في الصف الثالث بينما كانت فاتن في الصف الثاني في نفس المدرسة، إلا أن أمل وأخاها علي - وأيضاً بعض من جيرانها مثل محمد

وهو خطيب أمل - كانت الظروف سانحة لهم بالإنتماء إلى كلية التجارة جامعة القاهرة، مع فرح في هذا العام الدراسي .. الذي يبدأ بعد نهاية هذه الأجازة الصيفية، وهكذا، كانت بديعة سعيدة كل السعادة، عندما كانت ترى نتيجة حفاظها على

هذا البيت واحتضانها لأخواتها تتجسد أمامها في نجاح أخواتها في دراستهم
فها هي صفية في الصف الأول من المدارس الثانوية الفنية وأختها صفاء في الصنف الثاني من المرحلة الإعدادية وأختها فوزية في الرابعة الإبتدائية ونادية في الثانية الإبتدائية
أما الأخ الأصغر الذي تركته أمه رضيعاً فقد بلغ من العمر ستة أعوام والتحق بالصف الأول من المدارس الإبتدائية.
وكانت حيات بديعة تشبه السُلّم، كل يوم يمثل لها درجة من درجات هذا السُلّم، مع كل يوم يمر، كانت تصعد درجة، حتى وصلت اليوم إلى درجة السُلّم التي إحتفلت فيها

بنجاحها، والحفاظ على مواصلة إخوتها في التعليم في مستوى من التعليم لم تكن لتصل إليه بغير توفيق الله وتعاطفهم وتماسكهم وتراحمهم، إنها سعيدة كل السعادة وكأنها هي من حصلت على هذه الدراسة، وكأنها هي من حصلت على هذا القدر من التعليم، لقد إستطاعت هذه الطفلة الصغيرة أن تثبت حقاً أن الإنسان هو أعظم أعجوبة في العالم، فهو يستطيع أن يحيل حياته إلى نعيم بالرضا والحب والتسامح والعطاء والترفع عن الصغائر، والسمو بنفسه عن الدنيا
بينما يستطيع في نفس الوقت أن يحيل حياته إلى عذاب مقيم بأحقاده وتطلعاته المبالغ فيها

وتكالبه على الماديات وقِصَر نظره بالبحث عن الجاه والسلطان.

لقد استطاعت الطفلة الصغيرة بديعة، بتجربتها الفريدة والرائعة، بالحفاظ على أسرتها متماسكة، متراحمة، طوال هذه السنوات، وبعد كل هذه السنوات من وفاة أمها، استطاعت أن تحوز إعجاب الكثيرين من أهل الحي، حي قلعة الكبش، أما السيدة حسناء فقد قررت أن تدخل هذا الحي، لكي تتعرف على البيئة التي نشأت فيها بديعة، لكي تلمس بنفسها مدى تفاعل أهل هذا الحي الفقير، من أحياء العشوائيات، مدى تفاعلهم مع ظروف حياتهم، وتراحمهم،

وتعاونهم، فشجعت الجمعيات الخيرية والمؤسسات المجتمعية على تقديم المزيد من الخدمات والمساعدات لأهل حي قلعة الكبش، حتى أنها طلبت من زوجها كمال أن يؤسس جمعية أهلية خيرية لكي يستطيع من خلالها أن يقدم المساعدات لمثل هذا الحي من أحياء العشوائيات، فماذا رأت السيدة حسناء في العشوائيات، وكيف وجدت حي قلعة الكبش، وكيف هالها ما رأته من جوانب حياتهم البائسة، وشوارعهم القذرة.

الفصل السابع

قلعة الكبش

تناثرت الأحجار في فوضى عارمة، وتجمع بعضها حول بركة من الماء الآسن الذي اختلط بماء الصرف الصحي، ولم يبخل عليها السكان من حولها بما لديهم من قمامة فألقوها بالماء هنا وهناك، فانتشر العفن وانتشرت في الهواء روائحه

تُزكّم الأنوف، وتشمئز منه العيون في مشهد مُنفر كئيب، ومن حولها، وفي كل مكان، تراكمت أكوام القمامة في مشاهد رهيبة عفنة مقززة، تقدم وجبات دائمة للكلاب والقطط، و يزاحمهم في تناول هذه الوجبات الكثير من الجوعى، أطفال أو بالغون وشيوخ، وما أكثرهم الأطفال والشيوخ الجوعى الذين

أخذوا يفتشون في أكوام القمامة عن كِسرة خبز أو حتى عظمة لم يصل إليها الكلاب قبلهم! يسدون بها رمقهم ويشبعون جوعهم بعد أن ضاقت بهم السبل وتقطعت بهم الأسباب، فأصبحوا يشاركون الحيوانات والزواحف والقوارض، يشاركونهم حياتهم وأكلهم ومسكنهم أيضا، يعيشون معهم في تآلف تام، وبينهم سعي مشترك على الرزق!

المكان تفوح منه رائحة الأموات، أموات تحت الأرض، وأموات فوق الأرض

يتمنون أن يأتي دورهم في الإنتقال، من أعلى إلى أسفل!

شوارع ضيقة، بل أذقة لا تكاد تسمح بمرور سيارة إسعاف أو سيارة حريق وطبعا ولا سيارة شرطة إذا لزم الأمر في محاولة لمطاردة أحد تجار أو موزعي المخدرات أو الخارجين على القانون، البنايات السكنية في حالة تردّي تام، فهي بيوت هي أقرب إلى العشش منها إلى مساكن تليق بالبشر يقيمون بها معززين مكرمين، أو حتى مهانين! أليسوا مهانين لمجرد إقامتهم في هذه العشش وهذا الحي؟ عشش من صفيح تذروها الرياح مع أول عاصفة لا تترك منها سقف إلا وتقاذفته، فلا يبقى سطح، أو شباك، ولا باب، عشش من طين، مع أول مطر ينهمر

سوف تجد أن كل شيء قد ذهب مع الريح! وأحياناً تكون العشش مصنوعة من بعض قطع الأقمشة البالية القذرة الممزقة، عندما لا تتوافر قطع الصفيح، ولا يكون الغرض من هذه العشش المصنوعة من القماش إلا وقاية قاطنيها من أشعة الشمس وحرارتها التي تلهب الوجوه، وربما تقيهم أيضاً أعين المتطفلين، وكثيراً ما تتقاذفها الرياح، فيعيدوا إقامتها وبنائها بصبر ويأس وحسرة، بصبر، لأنهم ليس لديهم غير الصبر بديل. ويأس، لأنهم لا يعلمون أن هناك شيئاً إسمه الأمل في معيشة أفضل. وحسرة على حياتهم الضائعة وكرامتهم المهانة وعلى بناتهم

اللاتي تعشن بلا حائط يستر أجسادهن عن أعين من يرغبون في المشاهدة المجانية، لعورات البنات.

بعض العشش تتكون من غرفة واحدة تكدست بها عائلة كاملة، أب وأم وأطفال

أولاد وبنات، وربما أيضاً أحفاد، إذا وجِد حمّام، فهو حفرة في الأرض! لقضاء الحاجة، وغالبا يوجد حمام واحد لأكثر من عائلة! وأحيانا، المساكن من خشب للأسر المتيسرة! بدون سقف وربما بدون باب! لا مرافق، لا مياة، لا كهرباء ولا صرف صحي.

"أغمض عينيك حتى لا ترى هذه المشاهد.. فأنت في قلعة الكبش.."

"ضع كمامة على أنفك حتى لا تشتَمّ هذه الروائح.. فتُخرِج ما في معدتك.. وتقيء"

"راقب قدميك حتى لا تسقط في مستنقع أو تتعثر في بعض الأحجار.. أنتَ في منطقة العشوائيات .."

"هكذا يجب أن تتوافر بعض اللافتات.. للتحذير.."

هكذا علقت السيدة حسناء على المشهد المؤلم وكادت أن تُغمض عينيها حتى لا

تؤذيها هذه المشاهد، وتضع منديلاً على أنفها حتى لا تنفذ إلى جوفها هذه الروائح العفنة.

إنها منطقة عشوائيات، وإذا ذُكرت العشوائيات ذُكر الفقر والجهل والمرض،

ذُكرت الفوضى والمشاهد المقززة العفنة.

كان الكثير من الأولاد يرتدون الثياب الرثة، والملابس البالية التي تكشف عن كل مظاهر الفقر والعوز، هذا سرواله ممزق من طرف الساق، وهذا ظهرت ركبته من سرواله القديم المتسخ، وهذا تبدو ملابسه أكبر كثيراً من حجمه، فهكذا حصل عليها من أحد المتصدقين، وهذا جاء حافي القدمين، فلا حذاء لديه، وهذه بدا شعرها منكوشاً، فأمها المسكينة غارقة في خدمة البيوت لإعالة الأسرة، فلا وقت لديها لرعاية أبنائها! فتركتهم للشارع غير مختارة، ليفعل بهم ما يشاء، فإذا قذفتهم الرياح إلى هاوية جهنم

الجريمة والرزيلة والمخدرات، فلن يكون هناك أدنى مقاومة، وإذا قذفتهم أقدارهم إلى عالم التسول والتشرد والضياع، فسيكون ذلك المصير، هو أقل الأضرار المحتملة ! حقيقة يوجد بعض الأولاد في ثياب لا بأس بها، وفي صورة لا بأس بها، إلا أنهم القِلّة.

واستنكرت السيدة حسناء هذا الغياب الكامل للدولة، والإهمال الكامل لحياة هؤلاء البشر، إلا في مناسبتين، وهو ما أصبح معروفا للجميع، الأولى عندما يتم الإعداد لموازنة الدولة عن السنة المالية التالية، فتجد الحكومة أن الدعم الذي تقدمه الدولة لهؤلاء الفقراء لا شك سوف يترتب عليه خلل وعجز في

الميزانية، فكيف يتم علاج هذا الخلل، وكيف يتم إصلاح العجز في الموازنة، فهنا تتفتق عبقرية الحكومة، وتتذكر هؤلاء المعدمين في هذه الأحياء المنسية، فترفع الدعم عنهم وتفرض عليهم الضرائب الجديدة، يبدو أن هناك إتفاق بين كل خبراء المجموعة الإقتصادية، مضمونه أن رفع الدعم هو الحل، فإذا بحثوا عن حلول للنهوض بالإقتصاد، كان رفع الدعم هو الحل، كيف نعالج العجز في الموازنة العامة للدولة، رفع الدعم هو الحل، وترفع الدعم عن الكهرباء والمحروقات والخدمات، ثم ترفع أسعار السجائر وكأنها سلعة إستفزازية على من

يدخنها أن يدفع الثمن الذي تقرره الحكومة.أما على المستوى الآخر، فلا أحد يستطيع أن يمس رجال الأعمال، ولا أحد يستطيع أن يفرض عليهم ضرائب جديدة، أو تصاعدية.

مناسبة أخرى تتذكر فيها النخبة، هذه الأحياء المهملة المنسية، ألا وهي حالة اقتراب موعد الإنتخابات البرلمانية، وتعلن بدء مزاد شراء الأصوات، والتجارة بحياة هؤلاء البشر الفقراء المُعدمين،ويتم شراء أصواتهم ببضع جنيهات، وبعض المواد الغذائية، ولا مانع من إلقاء بعض الوعود الكاذبة! واللعب على آمال

هؤلاء البؤساء في غد أقل تعاسة وأقل إيلاماً وأقل قسوة.

هذه هي العشوائيات كما رأتها السيدة حسناء.

فوق أحد هذه الأحجار، إعتاد محمد أن يجلس بعض الوقت، أحيانا لكي يفكر في أبيه الذي توفي بعد صراع مرير مع مرض تليف الكبد، وهو المرض الشائع في مناطق العشوائيات، وأحياناً كان يُمضي الوقت يفكر في حلمه الذي هو مجرد حلم بعيد المنال، كيف يجد الوظيفة التي تمكنه من تعويض أمه هذه السنوات العجاف من حياتها، وأيضاً ينفق على نفسه لإستكمال دراسته في الجامعة، فقد تم إعلان نتيجة التنسيق للقبول بالجامعات

المختلفة، وكان من حقه أن يلتحق بكلية التجارة جامعة القاهرة، وهي أيضاً الكلية التي إلتحق بها علي وأخته أمل وفرح وهي زميلتهم منذ الدراسة في المدرسة الثانوية بالسيدة زينب، مات الأب منذ عدة أشهر، قبل أن يفرح بإلتحاق محمد بكلية التجارة، تاركا وراءه زوجته و إبنه يصارعان الزمن، وغير بعيد عن هذه الأحجار التي يعتلي محمد إحداها كانت عشة كريمة، التي كره أولادها الخمسة فصل الشتاء، فإن أمطاره تتخلل أخشاب السطح المتداعية فتتسلل قطرات الماء إلى أرض العشة، فتبلل الفراش النحيلة كالخرقة المهترئة، وتبتل البطانية التي

يلتحفون بها، فينهضون وقد أحالت بضعة قطرات من المطر حياتهم عذاباً وبيتهم قبراً لا يطاق، فعلى ماذا ينامون؟ وبماذا يتغطون حتى يقيهم شر البرد؟ ولا يسع كريمة المسكينة إلا أن تبكي، فهي تبكي نهاراً لعدم قدرتها على رعاية أبناءها والإنفاق عليهم وتوفير اللقمة التي يقتاتون بها، وهي تبكي ليلاً عندما تتساقط المياة والأمطارعليهم وهم نيام فلا تجد ما يقيهم من البرد ولا حتى تحميهم من تساقط المياة على رؤوسهم، لقد رآها محمد ذات يوم تغسل ثيابها وثياب أطفالها في نفس الوعاء (الحلة) التي تطهو

فيها الطعام! والتي تجلب فيها مياة الشرب وتحفظ فيها هذا الماء لحين الحاجة للشرب، إن هذه الحلة تمثل كل مقتنيات وأدوات البيت لجلب الماء وحفظه والغسيل فيها والطهو! وأفاق محمد من شروده على صوت أحد الجيران الذي ملأ صراخه المكان.

- يا محمد.. يامحمد..

أفاق محمد، وكأنه استيقظ من نومه.

- ماذا هناك يا علي؟ لماذا تصرخ هكذا؟
- هيا يا محمد..أمك ترغب في رؤيتك..
- أمي؟ .. ماذا بها ياعلي!

قال محمد ذلك وهو يقفز من فوق الحجر الذي يتخذه مقعداً، في قلق وفزع.

- تعبانة جداً..

وأطلق محمد العنان لساقيه يسابق الريح .. وتسارعت نبضات قلبه..وسرت في جسده رجفة ملأته بالخوف والوجل، وسيطرت آلاف الأفكار السوداء على عقله حتى أنه لم يكن يدري شيئا مما حوله إلا شيء واحد، هو أن يسرع إلى أمه لكي يطمئن أنها بخير، كانت أمه ملقاة على الأرض، ومن حولها تجمع النسوة الجيران، والأطفال والأولاد وبعض الرجال

كانت هناك بديعة وإخوتها البنات، وأمل، حتى فرح التي لم تكن تتأخر في المناسبات الخاصة بأهل قلعة الكبش ومعها أختها فاتن، كان الحزن يخيم على المكان، فهي أم محمد التي أحبها الجميع، ولم يكن أحد يسمع إلا البكاء، وإرتمي محمد على أمه، ورغم ما تقاسيه أم محمد من آلام لا يستطيع جسدها النحيل أن يتحملها إلا أنها حاولت أن تتسامى على جراحها وآلامها، فقد أدركت أن ولدها يعتصره الألم والخوف عليها، لما صارت عليه حالتها، فمدت يدها بصعوبة شديدة تجفف دموعه التي انهمرت كما لم تنهمر من قبل، إلا في يوم وفاة والده الذي أحبه بكل

جوارحه، وحزن عليه حزنا شديداً، وسكتت، إلى الأبد، قبل أن يحاول محمد أن يذهب بها إلى أي مستشفى أو إلى أي طبيب، وكانت ليلة حزينة سهر من أجلها الكثيرون من أهل الحي لمواساة محمد وتخفيف آلامه، وفي الصباح أقيم سرادق بسيط، ولم يعلم أحد من قام بسداد الفواتير، وتم تقديم واجب العزاء لمحمد، فلم يشعر أنه وحيد وسط هذه المجموعة الصادقة من الأصدقاء الذين سارعوا للوقوف بجانبه في هذا الظرف الصعب من حياته.

الفصل الثامن

مدحت

عندما هم مدحت بالخروج من باب البيت، فتحت الأم النافذة لكي تطمئن على حال الطقس في الخارج، وما أن فتحت النافذة، وأخرجت رأسها منها رافعة عينيها إلى السماء، حتى عادت فأغلقتها، وقالت في قلق:

- إن الضباب كثيف، ومن المؤكد أن الأمطار سوف تنهمر بعد قليل.

فقال مدحت باسماً، وهو يمازح أمه:

- لماذا إذن لا تعملين في هيئة الأرصاد الجوية يا أمي؟

وضحكا، وأمسك يد أمه في حنان، ورفعها إلى شفتيه وقد مال بوجهه، وقبلها في حب وإجلال قائلاً:

- ادعي لي يا أمي.. فما أطيب دعاءك.. وما أحوجني إليه..

فقالت له أمه، تُذكّره بالحقيبة التي أُرسِلت إليه من قِبَل أسرة صديقه كريم لكي يسلمها له في القاهرة:

- لا تنسى حقيبة كريم.

فقال لها مطمئنا لها:

- نعم يا أمي.. سوف أعلقها من السير في كتفي.. وهي خفيفة.. وتحتوي فقط على بعض الثياب..

وبينما هو يفتح الباب، رآها تبسط راحتيها وتتجه بناظريها إلى السماء، داعية له في رجاء و ابتهال إلى الله من أعماق قلبها:

"اللهم نجح مقاصدك يا مدحت يا ابن بطني.. اللهم وفقه في دراسته..اللهم حبب فيه خَلقَك.. اللهم ارزقه عدد حبات المطر.. وأوراق الشجر.. وذرات الحصى والحجر.."

وانشرح قلب مدحت متفائلا كعادته حين تدعو له أمه، وخرج وأغلق الباب باسماً ولا زالت أمه تدعو له.

كانت أم مدحت قد جاوزت الخمسين من العمر، وها هي خريطة الآلام وقد أبدع الزمن في تشكيلها في صورة خطوط حُفِرت على وجهها، فبدت امرأة يُثقِل كاهلها الفقر والحرمان، إلا أنه أبقى لها هذه الإبتسامة التي لا تكاد تفارق وجهها وبريق الأمل ذاك الذي يُشِع من عينيها، ولو أنها لم تعد تدري، لمَ الأمل لا زال يصاحبها عنيداً كعنادها! ولا تفتأ تصارع صراعاً مريراً لكي تُبعِد شبح اليأس عن قلبها، وتزيل سحب الإنهزام

والإنكسار من نفسها، وكانت قد رضيت عن طيب خاطر بحياتها وألِفَتها، بل وأحبتها شاكرة حامدة، وكانت أقسى أيام حياتها وآلمها تلك التي أعقبت زواج جلال - حبيبها وأبو أولادها - من المرأة الأخرى، وانقباض يده عنها مُرغَما، فنزلت الضائقة ببيتها، وانقطع جزء ليس بالقليل من النفقة التي كان يعطيها لها زوجها في أول كل شهر، وتهددت الفاقة أسرتها البائسة وأجبِرت على الإستغناء عن كثير من أصناف المأكولات المكلفة، واختزال النقود التي كانت تعتمدها لشراء الثياب والأدوات المنزلية وحتى الفاكهة

وما ضاق صدرها وما غضبت، فهي قانعة برزقها ورزق أسرتها، ولم تنزوِ بعيداً عن الدنيا والناس، كما لم يكن للفقر أي أثر سلبي في نفسها، وكان عالمها لا يتعدى نطاق زوجها وأولادها الأربعة ولَدَين وإبنتين. وأصبحت هي محور البيت الأول والتي تقوم بدور الأب في معظم الأحيان، أما جيرانها من أهل الحي، فكانت تتمتع بينهم بخفة الروح والدعابة اللطيفة، واللسان الحلو.

وما أن خرج مدحت من الباب حتى إستقبلته الرياح مزمجرة.وبدا الحي كله

غارقاً في النوم متدثرا بالظلام، لا مقهى يسمر ولا بائع يصيح، ولا دكان يسهر

ولا سائر يدب، فلم يكن فيه أثر للحياة أو النور، لقد هدأ الكون، ونامت الحياة وانطلقت الأرواح في هذا السكون المظلم تزيده خوفا ووحشة، وبدا الليل في سكونه الهاديء الثقيل، وغشيت الظلمة كل شيء، ويا له من شارع، إنه لا مجيب في هذا الفضاء العريض لمن يصيح، ولا مغيث لمن استغاث، فخاض مدحت أمواج الظلام الدامس، والصمت الثقيل، لا منظر يُرى، إلا أشباح البيوت. ولولا أنه يعلم أن قدميه قد حفظتا الطريق إلى محطة القطار، لما أسلم نفسه لهما تقودانه في الاتجاه السليم بعد أن فقد البوصلة في هذا الظلام الكثيف الثقيل، ولكن مشكلة قدميه لم

تكن في البوصلة، فهما تعرفان الطريق جيداً، فإن الطريق مُترِب، ليس مرصوفاً، بل مليء بالأحجار، أحجار تناثرت بطول الطريق، فكان عليه أن يبطيء من خطواته.

ولم يكن مدحت ليعرف كيف يصمد أمام هذا الصقيع، إن البرد الليلة في أشد ما يكون، والرياح تسلط سهامها على جسده، أما هذا القميص الذي يرتديه، فقد أعلن استسلامه منذ اللحظة الأولى، فهيهات أن يصد هذه السهام! إنها سهام من البرد لا ترحم، وأخذ يحثّ الخُطى، فقد خشيَ أن يصل إلى محطة القطار متأخراً فيكون القطار قد انطلق قبل أن يدركه.

إن الزمن الذي يستغرقه سيراً على الأقدام للوصول إلى محطة القطار نصف ساعة، ولكن هذا أثناء النهار، في الظروف العادية، وإن القطار يتحرك إلى القاهرة في تمام الرابعة صباحاً، وكانت ساعة الحائط تشير إلى الثالثة والنصف صباحاً عندما هم بالخروج من البيت، ربنا يستر!

وتساءل مدحت يحدث نفسه ..

"إذا كانت الحكومة سوف تترك أعمدة الإنارة هذه التي تراصّت على جانب الطريق بدون إنارة، فلماذا وضعتها أصلا؟ ولماذا أسمتها أعمدة إنارة؟"

"ولماذا كلفت نفسها هذه المبالغ الطائلة! ومنذ متى لم ترصف هذه الطرق المتربة."

مضى مدحت يحدِّث نفسه، فالطريق طويل، ولا أحد يسامره.

"يا إلهي، ماذا أصابني، إن أسناني تصطقّ وجسدي يرتجف، أي برد هذا؟ وأي ليلة هذه؟ آه يا أُذُني، إن تيارالهواء البارد يكاد يخترق أذنيّ، وهذه الصفارة التي يُحدِثها الريح لكأنها فحيح حية تتابعني أينما ذهبتُ"

وهذه الأشجار القابعة على جانب الطريق، إن أوراقها وفروعها تتمايل مع شدة الرياح، محدثة هذا الفحيح المخيف، وكأن الأرواح ترقص فوق فروع الشجر،

يا له من مشهد رهيب، لقد اجتمعت كل الأشياء لكي تصور هذا المشهد المرعب ولمحت عيناه ضوءً يطل من نوافذ القطار، ولا زال يحدث نفسه "

"الحمد لله.. لقد اقتربتُ.. والقطار لم يزل ينتظر في المحطة.. والسائق ينتظر رنين الجرس.. بعد دقائق سوف يخرج ناظر المحطة لكي يرن الجرس مُعْلِناً وقت الإنطلاق."

وبدأ مدحت يحث خطواته مرة أخرى.

"عليّ أن أسرع قليلا، فقد يكون القطار أكثر دفئا من الشارع"

وجاء صوت الرعد يبدد السكون، بعد أن أعلن البرق وجوب اكتمال الصورة، وإخراج المشهد، وانهمر المطر، غزيراً، بارداً، قوياً.

"آه.. جاء دورالمطر.. لم يكن ينقصني إلا المطر، لن أستطيع مقاومته، أو تحمله

عليّ أن أجري، بل عليّ أن أطلق ساقاي للريح."

وهكذا انهمر المطر، وكأنما أبى أن يمهله حتى يصل إلى القطار، وتساقط غزيراً، قوياً، بارداً، فوضع على رأسه هذا الملف البلاستك الذي يحفظ فيه بعض الأوراق، وهو ممسكا به عله يمنع عن رأسه بعض القطرات، وقد

بلل الماء الحقيبة المعلقة في كتفه، وإن هي إلا دقائق، حتى وجد نفسه يجري في الوحل.

إنها مشكلة أخرى، فقد تطايرالوحل من ضربات قدميه وهو يجري، حتى غطى جزءً غير قليل من سرواله، فلا مصارف في الشارع معدة لتصريف المياة، وهو ما أحال الشارع في دقائق معدودة، إلى بركة من الأوحال!

وكان عليه أولاً أن يشتري التذكرة من شباك حجز التذاكر، وما أن فعل، حتى ألقى بنفسه داخل القطار، ولولا رعاية الله لسقط أرضاً كتلة واحدة، ولكانت إصابته بالغة، فقد انزلقت قدمه وهو يركب القطار بسبب هذا

الماء الذي تجمع في كل مكان، وقد أربكته الحقيبة المعلقة في كتفه، وأَخَلَّت بتوازنه، كان مُبَلّل الملابس، يحطمه التعب، يكاد يتجمد من البرد، ولم يكن أفضل حالاً، بعد أن استقلّ القطار، فياله من قطار! إن عربة الدرجة الأولى تتكون من بعض (الكابينات) وقد تمزّق الكساء الجلدي الذي يكسو المقاعد، وأطل منه الإسفنج الذي يبطن هذا الكساء، في مشهد عنوانه الفقر والقِدم والإهمال، أما عن التراب الذي تراكم فوق المقاعد، فحدِّث ولا حرج، لسبب بسيط جداً، وهو أن باب الكابينة لا ينغلق! وزجاج النوافذ مكسور! وبالطبع لا أحد مسئول عن تنظيف المقاعد

ولا إزالة الأتربة ولا حتى إصلاح باب الكابينة ولا تبديل الزجاج المكسور، في هذه النوافذ البائسة! ومن البديهي أن عربات الدرجة الثانية، والدرجة الثالثة لن تكون أفضل حالاً من عربات الدرجة الأولى! فالمقاعد خشبية، وقد استقرت على جانبى العربات، لا كساء من الجلد ولا بطانة من الإسفنج، وقد كسر الزمن بعضها، وتولّى الركاب أمر تكسير البعض الآخر! وهو نفس الحال مع زجاج النوافذ المكسور! إلا فيما ندر! وأما الأتربة فلن تجد ما يحول بين تراكمها على المقاعد إلا التصاقها بمِقعدة الراكب الذي عليه أن ينظف هذا التراب

المتراكم بما يرتدي من ملابس حين يجلس عليها! فيكون لمقعدته نصيباً وافراً من هذه الأتربة! شاء الراكب أم أبى! وليس إذن بغريب، والحال هكذا، ألا تجد في هذا القطار حمّاماً أو تواليت وإذا صادف ووجدت حمّاما فلن تجد الماء! وناهيك عن التراب المتراكم على أرضية القطار، والذي اختلط بماء المطر، الذي تسرب إلى داخل القطار من الأبواب أو من الشبابيك، وبدأ مدحت يبحث لنفسه عن مقعد إلى جوار نافذة لم ينكسر زجاجها، وألقى بنفسه متهالكاً على أحد المقاعد، بعد أن وضع الحقيبة على الرف الموجود فوق مقعده، واختلطت الأتربة على

ثيابه مع ماء المطر الذي بللها، مما جعله في حيرة من أمره، إذ كيف يذهب بهذا الوضع المؤلم إلى الكلية؟! وشغلته عن أفكاره هذه الريح التي راحت تصفر في أذنيه، ولكن سرعان ما انصرف تركيزه إلى هذا البرد القارس الذي جعل أطرافه تكاد تتجمد، وراح يتمنى لو يتناول كوب من الشاي الساخن يبعث إليه بعض الدفء، كان هذا هو مبلغ طموحه في ذاك الوقت، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فراح يفرك بشدة وجنتيه اللتين احمرتا من شدة البرد ثم يفرك راحتيه ببعضهما بقوة، وينفث فيهما الهواء الدافيء بفمه، فقد يشعر ببعض الدفء، وإن

هي إلا دقائق حتى تحرك القطار متجها إلى القاهرة.

وكان على مدحت أن يقوم بهذه الرحلة القاسية الشاقة ثلاث مرات كل أسبوع!

وأسند ظهره إلى مسند المقعد الخلفي وأغمض عينيه علّه يستطيع أن يغفو قليلاً ولكن هيهات، فلن يتركه ينعم في مقعده هذا التيار البارد القادم من خلال الزجاج المكسور، ولن يحقق له قميصه الفضفاض أي درجة من الدفء، وهذه هي قطرات المطر وقد قذفها بشدة تيار الهواء البارد من خلال النافذة لكي تتلاطم على وجهه وأذنيه وكأنها قذائف، عذاب لا قِبَل له بتحمله ولا

مقاومته، وفي استسلام تمتم مدحت، وقد أغمض عينيه وألقى برأسه إلى الخلف: "كل هذا يهون في سبيل إكمال دراستي، ولن تحبطني هذه الظروف رغم قسوتها، يقولون أن الشدة تخلق الرجال، فلن يخذلني ربي، ولن يتخلى عني. وتذكر حين كان ينهض مع خيوط الفجر ليذهب إلى المسجد للصلاة، ولم يزل صبياً صغيراً لا يجاوز العاشرة من العمر، وارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة، ولا زال يراقب لحظات بزوغ الفجر من رحم ظلام الليل، ولا زال يتذكر، وهو بعد طفل صغير،

كان المسجد بعيداً عن البيت ويمتد بعيداً مروراً بالمستشفي العام، ولأنه كان يخشى العفاريت والأشباح وينقبض قلبه عندما كان يقترب من المستشفى ويمر به فكان طوال الطريق يقرأ بعض قِصار السور والآيات التي حفظها من القرآن الكريم، إنه لم يأتِ بهذا من بين أفكاره، فهم يقولون أن العفاريت والأشباح تعيش في المستشفى ومِن حولها، ولهذا الغرض، فقد حفظ سورة يس وسورة الرحمن والمعوذتين وآية الكرسيّ، فهي تشرح صدره وتطمئن قلبه وتُبعد عنه الأشباح والشياطين والعفاريت، ذات السيقان التي تشبه سيقان الماعز! ولا أكبر من

فرحته، عندما كان يصلي الفجر في المسجد ويعود منشرح الصدر، وعندما كان يحكي لأمه بعد عودته من المسجد أو في الصباح، عن خوفه من العفاريت، وهو يقطع طريقه في الظلام قبل الفجر قاصداً المسجد لصلاة الفجر جماعة، كانت تقول له:

- يا بُني، إن الإنسان هو شر العفاريت، كما لم يتفق لي- ولا لأحد حسب علمي- أن رأيت عفريتاً! وما أكثر ما مشيت في الطرق المظلمة بل حالكة الظلمة والسواد! فما رأيت أشباحاً! ثم تستتلي ضاحكة:

- ربما.. لو كان هناك عفاريت أصلاً..
لخافت هي من الإنسان!

وامتد بصر مدحت يجول خارج النافذة، ونورالصباح يولد رويداً من ظلمة ما قبل الفجر، وكان الراكب الذي يجلس أمامه على الكرسي المواجه لكرسيه بجوار النافذة، كان يمعن فيه النظر، كأن يرغب في مبادلته الأحاديث سواء من باب قضاء الوقت - فهو طويل جداً في حالة السفر بهذا القطار- أو من باب الفضول، كأن يسأله لماذا لم يرتدِ شيئا ثقيلا فوق هذا القميص الذي لا يُسمن ولا يُغني من جوعٍ في هذا البرد القارس، وتفحصه مدحت عندما لاحظ أنه يطيل النظر

إليه، وأنه يترك عينيه تجولان على مدحت من شعره إلى قدميه وكأنهما تتجولان في رحلة استكشافية، أو كأنه يبحث عن شيئ قد فقده أو ضاع منه، كان شاباً قصير القامة، أجعد الشعر، قمحي اللون تقريباً، على شفتيه ابتسامة غريبة، يكاد يخفيها، ذو وجه شاحب، شحوب جثة، وهو ما يضفي على هذا الشاب هيئة الإرهاق والإعياء والمكابدة، مع أنه يبدو متين البنية، قوي الجسم، يدل مظهره على أنه عامل، وكان يحمل في يده اليمني صرة هزيلة للملابس ملفوفة بمنديل عتيق حائل اللون، ربما كان يخشي نسيانها إذا ما وضعها فوق الرف المخصص للمتاع

والحقائب الصغيرة، وكان المعطف الذي تدثر به مبطن بجلد خروف، قديم قِدم الزمن، واسع، وكأنه ليس له، بل لشخص أخر سمين، ولكنه يكفي لكي يقيه برد هذه الليلة شديدة البرودة، أما الرجل الذي استقر على المقعد بجوار هذا الرجل الغريب، فكان يبدو في أواخر العشرينات من العمر، وقد أحسن اختيار ملابسه التي بدت متناسقة الألوان، رغم قِدمها وبساطتها، وقد احتمى من المطر والبرد بهذا البلوفر الذي قد يفي بالغرض ويُبقي جسده دافئاً بعض الشيء، وكان مُنكَبّا على قراءة كتاب، كُتِب على غلافه العنوان "المادية الجدلية" ولم يكن اسم الكاتب

واضحاً، ويبدو أنه قطع فيه شوطاً كبيراً، وحدث أن التقت عيناه بالصدفة مع عيني مدحت، فابتسم له ابتسامة خفيفة، ولكنها ودودة، وحياه بأدب جَمّ قائلاً:

- صباح الخير..

فابتسم مدحت ردّا للتحية قائلاً:

- صباح الخير..

فقال الرجل:

- أراك تفضل الصمت.. ولكن ألا تقرأ كتاباً أو مجلة.. لشغل هذا الوقت الطويل..

ولا زال مدحت مبتسماً، أشار إلى الكتاب مع الرجل وقال:

- بل إنني أقرأ كثيراً ومن مُحِبي القراءة، أراكَ تقرأ عن المادية الجدلية وأعتذرعن فضولي.. فقد قرأت العنوان على الغلاف.

فأشرق وجه الرجل بابتسامة عريضة، وقال متسائلاً:

- هل قرأت حول هذا الموضوع؟
- أجل.. الكثير.. فبالإضافة إلى أنه موضوع شيق.. فإنه يهم كل واحد منا.. ويتحدث عن صميم حياتنا.. ومستقبلنا..

- حسناً.. ربما كان لحسن حظي إذن أن أقابل اليوم أحداً.. نتحدث معاً.. حول موضوع يحظى منا باهتمام مشترك..

- وإن هذا ليشرفني.. ومن دواعي سروري..

فبسط الرجل له يده ليبادله السلام، وقال معرِّفا بنفسه، وقد بدت على وجهه السعادة، وبرقت عيناه بريق السرور:

- أخوك "طارق" مدرس بمدرسة الفنية بنات في الفيوم.

والتقط مدحت يده في سرور وبادله السلام سعيداً بهذا اللقاء وهذا التعارف، قال:

- أهلاً وسهلاً.. أخوك مدحت.. طالب في كلية التجارة.. جامعة القاهرة.. ولكنني طالب حديث.. بالسنة الأولى..

- أخشى أن أقول لك أن قرار السفر بهذا القطار قرار خاطيء.. وصعب.. صعب..

وضحك مدحت.. وقال له بنبرة فيها أسى:

- وأخشى أن أقول لك أنني قررت أن أسافر به.. ثلاثة أيام في الأسبوع.. على مدار العام الدراسي! ولكن أحياناً لا نكون أحراراً في الإختيار.. عندما لا يكون هناك بدائل متاحة..

وصمت قليلاً، ثم استتلى:

- ألستَ توافقني.. إذا قلت لك أن معظم قراراتنا لا تكون إختيارية؟

واعتذر طارق، وعاد إلى موضوع الكتاب، متسائلاً:

- أعتذر لك بشدة يا مدحت..غداً تتغيرالمعطيات.. وتصبح زمام الأمور بيدك .. وإن غداً لناظره قريب.. أما عن موضوع الكتاب..أحسب أن لديك فكرة جيدة .. إذن.. برأي أيّ من الفريقين تأخذ؟.. الماديين.. أم المثاليين.. وأيهما أقرب إلى قناعاتك الشخصية؟

- في الحقيقة أن ما يقول به الماديون.. هو أقرب إلى قناعتي.. فهم - كما تعرف- يعتقدون بأولوية المادة.. ويعتمدون في ذلك على الأبحاث العلمية التي تنفي زوال المادة.. كما جاءت بها نظرية "لا فوازيه" وهو أن المادة لا تُخلَق من العدم.. ولا تفنى.. بل تتحول وفق شروط معينة.. وقوانين معينة.. من شكل إلى آخر.. كما يقولون أن المادة موجودة بشكل مستقل عن وعي الإنسان..
- نعم.. فالمادة لديهم هي كل ما يتحسسه الإنسان بحواسه الخمسة.. ولا أدري

كيف يعتقد المثاليون أن حواس الإنسان تعكس تصورات في وعي الإنسان.. وهي غير موجودة في الواقع بشكل مستقل عن وعي الإنسان..

- نعم.. فهم يقولون ان المادة هي انعكاس للوعي.. أما عند الماديون.. فإن الوعي هو انعكاس للمادة..

- أنا لا أقتنع بما يقوله المثاليون أن الأشياء لا توجد إلا إذا أدركها الإنسان مباشرة بحواسه.. كأن يراها.. أو يسمعها.. أو يدركها باللمس.. فإذا لم يدركها.. فلا وجود لها..

- فالعالم عندهم لا وجود له إلا في وعي الإنسان..
- وحسْبَ الإنسان أن يُغمض عينيه.. فيختفي العالم!
- وفي المادية الجدلية.. أن الطبيعة بكاملها.. بدءا من أصغر الجزيئات.. إلى أكبر الأجرام السماوية.. وبدءا من حبة الرمل.. إلى الشمس والنجوم.. وبدءا من الخلية الحية البدائية.. إلى الإنسان.. تتحرك وتتبدل.. دوما وأبدا .. والحياة الإجتماعية ليست هي الأخرى ساكنة.. بل هي قيد التبدل والتحول..

- بكل تأكيد.. فالمجتمع مؤلف من طبقات متصارعة.. فثورات البورجوازية ثارت على النظام الإقطاعي القديم..
- إنها موضوعات طويلة.. ومتشابكة.. ويشرّفنا أن تحضر معنا جلسات ثقافية وملتقى أدبي.. مع العديد من الأصدقاء..
- أين ؟
- في بيت أي صديق لنا.. وإن سمح وقتك.. ولم تكن لتمانع.. فسوف أقدّمُك إلى أصدقائي.. وتكون معرفة خير وصداقة.. إن شاء الله..
- سيكون ليَ الشرف يا مدحت..

- وعلى فكرة يا طارق.. لي أخت لديكم في مدرسة الفنية بنات..
- صحيح؟ في أي صف؟
- طالبة جديدة.. في الصف الأول..
- إنني أدرِّس للصف الأول..
- هي هند.. هند جلال خطاب..
- آه.. إن هند أختك إذن..
- تعرفها إذن؟
- أكيد.. إنها ونعم البنات والله.. ونعم الأدب.. والتربية..
- أشكرك..

وأخرج طارق وريقة.. وأمسك قلماً.. وكتب بعض الكلمات.. وناولها لمدحت قائلاً:

- هذا عنواني.. يشرفني أن نلتقي..
- إنه من دواعي سروري أن أزورك.. وسوف أعمل على أن أقدمك إلى أصدقائي..

قال مدحت ذلك وهو يضع الوريقة في أحد جيوب الحقيبة التي وضعها على الرف، وكان الرجل الغريب يمرر نظراته إلى مدحت تارة، وإلى طارق تارة أخرى، طوال هذه الدردشة التي استهلكت الكثير من الوقت، دون أن ينبس بكلمة

وبعد المناقشات اختلى كل منهما إلى نفسه وأفكاره وخيالاته، وذاب مدحت في عالمه، وعالم الذكريات، ولم تزل الذكريات تتداعى

أمام ناظريه، وكأنها شريط سينيمائي، وأفاق على صوت حادّ قوي، وتبين أنه صوت مكابح القطار، فعرف أن القطار قد توقف بعد أن وصل إلى محطة "الواسطى" فهنا يتوقف القطار لمدة ساعتين حتى يمر القطار المقابل ومن ثم يواصل الرحلة إلى القاهرة حيث يصل إليها الساعة التاسعة صباحا! بعد أن يكون قد قضى خمس ساعات كاملة في الطريق، قبل أن يصل إلى القاهرة!

- يا إلهي! خمس ساعات ذهاب وخمس ساعات إياب وساعة مواصلات داخلية في القاهرة، وساعة سيراً على الأقدام من البيت إلى محطة القطار والعكس

في الفيوم، إثنتي عشرة ساعة في السفر يوميا، في أيام السفر! فماذا تبقّى من ساعات اليوم للمذاكرة؟ وماذا تبقى من الجهد؟ وماذا تبقى للنوم والأكل والراحة؟

وهزّ مدحت كتفيه مبتسما، وقال:

- ربنا يقويني.

وعلا الصياح، وتداخلت الأصوات، وها هم الراكبون الذين صعدوا إلى القطار من محطة "الواسطى" يتزاحمون و يتخاطفون المقاعد، ولقد جاءوا يحملون"القُفف" و"المقاطف"، وهذه راكبة تجري وراء "بطة" استطاعت التسلل من "القُفَّة" التي كانت تحتويها حتى

أمسكها لها راكب أخر وسلمها لها فشكرته وأعادتها إلى "القفة" ووضعتها تحت المقعد، ودبت الحياة في القطار، وامتلأت الطرقات بالباعة الجائلين، وفوجيء مدحت بأحدهم يُلقي على حجره بدستة أمشاط و أشياء أخرى، وكرر هذا مع كل ركاب العربة ولا زال يلقي للجميع بالأمشاط حيث يفاجأ كل راكب بشيء ما وقد ألقيَ على حجره! وبعد أن يصل البائع إلى أخر راكب في العربة، يلقي إليه كما فعل مع سائر الراكبين ومن ثم يعود إلى أول من ألقى إليه بالأمشاط لكي يُحصِّل ثمن الأمشاط أو يأخذ ما ألقاه مرة أخرى في حال لم يكن الراكب راغباً في

شراء السلعة، شيء مزعج فعلاً وغير مقبول بالمرة.

وهكذا يفعل الباقون من الباعة الذين امتلأت بهم الطرقات بمختلف السلع، من إبر حياكة، أحبال الغسيل، حتى أحمر الشفاة وإكسيسوارات الزينة للبنات وأطقم الصواني، والأكواب الزجاجية، الكثير الكثير من السلع، ومن ثم يأتي دور المتسولين! إنهم يمرون على الجميع، راكب، راكب، ثم يأتي المحصل، الذي يسأل الجميع عن التذكرة، لكي يُحصِّل ضعف قيمة التذكرة من الراكب الذي يركب القطار دون شراء التذكرة من المحطة إذا كان هناك أحدهم، سواء نسيَ

شراء التذكرة من شباك حجز التذاكر بالمحطة، أو لم يتسع له الوقت لذلك، أو حتى تعمد ألا يشتري تذكرة، فالحال واحد، وهو افتراض سوء النية، وعلى هذا الراكب أن يدفع ضعف قيمة التذكرة، ثم يأتي المفتش، فيفعل تماماً ما فعله المحصل، لكي يتأكد أنه لا أحد في القطار بدون تذكرة، ثم يمر بائع "السميد" وبائع اللبان والحلوى وحَبّ العزيز واللِبّ والفول السوداني ...

لا أحد يتركك في حالك لعلك تغفو قليلا.

وفي خارج القطار، الضباب والرطوبة يبلغان من الكثافة أن أشعة الشمس لا تكاد تنفذ إلى

الأرض، ويصعب على الراكب - إذا هو نظر من النافذة يُمنة أو يُسرة -
أن يميز أي شيء على مسافة عشر خطوات.
الصياح لا ينقطع طوال الطريق، والضوضاء والضجيج يملآن المكان، ومن لم يصبه الصداع ووجع الرأس من الضجيج والضوضاء والصراخ، فلن يسلم من "رجرجة" القطار واهتزازه في الحركة الإرتجاجية أثناء سيره، فكان الجميع متعبين، مرهقين، وقد أثقل النعاس أجفانهم، واصطبغت وجوههم بصفرة، كصفرة الضباب، وكان كل ركاب الدرجة الثالثة أناسا من متوسطي الحال، من ممثلي الطبقة

الوسطى، من الكادحين، يرتدون ثيابا ليس فيها تأنق.

وتوقف القطار، هذه هي المحطة الأخيرة، ولافتة كُتِب عليها "أم المصريين" .

لقد وصلنا بسلام!

وتصافح مدحت وطارق، وتواعدا على الإلتقاء في الفيوم، في بيت طارق، ومن ثم تبادل الزيارات.

وبعد أن ركب مدحت الحافلة التي تقله إلى الجامعة، ضرب جبهته بكفه:

- يا ألله .. لقد نسيت الحقيبة في القطار.. ما أغباني .. ماذا يقول كريم وأسرته؟

فقد أرسلتْ أسرة كريم في الفيوم إليه حقيبة، على أن يسلمها لكريم إبنهم في القاهرة، تحوي ملابسه الشتوية، وملابس أخته منال، إلا أنه نسيَها على رف القطار، بسبب استعجاله من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب الضوضاء والضجيج والزحام والتعب، يا لها من مشكلة كبيرة لا يعرف لها حلا!

سوف يسأل عنها موظف مكتب الأمانات في المحطة، وسوف يبحث في القطار في رحلة العودة.

سوف أجدها.

هذا ما تمناه!

وهو ما لم يحدث!

فقد أخذ أحدهم الحقيبة، ولم يسلمها لموظف مكتب الأمانات، وكان موقفا يبعث على الخجل والإحراج.

وكانت هذه هي آخر مرة، ينسى فيها مدحت شيئاً بالقطار.

وأخر مرة يضع شيئاً على الرف.

وتذكر مدحت أنه قد فقد الوريقة التي تحمل عنوان طارق، لأنه كان قد وضعها في جيب الحقيبة، إلا أن ذلك لن يسبب مشكلة، حيث يمكنه الحصول على عنوان طارق من أخته هند، بعد أن يكلفها بالحصول عليه من طارق في المدرسة.

الفصل التاسع

الحقيبة تعود

كان نحو أسبوع قد مضى منذ لقاء مدحت مع طارق في القطار، وبينما كان مدحت يستذكر دروسه في البيت، كان هناك من يطرق الباب، وفتح مدحت للطارق، لكي يفاجأ بمعارف القطار، فقد وجد أن الطارق هو الرجل الغريب الذي قابله منذ أسبوع في

القطار، مع صديقه الجديد طارق، وكان الأكثر غرابة هو أن يجد الحقيبة معه، الحقيبة التي إعتقد أنها فُقِدتْ بالقطار إلى غير رجعة،

ورحب مدحت بهما كثيراً، فقد سرّه لقاء طارق بعد أن وجد فيه الشخصية الجديرة بالصداقة، حيث وجد به الكثير من السمات الجيدة، والتي تتفق مع طبيعته وسماته، وأشياء كثيرة مشتركة بينهما، وكانت الفرصة أن يتعارف مع الرجل الغريب، لكي يعرف كيف عادت إليه الحقيبة، كان بسطويسي، وهو إسم الرجل الغريب، يعمل ميكانيكي سيارات بعد أن حصل على دبلوم المدارس

الثانوية الفنية في قسم ميكانيكا السيارات، وبعد فترة ليست بالقصيرة وجد أن هذه المهنة لا تدر له الدخل الكافي لإعالة أسرته التي تتكون من أمه وإخوته الثلاثة القُصّر، كما أن دخله لن يكون كافياً أيضاً لكي يستعد لمتطلبات الزواج، في حال وجد الفتاة المناسبة للزواج، فلن يظل بلا زواج للأبد، فأخذ يبحث لنفسه عن فرصة أخرى للعمل في مجال آخر، وهذا ما جعله يستقلّ القطار المتجه إلى القاهرة، لأن فرص العمل في القاهرة أكبر منها في الفيوم، كما أن الدخل من الأعمال الحرفية هناك أكبر، وبعد أن غادر مدحت وطارق القطار في ذلك اليوم،

إكتشف بسطويسي أن مدحت قد نسيَ حقيبته فوق الرف، فأخذها وحاول اللحاق به، إلا أنه كان قد إختفى وسط الزحام، وعندما عاد إلى الفيوم بالحقيبة، كان يعلم أن مدحت وضع في أحد جيوبها الورقة التي تحمل عنوان طارق في الفيوم، ومنها إستدلّ بسطويسي على عنوان طارق، فذهب إليه طالباً منه أن يذهبا بها إلى مدحت.

وخجل مدحت من نفسه، فها هو الشاب الذي كوّن له في داخله إنطباعاً غير جيد لمجرد أن رآه مرة واحدة في القطار، فكان إنطباعاً متسرعاً خاطئاً، إعتمد فقط على المظهر، فلم يحدث أن تحدّث مدحت إلى الرجل، أو سمع

منه ما يوحي أو يشير إلى أنه ذو شخصية غير جيدة، أو أن له أفكاراً غير جديرة بالإحترام،

وشعر مدحت بالخطأ الذي وقع فيه، إن بضعة دقائق تحدث فيها بسطويسي كانت كافية لأن يثبت فيها أنه إنسان جدير بالإحترام، فهو رجل أمين، يعتني بأسرته، ويصل الرحم. وشكره مدحت بحرارة وأكد له أنه سعيد بلقائه ويتشرف بصداقته.

وكان هذا أيضاً رأي طارق.

وسأله مدحت عن طبيعة العمل الذي يبحث عنه فأجاب أنه يفضل العمل الذي يتناسب مع دراسته وخبرته، ولكن لو لم يجد ذلك،

فسوف يقبل أي عمل يقتات منه، ويمكّنه من إعالة أسرته.

وقد وعده مدحت أن يبذل الجهد للبحث له عن فرصة جيدة للعمل، وكان يفكر في فرح ، فقد تستطيع أن تجد له هذه الفرصة مع الحاج حسن في معرض السيارات.

وفي اليوم التالي عندما استقل مدحت القطار، تذكر بسطويسي، وتمنى أن يتمكن من مساعدته، فقد بدأ يتعاطف معه، فهو مسئول عن أسرة، وأحس أن ظروفهما الإجتماعية تتشابه إلى حد ما.

وتذكر يوم أن ظهرت نتيجة الشهادة الثانوية، وكان ما حصل عليه من مجموع

الدرجات، يؤهله للالتحاق بكلية الطب في جامعة أسيوط، ولكم كان يتمنى أن يكون طبيباً، بل كان حلم حياته أن يكون طبيباً، وطلبت الأم من زوجها أن يحصل على إجازة، فالأمرهام، وعليهم أن يتخذوا القرار المناسب، ولا يمكن أن يتم لهم هذا في غياب الأب، وكان جلال يعمل(مساعد) في وزارة الداخلية، وقد تنقّل كثيراً أثناء سنوات عمله الطويلة حتي استقر به المقام أخيراً في أحد أقسام الشرطة في مركز"أبشواي، وهو أحد مراكزمحافظة "الفيوم" ، وكان يتقاضى راتباً ضعيفاً لدرجة تجعل من زواجه للمرة الثانية مغامرة غير محسوبة .. فمثله لا

يستطيع أن يقوم بالإنفاق على أسرة واحدة، تتكون من فردين، أو ربما ثلاثة على الأكثر، واجتمعت الأسرة، بناء على الحاح شديد من جانب مدحت لكي
يتشاوروا بشأن إكمال دراسته، وسأل الأب موجها الحديث إلى مدحت:

- أخبرني يا مدحت.. ما هو المجموع الذي حصلتَ عليه.. وما يعني ذلك من ناحية الكليات التي يؤهلك هذا المجموع للإلتحاق بها.. وما هي الكلية التي ترغب في التخرج منها؟ أو الالتحاق بها..

وفي الحقيقة أن مدحت آنس الجدية والإهتمام في تناول الأسرة للموضوع، وهو ما شجعه وبث فيه الأمل في تحقيق ما يحلم به، قال بأمل:

- إن مجموع درجاتي يا أبي يسمح لي أن ألتحق بكلية الطب.. في جامعة أسيوط.

قال مدحت ذلك، على الرغم أنه يعلم أن امكانيات الأسرة المادية لا يمكن أن تسمح به، بل أنه مستحيل، في ظل هذا الراتب الهزيل، والأفواه المفتوحة، والالتزامات المادية التي لا تنتهي! إلا أن الأب كان ناعماً،

سلساً في إبداء رأيه والإستماع إلى الأخرين، قال:

- وهل ترغب يا مدحت في أن تكون طبيبا؟

قال مدحت فرِحاً مبتهِجاً، وقد أطلق لخياله العنان:

- يا سلام يا بابا.. يا ريت..

وهللت هند في سعادة وقالت:

- يا ريت يا بابا.. يا ريت.. أخي مدحت سيكون طبيباً..

وتبعتها سميحة، فهللت وقالت مثل ما قالت أختها:

- يا ريت يا بابا.. يا ريت.. أخي مدحت سيكون طبيباً..

فسميحة وهند تحبان مدحت حباً جماً، و ربما كان أقرب واحد في البيت إلى قلبيهما الصغيرين، أما ممدوح فكان ساكنا، وقد اكتفى بتحويل نظره إلى المتحدث في هدوء وكأنه ينتظر انتهاء الإجتماع ليعرف ما سوف يتم اتخاذه من قرارات لا شأن له بها**!** وكان للأم أمل في تحقيق ما يقوله مدحت، إلا أنها تعلم أن الحلم شيء، والواقع شيء أخر، ولما كان الواقع شيء أخر، فقد قال الأب بنبرة المتعقل للأمور:

- ولكن.. أليست أسيوط بعيدة.. بحيث تضطرك إلى الإقامة هناك..

وهو ما يعني.. نفقات أكثر للسكن والمأكل والدراسة.. وأعتقد أنه لا قِبل لنا بها.. خاصة أنني لا أعرف كيف يخطط أخوك ممدوح للمساهمة في هذه النفقات المطلوبة لدراستك..

بعد أن قال ذلك، نظر الأب إلى عيني ممدوح.. وكأنه يستطلع رأيه فقال ممدوح بامتعاض، موجها الحديث إلى الأم، علها تكون عوناً له في تأييد وجهة نظره التي جاءت صادمة للجميع!:

- ولماذا يا أمي يلتحق بالجامعة؟ ألا يعلم مدحت ظروف الأسرة المادية؟

ودهِشَ مدحت دهْشَ من أُخِذَ على حين غرَّة، فلم يكن يتوقع ما قال به ممدوح فركبه الارتباك، بل الإنزعاج، وعلى الرغم من أن الأم كانت دائما ما تميل إلى محاباة ممدوح والميل إلى رأيه، إلا أنها لم تخفِ اندهاشها من هذا الرأي الغريب وقد ألقاه ممدوح بقسوة في وجه أخيه الذي يأمل في مستقبل أفضل، فرنت إليه

بنظرة طويلة قاسية، ثم قالت له في لوم وعتاب بحنق شديد، مستنكرة:

- كيف تقول ذلك يا ممدوح؟ إنني موقنة أن رأيك هذا كأنه مطرقة رفعت ومن ثم هوت بعنف علي يافوخ أخيك فبددت أماله وكادت تحطمه هو نفسه هل تريد أن يكتفي مدحت بشهادة الثانوية العامة ويلتحق بالجيش، وبعد قضاء فترة التجنيد بالجيش أيّاً كانت هذه المدة، طالت أم قصُرت، يبحث عن عمل بالشهادة المتوسطة؟ أهذا هو المستقبل الذي يستحقه أخوك؟ أي زلزال عنيف هذا؟

وكانت الأم من قبل تتعاطف مع آراء ممدوح، فهو أكبرالأبناء، وهو أول من أيقظ

أمومتها، وهو الحبيب الأول، وهو المدلَّل، والذي كان له من الرفاهية - أيام أن كان هناك رفاهية - جانب من الحظ، قبل أن تتبدل الأحوال، وقد عاش ممدوح لنفسه، فأسقطته الأم من حساباتها، ولم تعد تطلب منه المساعدة في نفقات البيت حتي في أضيق الظروف، وأَمَسّ الحاجة إلى بعض النقود القليلة، كما لم يكن ثمّة أمل في أن يتغير، وكان مدحت يستمع إلى رأي ممدوح في دهشة، إذ كيف يُحوِّل أخوه المناقشة إلى هذا المسار الغريب، وهذا الإتجاه السخيف، كيف يحكم بالإعدام على مستقبله، ويقضي على طموحه بهذه البساطة وهذا البرود؟ إلا أنه

آثر الانتظار، وحافظ على كياسته ريثما يستمع إلى رأي والده والذي كان يطمئن إليه، وجاء رأي الأب مشجعا لطموح مدحت، مستنكراً ما يفكر فيه ممدوح، رافضاً أن يأخذ الحديث هذا الاتجاه غير المرغوب فيه، وقد ندت عن رأسه حركة موحية بالإنزعاج، واتسعت عيناه وهو يحدج ممدوح بغرابة.وأنهي مدحت المشكلة بأن قال:

- إنني لست متمسكا بكلية الطب.. فلا بأس بكلية التجارة..

فقال أبوه متسائلا:

- وما الفرق في ذلك؟ أقصد كيف يساهم ذلك في خفض النفقات المطلوبة؟

- في حالة اختيار كلية التجارة.. أستطيع أن أسافر إلى القاهرة وأعود في نفس اليوم.. وسوف أحاول أن أشرح ظروفي لكل دكتور على حدة.. لكي يعفيني من الحضور..علَّني أستطيع أن أضغط عدد أيام السفر لحضور المحاضرات إلى ثلاثة أيام فقط في الأسبوع..ولن أسافر إلى القاهرة بالتاكسي.. ولا حتى بواسطة الحافلة.. بل بواسطة القطار.. فقيمة التذكرة للسفر بالقطار أقل كثيراً..وسوف

أذهب من البيت إلى محطة القطار.. سيراً على الأقدام..وهذا ما سوف يتكرر في العودة..أما عن الكتب.. فسوف أستعيرها من الزملاء أو الأصدقاء من الطلبة.. أو حتى من مكتبة الجامعة.. إذا كان ذلك ممكنا.. ولن ألزمكم بشراء أية كتب.. أو مراجع..

وأما عن شراء الأطعمة.. سواء للإفطار.. أو الغداء.. فلن أحتاج إلى ذلك ..لأنني سوف أتحمل.. وأتناول ما يتواجد في البيت من طعام.. بعد عودتي في المساء.

وأفاق مدحت على ضجيج وتزاحم الجميع لمغادرة القطار في آخر محطة، وفي الكلية لم ينس مدحت أن يطلب من فرح مساعدة بسطويسي في الحصول على عمل لدى الحاج حسن، وقد وعدته بأنها سوف تفعل، كما تقدمت لكل الزملاء بالدعوة لحضور فرح أخيها حسن، ووعدوها أن يجعلوا من الفرح حفلاً رائعاً.

الفصل العاشر
في القطار

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة صباحاً بقليل، عندما وصل مدحت إلى الكلية، وقد اعتاد أن يذهب أولاً إلى"الحمّام" حتى يغسل وجهه ورأسه وينفض التراب عن ملابسه، وقبل أن يتجه إلى الحمّامات كان هناك من يلوِّح له بيده ويناديه،

والتفت مدحت صوب مصدر الصوت، إنه يعرف صاحبة هذا الصوت الحلو العذب والذي يرِقّ له قلبه، إنها "عفاف" زميلته في الكلية، وأقبلت عليه مبتسمة والبِشر يكسو

وجهها، واقترب منها يبادلها الإبتسام مع بعض الحرج بسبب التراب الذي يكسو وجهه ويعلو شعره، وعندما اقترب منها أكثر لاحظت التراب يغطي شعره ووجهه ويتناثرعلى ثيابه، ولدهشتها قالت له مازحة:

- من أين أنت قادم؟ لا تقل أنك قادم من المقابر أو أنك خارج للتوّ من تحت أنقاض عمارة قد انهارت!

وضحكت، كما ضحك مدحت وقال لها وهو يضع بعض المذكرات في يدها قائلا:

- كيف حالك يا عفاف، خذي هذه المذكرات وسوف أوافيكِ إلى المدرج

بعد قليل.. بعد أن أغتسل وأنفض عن نفسي كل هذا الغبار..

واستتلى مازحاً:

- أهكذا، بكل هذه السخرية، تستقبلينني اليوم؟

قالت عفاف، وقد تناولت المذكرات معتذرة بلطف:

- ما عاش من يسخر منك يا مدحت، إنني أمزح، والحقيقة أنني لي الكثير من العذر، فإن الكثير من التراب قد علق بك، فهيا اغتسل، والحق بي، وسوف أحجز لك مكاناً إلى جواري

كالعادة، ولكن لا تتأخر، فإنني متشوقة أن أعرف كيف فعلتَ هذا بنفسك!

واتجهت هي إلى المدرج، بينما مضى مدحت، كعادته إلى الحمامات، وإن هي إلا دقائق معدودة حتى عاد ووقف أمام باب المدرج مستكشفا، وأخذت عيناه تجولان هنا وهناك يستطلع المكان الذي استقرت فيه عفاف، ورغم أن منال قد أخذت تلوح له فور أن دخل من باب المدرج إلا أنه لم يرها، ها هي عفاف، إنها تجلس في الصف الثالث وقد حجزت له مكاناً إلى جوارها، واتجه نحوها وشق طريقه بين الطلبة حتى وصل إليها واتخذ مكانه إلى جوارها. وكانت عفاف تفكر

في أن تطلب منه أن يأتيها إلى البيت، في الفيوم لكي تذاكر بصحبته، فهو ذكي، فاهم دروسه جيداً، وقد حصل على تقدير امتياز في السنة الأولى، وأيضاً في السنة الثانية، وسوف يحصل على نفس التقدير هذا العام بلا شك، وسوف يساعدها كثيراً في استيعاب الكثير من الموضوعات التي تحتاج إلى شرح ولو أنه كان لها في ذلك مآرب أخرى، بالإضافة إلى المذاكرة، فكانت تحب مجرد وجودها في حضرته، وتأنس بقربه، كما أن له دراية عميقة في مسائل السياسة والإقتصاد والعدالة الإجتماعية وطبقات المجتمع والهوة السحيقة بين هذه الطبقات والتي تزداد مع

مرور السنوات، بدلا من محاولة إذابتها فإنها تزداد اتساعاً في رأيه فالغَني يزداد غِنَى، والفقير يزداد فقراً، فكانت تحب أن تبادله هذه الأفكار المشتركة بينهما.

نظرت عفاف إليه وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيها قائلة:

- والآن أخبرني بالتفصيل المُمِل، كيف استطاعت كل هذه الأتربة أن تتراكم على شعرك ووجهك وملابسك.

- الآن؟!

قالت بالحاح:

- نعم.. الآن! الآن!

- ألا تعلمين أنه بعد أقل من عشرة دقائق سوف يدخل الدكتور؟

- آه.. أنت تعني أن هناك فعلا موضوع كبير وراء هذه الأتربة وأن شرحه يطول، لقد أوقعتَ نفسك في فخّ.. وسوف أكون كلي آذان صاغية بعد هذه المحاضرة مباشرة ..

وأثناء المحاضرة، كان مدحت قد نسيَ ما كان بينهما من حديث، وما كان يشغله إلا فهم الدرس واستيعاب الشرح إلا أن عفاف لم تكن كذلك فقد كانت تنتظر انتهاء الدكتورمن القاء المحاضرة ومن ثم خروجه من المدرج حتى تعرف ما قد يحكي لها مدحت من أخبار عن

الغبار، وما أن انتهت المحاضرة وخرج الدكتور حتى اعتدلت عفاف في جلستها بحيث تواجه مدحت، وقد شابكت يديها فوق صدرها مبتسمة وقالت:

- ما رأيك.. هل تحكي هنا.. أم أن الموضوع يحتاج مني أن أدعوك إلى فنجان شاي في الكافيتريا؟

فابتسم مدحت لما وجد منها من إلحاح وقال مستسلماً:

- بل سوف أحكي لكِ كل شيء بينما نتمشى هنا بين أسوار الكلية.

وكان مدحت قد اعتاد كل يوم منذ بدء الدراسة منذ عامين وبعض العام، اعتاد أن

يخرج من الكلية مباشرة إلى محطة القطار، ومن ثم إلى الفيوم، كما لم يدخل الكافيتريا يوما من الأيام! قالت، وقد بدت كمن يتوقع أن يسمع أخباراً هامة:

- ليس مهما أين تحكي.. بل المهم أن تحكي كل شيء!

قال والبسمة لا تفارق شفتيه:

- هيا!

وخرجا من المدرج معا، وسارا جنباً إلى جنب وقد صمت مدحت، وهي تسير إلى جواره، ينتظمان الخطى ويتهاديان في خفة، وهي تنظر إلى جانب وجهه المواجه لها في

انتظار أن يبدأ حديثه، وبعد دقائق من الصمت قال في تردد:

- عفاف.. إنني فعلا سوف أقص عليك ما ترغبين في التعرف عليه.. فهل لكِ أن تساعديني بأن تقولي لي ماذا بالتحديد ترغبين في معرفته ومن أين أبدأ؟

وامتلأت عيناها فرحاً، وفاضتا بِشراً وسعادة، فأشرق وجهها، قالت يغمرها السرور:

- كل شيء.. كل شيء يا مدحت.. أرجوك.. أخبرني عن كل شيء.. فأنا أحب أن أعرف كل شيء عنك.. عن حياتك.. عن أسرتك..

وخشيَتْ أن تكون قد تمادت فتساءلت في رقة:

- هل هذا ممكن؟ أم تراني فضولية أكثر مما يجب؟

وضحك مدحت، حتى يخفف من حساسيتها، ومن قلقها وتخوفها أن يكون في طلبها فضول ومغالاة، وقال متفهما:

- بل على العكس.. إنما يسعدني أن تكوني راغبة في التعرف على حياتي، وظروف أسرتي.

قالت، مهللة كطفلة فرحة تطلب من أمها أن تحكي لها حدوتة ما قبل النوم!:

- إذن كل شيء يا مدحت.. فلا تهمل شيئا..

ويبدو أن مدحت كان قد عزم أمره وقرر أن يطلعها على تفاصيل حياته وظروف أسرته. وأخذ يحكي لها كل شيء، كل شيء بلا خجل، إن أباه رجل رقيق الحال تتجسد في حياته، حياة الطبقة المتوسطة بكل عذاباتها، بكل آلامها، فتتبادله الأيام بين الفرح ساعات، والحزن شهور، واسترسل يحكي لها

...

"وأمي.. لَكَم أحب أمي.. إنها ملاك بغير أجنحة.. ملاك يتهادى على الأرض.. فينشر

بيننا الرضا وقت الضيق.. والبِشْر وقت الأزمات.. وما أكثرها من أوقات

إنكِ لا ترينها إلا مبتسمة، وأخي ممدوح.. حكاية.. بل قولي إنه حالة.. لقد تزوج العام الماضي.. وكانت زوجته له فأل سعادة وخير.. فقد حظيَ بفرصة السفر إلى بلد عربي للعمل.. فهو يعمل مدرساً في إحدي المدارس الإبتدائية في الفيوم..إنه يحب زوجته إلى درجة غريبة.. يحبها بجنون.. ولكن.. هل تعلمين.. لقد أحببناها نحن أكثر منه! فقد اكتشفنا أنها زوجة عظيمة.. وفتاة رائعة.. وكان لها أثر جميل على حياته.. فقلبتها رأسا على عقب.. تخيلي.. كان ممدوح

أنانياً نرجسياً.. لا يحب إلا ممدوح! ولا يفكر إلا في ممدوح..وشيئاً فشيئاً وجدناه يتغير.. وبدأ يساهم مع أمي في نفقات البيت.. بل ويرسل لأمي ولهند وسميحة وأبي ولي.. بدأ يرسل لنا الهدايا والملابس.. وكل هذا بموافقتها.. بل أحيانا بإيعاذ منها..والأكثر من ذلك.. أنه قام بتحمل كل نفقات خطوبة أختي هند التي تمت منذ أيام.. وقال أنه سوف يتكفل بنفقات زواجها بعد شهور قليلة.. بعد امتحاناتها.. فهي طالبة في الثالثة من الثانوية الفنية..وهند هذه أروع أخت.. إنها حقا فتاة رائعة.. وإنني أحبها أكثر من أي شيء في الدنيا.. ولا يضاهيها في هذا الحب.. إلا حبي

لأختي الأصغر سميحة.. وماما.. إنني طبعا أحب أبي كثيراً.. وأيضا ممدوح.. ولكنني أتحمل أن ينفطر قلبي ولا يمكنني أن أتحمل هند أو سميحة غاضبة أو متكدرة.. لا أعرف كيف أصف لكِ حبي لهما.. وتعلُقي بهما..

وخطيب هند مدرس في مدرستها.. شاب رقيق جدا.. مؤدب ومثقف.. اسمه طارق.. وقد تعرفتُ عليه ذات يوم مصادفة بالقطار.. وتقابلنا.. وتآلف بسرعة معي ومع كل الأسرة.. حتى أنه قد تآلف أيضا مع كل أصدقائي في الفيوم.. وعلمنا أنه سوف يصحبها إلى بلد عربي للعمل هناك..ولكن عليكِ.. يوما من الأيام.. أن تتعارفي مع هند

وسميحة.. إنهما رائعتان.. وسوف تكتشفين ذلك بنفسك.."

وكانت تسمع منه باهتمام بالغ، حتى أنهما لا يدريان كم من الوقت قد أمضيا فى التمشية والحديث، يقول وتسمع، قالت .. وقد جاشت مشاعرها:

- أشكرك طبعا يا مدحت على هذه الثقة الغالية التي أوليتني إياها.. وعلى أن فتحتَ لي قلبك.. فادخلتني حياة أسرتك كلها.. وإنها أسرة رائعة.. يسعدني أن أتعرف عليها.. وأتقرب منها..

وصمتت قليلا، ثم أردفت:

- أما عنك.. فوالله.. إنك لبطل يا مدحت.. ولكم قاسيت وتحملت وصبرت..

قال مدحت بثبات:

- الحمد لله.. أنتظر التوفيق من المولى عزّ وجلّ وستكون هذه هي أحلى مكافأة..

- هل تعلم أنه لديّ خبر لك؟

قالت عفاف ذلك، وقد استدارت وهَمَّت بالإنصراف، وهي تنظر في ساعة يدها، مشيرة إلى أن الوقت قد حان لكي تعود إلى غرفتها في المدينة الجامعية، سكن الطالبات المغتربات.

قال لها باسماً:

- لستِ جادة فيما تقولين..
- لقد أوكلني بابا في أن أدعوكَ يوم الجمعه القادم .. لكي تشرب معه فنجان شاي.

قال متسائلاً:

- وهل ستكونين في الفيوم يوم الجمعه؟

هزت رأسها بالإيجاب قائلة:

- أجل ..

سألها مندهشاً:

- وهل يعرفني والدك؟
- لكثرة ما حدثته عنك..

قال وهو يشير بأصبعه السبابة إلى صدره:

- عنـي أنـا؟
- أي نـعم!
- وماذا قلتِ له عنـي؟
- وهل أنا ساذجة؟ لقد أوقعتك في فخّ.. فقلتَ لي كل شيء.. فهل أقع في نفس الفخّ؟

وضحكت بصوت مسموع، ولوَّحت له بيدها، قائلة:

- مع السلامة..

واستدار مدحت بدوره، متجها إلى محطة القطار، لكي يعاود رحلته الشاقة، المضنية.

كانت عفاف فتاة رائعة، ينضح الحسن من محياها وجسدها، وجهها جميل متسق

الملامح، موردة الوجنتين، دقيقة الأنف والشفتين، لها عينان سوداوان واسعتان تفيضان حياة، ويسطع منهما بريق لامع، وضوء باهر، شعرها البني، يزيدها جمالاً، وقد انسدل في سلاسل إلى أسفل ظهرها، وأما صوتها العذب الرقيق، فكان يشبه لحناً أبدع الفنان فى تأليفه وعزفه على قيثارة الشجن، وقد جعل قلبها الطيب كل من يعرفها يلتف حولها وينجذب إليها، وكأن قلبها مغناطيس، جاذب للقلوب!

في القطار، أسند مدحت ظهره إلى مسند المقعد الخشبي، وألقى برأسه إلى الخلف تاركا العنان لخياله وأفكاره، تذهب به إلى

حيث شاءت، فالوقت طويل يمتد إلى ساعات، وساعات. ولشد ما كانت دهشته عندما سمع صوتا جاءه من الخلف قائلا:

- من فضلك يا أستاذ.. هل هذا المكان بجوارك ينتظر أحداً.. أم يمكنني أن أشغله؟

قالت ذلك وقد اعتدلت واقفة أمامه، في ابتسام ..

- منال؟! يا لها من مفاجاة!

وكانت مفاجأة أدهشت مدحت. فما لها بالقطار؟! وقد اتسعت عيناه ..

جلست إلى جواره، بعد أن أفسح لها مكانا مناسباً، وقد تنازل لها عن مكانه إلى جوار

النافذة، وقالت في ابتسام، مع التركيز على عينيه، وكأنها تريد أن تقرأ فيهما شيئا قد يخفيه:

- إنها حقا مفاجأة.. ولكن عليك التوضيح.. فمن المفاجآت السارة.. ومنها غير السارة! .. فأيهما هذه؟!

فأجاب، وقد ارتسمت ملامح الجدية على وجهه:

- إنها مفاجأة سارة جداً يا منال، وأنت تعلمين ذلك، ولكم يسعدني أن نعود اليوم معاً.. وأن مفاجأتك والله قد أدخلت على قلبي المسرة.. وأن وجودك هنا الآن كقطر الندى! وأن

المفاجأة قد سببت لى الارتياح كل الارتياح!

فقالت، وقد غضت بصرها، واحمرت وجنتاها خجلاً:

- ولماذا إذن لا أراها كذلك.. بالنسبة لك؟

فحار، وهربت منه الكلمات، وابتسم قائلاً:

- يقولون"ياما في السجن مظاليم".

وأجابت مازحة:

- هذا في السجن! ولكننا هنا في القطار!

فلم يقولوا"يا ما في القطار مظاليم"

وضحكت من قلبها، ولكنها ما أن أكملت جملتها حتي سقطت فوق رأسها "قُفّة"

كانت إحدي الراكبات قد وضعتها فوق الرف الذي يعلوها مباشرة، فصاحت في فزع:

- يا إلهي.. ما هذا؟

وأسرع مدحت، فرفع عنها القفة التى استقرت في حجرها، بعد أن سقطت على رأسها، وأعادها إلى الرف، ولكن في مكان لا يشغل أحد المقعد الذي تحته، وقال لها مطمئنا:

- لا تخافي.. بسيطة.. وكثيرا ما يحدث هذا.. وأكثر..

وأخذت تنفض عن شعرها، ووجهها الغبار الذي تناثر عليها من القفة وهي تلعن القفف، وأراد مدحت أن يخرجها من حالة الإستياء، فضحك قائلا:

- الحمد لله أنها لم تُسقِط عليكِ "عسلا".. كما حدث من قبل.. وإلا لما علمنا كيف نتصرف، ولكانت ورطة ما بعدها من ورطة!

وضحكت منال ضحكة عريضة، وقد نَسيت الغبار الذي تناثر عليها،وسألت مدحت، ولا زالت تضحك:

- أحَدَث هذا معك؟! احكي لي ماذا حدث.. وكيف تصرفت؟!

قال مدحت، وقد حاول أن يجعل من الموضوع مادة فكاهية، ولو أنه لم يكذب..

- لقد كان يوماً غريباً من أوله..فقد كنتُ أجلس هنا تقريباً.. على نفس هذا

المقعد..أو الذي يليه..وعندما وصل القطار إلى محطة "الواسطى".. وكان يوم الثلاثاء..وفي هذا اليوم يكون عدد الراكبين كبيراً جداً.. فتزاحموا.. وتزاحموا.. وكان من بينهم من يحمل الدجاج.. والبط.. وانزلقت قدم إحدى الراكبات ممن كُنّ تحملن الدجاج.. وسقطت أرضاً داخل القطار.. فطار الدجاج هنا وهناك.. فتدافع الراكبون.. بعضهم يحاول أن يساعد الراكبة المسكينة التي لازمت الأرض تصيح وتقول أن ساقها قد التويت تحتها.. وأن الألم شديد..بينما انشغل البعض الآخر

في محاولة الإمساك بالدجاج حتى لا يطير خارج القطار.. عبر النوافذ.. ولهم الحق.. كل الحق في ذلك .. فالنوافذ.. إما أنها مفتوحة رغما عن الراكبين - لأنه لا زجاج لها - وإما أن الزجاج موجود.. ولكنه مكسور! فالنوافذ مفتوحة في كل الأحوال..

وطارت دجاجة هائجة خوفاً ممن يحاولون الإمساك بها.. واستقرت فوق القفة التي كانت على الرف الذي يعلوني.. مثل هذا الرف..

وأشار إلى الرف الذي سقطت من فوقه القفة على رأس منال، التي لم تتوقف عن الضحك،

وهو يحكي هذا الموقف الطريف.وسألته، من بين ضحكاتها المتتالية:

- ثم ماذا؟ أين العسل؟

فاستتلى قائلاً:

- هذه الدجاجة التي استقرت فوق القفة.. الموضوعة على الرف الذي يعلوني .. اندفع إليها أحدهم.. لكي يمسك بها.. خشية أن تخرج من النافذة..كانت اندفاعته قوية.. بحيث أنه فعلا أمسك بالدجاجة.. ولكنه تعلق في القفة.. فسقطت بعنف فوق رأسي.. وكانت تحوي عسلاً أبيض.. عسل نحل.. ولسوء حظي فإن العبوات لم تكن قد

أُحكِم إغلاقها.. وسال منها العسل على شعري.. ووجهي.. حتى القميص الذي كنت أرتديه في ذاك اليوم.. لم يسلم من العسل!

وكادت منال تسقط أرضاً من كثرة الضحك! وقد اهتز جسمها من الرأس إلى القدمين مع ضحكاتها التي جاءت من الأعماق.

وسألته:

- ثم ماذا؟ ماذا كان عليك أن تفعل في هذا الموقف الغريب؟

قال، وهو لا يقل عنها تأثراً بالموقف الكوميدي:

- لقد أصبحتُ أنا قِبلة كل الأنظار والعيون..وتجمع الركاب من حولي.. بين ضاحك من هذا المنظر.. والعسل يملأ وجهي وشعري..وبين جاد ومشفق .. يتساءل عمن يحمل الماء حتى أغتسل! فلم يكن بالقطار ماء! ولا حتى في الحمّام الوحيد الذي وجدوه في إحدى العربات!

سألتْ ولا زالت تضحك:

- كيف تصرفوا إذن؟

فقال .. مازحاً:

- ألم تسمعي من يقول "قدّر.. ولطف" أي أن أللہ قد يُنْزِل البلاء على الإنسان

.. ويخفف منه.. فيجعله "لطيفا" وفعلا كانت مصادفة طيبة أن كان هناك راكب يحمل زجاجة ماء..المهم أن هذا الراكب الطيب تبرع بالماء وغسلتُ رأسي ووجهي وأزلتُ بعض العسل من القميص الذي كنتُ أرتديه

ولكنني اضطررتُ أن أغادر القطار.. في أول محطة واستدير.. وأعود أدراجي إلى الفيوم.. في أول قطار عائد من القاهرة! وكادت أمي وأخوتي يسقطون أرضاً من كثرة الضحك.. عندما وصلتُ إلى البيت.. وقصصتُ

عليهم هذه الحكاية الطريفة! حكاية العسل.

فقالت منال.. مبتسمة:

- إذن فقد صدق من قال"اللي يشوف بلاوي الناس تهون عليه بلوته".

وقال مدحت ضاحكا:

- عليكِ أن تحمدي الله.. فالتراب أرحم..

وضحك مدحت كثيراً.. وكان قد تذكر شيئاً.. فقال ضاحكاً:

- هل تذكرين يوم أن أغرقَتْ المياة ثيابك.. أنت وهاله أختك؟

وضحكت حتى ترقرقت في عينيها الدموع، عندما تذكرت هذا اليوم الذي أغرقتها بالمياة

تلك السيارة المجنونة،عندما هَمّ مدحت لتوصيلها إلى مدرس اللغة الإنجليزية.قالت:

- وهل أنسى ذلك اليوم .. لقد كان سائقاً أرعن مجنون..

ونظرت إليه، ولا زالت تضحك، قالت:

- بالأمس أغرقتني المياة.. أما اليوم فيغرقني التراب.. أهذا هو كل ما أحصل عليه.. عندما ألقاك في كل مكان؟ في الفيوم .. وحتي في القطار!

قال .. ضاحكاً:

- إنما ذلك .. لحظي العاثر!

وضحكا، من القلب.ومَر بعض الوقت في سكون، وصمت، قالت منال، تكسر السكون:

- إنك تعاني كل المعاناة في السفر بهذا القطار البائس.. فمن أين تجد الوقت لاستذكار دروسك.. بعد قضاء هذا الوقت الطويل في السفر..

وصمتت لحظات، ثم أضافت مواسية:

- فمتى تأكل.. ومتى تنام.. ومتى تذاكر.. بعد يوم طويل من المحاضرات في الكلية؟ وكيف تحصل على تقدير إمتياز.. كل عام.. وليس هذا فحسب .. بل إنك.. وهو غريب جداً.. إنك لا ترى أنكَ مكافح.. بل لا ترى أن ظروفك تقسو عليك.. فلا تشكو شيئاً.. لا الزمن.. ولا الناس.. ولا المجتمع

بل إن الأكثر من كل هذا وذاك.. هي
روح الفكاهة التي ترفرف من حولك
.. وتحلق في فضاءك.. وتضفي على
حياتك شيئاً من الرضا.. والقبول..

الرضا بالأمر الواقع.. والقبول بقضاء الله..دائما روحك مرحة.. دائما تبدو متفائلا.. كيف ينشأ الإنسان سوياً.. وقد أحاطت به هذه البيئة.. كيف لا يكون مُعقداً.. من ينشأ في ظلال هكذا ظروف؟! الظروف المعقدة.. المُحبِطة.. كيف يكون مُحبّاً للناس.. من كان له مثل هذه الظروف؟! كيف لا يكون مكتئبا.. عَبوسا؟! ..كيف جعلتَ الناس يحبونك؟! ..أليست هذه معادلة صعبة؟! ..ألا يقولون أن

الإنسان إبن بيئته؟! ..فإذا البيئة أرضعت إبنها الفقر.. والعوز.. والحرمان.. فهل تنتظر منه إنسانا سوياً.. رائعا؟! ..

إنني جد آسفة يا مدحت على التحدث معك هكذا حديث.. ولكن ما بيننا هو ما يرفع عني التكلف.. وانتقاء الألفاظ..ولو لم أكن أعرفك جيداً.. لزعمت أنك تمثل .. أو تَدّعي غير الحقيقة.. ولكنك لستَ كذلك.. ولما كان رأيي هذا.. هو رأي كل من يعرفونك..فمن أنت؟!..

بينما كانت منال تُدلي برأيها في مدحت، كان يغض البصر، وقد كست حمرة الخجل وجهه، وقليلا ما كان ينظر إلى عينيها، وكثيرا ما كان يرسل بصره من خلال النافذه،

إلى الأفق البعيد، وقال، بعد أن انتهت منال من حديثها، بكلمات، لا يعرف كيف يستدعيها، وفي نبرة شاكرة ممتنة:

- كل هذا عني؟! أشكر لك يا منال كل هذا الكلام الذي لم أسمعه من أحد قبلك.. ولا أظن أنني أستحقه!

ولم تُعلّق منال ..

وقد أسند كل منهما ظهره ، ورأسه على مسند المقعد، والقطار يقطع الطريق، في كسل ممل، وبطء شديد، بحركة ارتجاجية، فكان يتأرجح ذات اليمين، وذات الشمال، كأنه قارب تتقاذفه الأمواج، في عرض البحر، أو مثل أوزة تجري وقد

مال جسدها يميناً ويساراً، في اهتزاز مستمر، إلا أن حركة القطار تكسر عظام الراكبين، وتصيب رؤوسهم بالصداع، وهو ما حدث، فعلى اعتبار أن هذه هي المرة الأولى لمنال التي تسافر فيها بالقطار فكانت تشعر أن عظامها تكاد تنكسر بسبب حركة القطار واهتزازه بعنف، ولا يدري كل منهما فيم يفكر صاحبه، ولا إلى أين تُحلّق أفكاره.

ولكي يكسر الصمت، قال مدحت دون أن يوجه أنظاره إلى منال، بل ظل يجول بعينيه من خلال النافذة:

- أين كريم، إنني لم أره اليوم في الكلية؟

قالت، وكأنها تنتظر فرصة جيدة، للحديث عن "عفاف":

- لقد كان موجوداً في المدرج..ولكنكَ بحثت عن عفاف.. واتجهت إلى مكانها مباشرة.. حتى أن الحديث بينكما.. بعد انتهاء المحاضرة.. كان طويلا! وأنتما تتمشيان داخل أسوار الكلية!

ولم يكن من الصعب عليه أن يتبين ما وراء الكلمات، ولم يزد عن أن يرسل ناظريه لمشاهدة الحقول التي يمرعبرها القطار، في صمت، وشعرت منال أنه عليها أن تفسر شيئاً.. فقالت:

- أما عن المفاجأة التي كنتُ قد أعددتها لك.. والسفرعلى متن هذا القطار اليوم.. فقد رغبتُ في أن أكتشف بنفسي كم هو سيء السفر بواسطة هذا القطار.. وكم هو شاق.. إلا أنني اكتشفت أنه أكثر سوءً.. مما وصفتَ لنا! كان الله في عونك..

قال مدحت قانعاً راضياً، وقد غض من بصره:

- الحمد لله أن هذا القطار موجود..رغم صعوبة السفر به.. وإلا لكنتُ في مشكلة كبيرة.. وربما بدونه.. لما

استطعتُ أن أكمل دراستي الجامعية.. كما تعلمين..

ونظرت منال مباشرة في عينيه وأطالت النظر ،حتى أنها أدهشته، ثم قالت:

- هناك شيء أخر.. أودّ أن أطلعك عليه..

فنظر إليها.. وقال مُبديا الإهتمام:

- تفضلي يا منال.. إني مصغ إليكِ..

قالت بخجل شديد، كسيَ وجهها حمرة، وقد تحامت عيناها عينيه من جديد:

- أنت تعلم يا مدحت أننا خمسة أخوات من البنات.. وطبعاً ليس لنا إلا أخ واحد هو كريم.. ويبدو أن والدي يشعر

أنه قد كبُر.. ويشفق على أمي.. التي كبُرت أيضاً.. ويقول أن ما يقلقه هو أن تتحمل أمي من بعده مسئولية خمسة بنات كلهن في سن الزواج.. ويرى أنه يحتم عليه هذا الوضع أن يوافق على أي عريس يتقدم لواحدة منا .. إذا وافقت عليه البنت!

وصمتت.. لتعرف رد الفعل على مدحت.. ومرت دقائق في سكون وصمت..

وكأن مدحت لا يعرف ماذا عليه أن يقول.. كما لم يكن خافياً عليه ما تصبو إليه ولكن كان عليه المناورة.. فلا هو يريد أن يسبب لها إحراجاً.. ولا هو في وضع

إجتماعي ومادي يؤهله للتقدم إلى أهلها طالباً يدها.. مع أنها فتاة جميلة.. حسنة الخلق والتربية الدينية.. قال.. مبديا التعاطف:

- ربنا يطيل لهما في العمر.. ولا خوف عليكن.. فكل واحدة منكن أجمل من الأخرى..

ولم تجد منه، ما أرادت أن تسمع! وكأنما تحاول أن تُسهّل له المطلوب منه، في عِزّة نفس، قالت:

- وإذا تقدم لي شاب.. في ظروف مادية غير مناسبة.. ووافقتُ عليه أنا.. فسوف يوافق عليه أبي!

وأُسْقِط من يده! فلا مهرب، فقد سدّت عليه كل أبواب الإعتذار، أو إدّعاء عدم

الفهم! قال مدحت مجاملاً، وربما هي الحقيقة:

- وهل مثلكِ من ترضى بهذا؟

وصمت قليلاً، ثم أردف:

- لديكِ الأسرة العريقة.. المستوى الإجتماعي المرموق..لامشكلات في الناحية المادية.. وجمالك الذي لا ينكره أحد.. فتاة جامعية.. ما شاء الله..

لا شيء ينقصكِ يا منال حتى تقولي ما قلتِ.. لا شيء..

ونظرت إليه في حيرة وصمت، وهَمّت أن تسأله، "لماذا لا تتقدم أنت تطلب يدي إذا

كنتَ تراني كذلك؟!" إلا أنها آثرت الصمت، حفظاً لماء وجهها، فليس عليها أن تقول له شيئاً أخر، بل أنه ما كان عليها أن تقول له ما قالت!

وكان مدحت قد عقد العزم، وقرر أن ينأى بنفسه عن موضوع الزواج من منال، ليس لأنها تفتقر إلى الجمال، بالعكس، إنها جميلة، بل رائعة، ظاهرياً وروحاً،

ولكن لأنه لا يجرؤ حتى على مناقشة الموضوع مع نفسه، فأين أسرته من أسرة منال، بل أين هو نفسه - وحاله هكذا- من الزواج من منال أو من غيرها؟

كانت منال فارعة الطول، وجهها أبيض مُشَرّب بحمرة، سوداء العينين، أنفها دقيق مستقيم، وكانت غمازتاها حول الشفاة الدقيقة تزيدانها جمالاً، خاصة حين تضحك، أو تبتسم، أما الشعر الأسود الفحمي اللامع الناعم، فكان يجعل من وجهها مثالاً للوجه الرائع، حين تصففه بحيث ينسدل بعضه على جبهتها حتى يغطي ما فوق حاجبيها، ومن الخلف، ينسدل باقي شعرها حتى يغطي ما حول كتفيها، وهو ما كان يحدِّث به مدحت نفسه، إن فتاة جميلة، يُعجَب بها،هاهي

تجلس إلى جواره، تكاد تطلب هي يده للزواج، وتريده بإلحاح، إلا أنه يؤمن بأنه ما

أكثر ما يبعدها عنه، وما أطول المسافة بينها وبينه، وما أبعد مجالات المقارنه بين أهلها، وأهله.

الفصل الحادي عشر

الثأر

كانت بديعة مشغولة في حياكة عباءة، بينما كانت صفية أختها تساعدها في التفصيل، ولديهم بعض السيدات من الزبائن اللاتي يرغبن في تفصيل ملابس لهن، فقد ذاع صيت بديعة، وأصبحت خياطة مشهورة، وكان لصفية أثر في إنجاز الكثير من العمل، خاصة بعد أن درست فن الحياكة والتفصيل

في المدرسة الثانوية الفنية، طرق الباب، وكانت السعادة تقفز من عينيها عندما فتحت صفية الباب لتجد أن الطارق هي فرح وفاتن وأمل، ورحبت بديعة بهن أيما ترحيب، واستقبلتهن بالفرحة والإبتهاج، وتحدثت فرح مع بديعة و السيدات الموجودات قائلة:

- من حُسن الحظ أن نجدكن هنا اليوم.. لأننا غداً.. إن شاء الله.. سوف نأتي بعجل ونذبحه هنا في قلعة الكبش، ونقوم بتوزيع لحومه على الأسر حسب الكشف الذي سنقوم بإعداده، سيكون نصيب كل أسرة إلى جانب اللحوم بعض المواد الغذائية، والوحيدة التي

تعرف مناسبة هذا الإحتفال، هي
بديعة، فقد رُزِقت زوجة أخي الحاج
حسن منذ أسبوع بتوأمين، وهذه هي
المناسبة السعيدة التي نحتفل بها، وكان
الحاج حسن قد إستجاب لرغبة والدته
السيدة حسناء، وأيضاً كانت رغبة
والده الحاج كمال، فقرر ذبح عجلين
بهذه المناسبة السعيدة، عجل لكي يتم
توزيع لحومه في حي قلعة الكبش،
والعجل الآخر سوف يتم توزيع لحومه
في حي السيدة زينب.

فطلبت بديعة الإذن من زبائنها من السيدات
على أن ينتهوا اليوم ويؤجلوا العمل للغد،

متعللة بأنها لا تستطيع أن تترك السيدة حسناء في مثل هذه المناسبة، دون أن تساعد في إعداد كل ما يتطلب من الأمور الخاصة بالإحتفال، وقررت أن تذهب هي وأختها صفية، التي ما كانت لتتأخرعن نداء الواجب في خدمة السيدة حسناء، وعند السيدة حسناء كان هناك الكثير مما عليها القيام به، فهذه المناسبات تحتاج إلى الكثير من العمل، وكان من الواضح أن بسطويسي قد حاز ثقة الجميع حيث كان يتحرك في كل مكان، ويقوم بأعمال كثيرة كانت قد أُسنِدَت إليه وكان محل إحترام من الجميع، حتى أن الحاج حسن بنفسه وجه الشكر لمدحت الذي رشحه للعمل

لديه، وأكد له أن بسطويسي شاب ممتاز ومكافح، وأهم من ذلك أنه أمين، مما جعل حسن يسند إليه الكثير من الأمور، وكان بسطويسي قد رأى صفية أخت بديعة في عدة مناسبات في فيلا الحاج حسن، ويبدو أنه أُعجب بها، ولم يجد حرجاً من مصارحة فرح بأمر الزواج من صفية، حاولت صفية أن تعتذر عن الزواج قبل أختها الكبيرة بديعة، وطالبت بسطويسي أن يفكر في خيارين، فإما أن ينتظرها حتى تتزوج بديعة، أو يمكنه البحث عن فتاة أخرى

أما عن بسطويسي فقد أعلن أنه يمكنه الإنتظار، فلن يبحث عن فتاة أخرى، فهو

يرغب في صفية، وأما بديعة فقد أصرت
على زواج صفية أولاً، وكان منطقها مقبولاً،
فإذا تزوجت هي أولاً، فهي لا تستطيع أن
تترك البيت، إلى بيت الزوجية لأنها لا
تستطيع أن تتخلى عن أختيها الصغيرتين،
فوزية ونادية، وأيضاً أخيها الصغير جابر،
كما أنها لا يمكنها أن تقيم في بيت الأسرة مع
زوجها، فكيف
تقيم صفاء وصفية مع رجل غريب في نفس
البيت، حتى لو كان زوج بديعة؟
المهم أن الجميع قد إقتنع بضرورة زواج
صفية أولاً، وحتى إذا جاء عريس لصفاء،
فعليهم ألا يرفضوا تزويجها قبل بديعة،

وكانت بديعة سعيدة لزواج صفية بعد أن حصلت على مباركة خالتها وزوج خالتها، وأيضاً كانت مباركة أسرة فرح هامة جداً بالنسبة لبديعة وأخوتها، وجاء دور الحاج حسن، الذي برهن على

أنه يُعِدّ بسطويسي لكي يلعب دوراً هاماً في ما يخص أعماله التجارية، ولو أنه أشار إشارة خفيفة لهذا الدور عندما منح بسطويسي مبلغاً كبيراً بمناسبة زواجه، فقد قدّم إليه شقة في أحد عماراته، ليقيم فيها مع زوجته، بعد أن أثثها تأثيثاً فاخراً على نفقته، وأخبره أنه سوف يعتمد عليه كثيراً في الفترة المقبلة، وكانت المفاجأة مذهلة بالنسبة

لبسطويسي، وأكبر من طموحه، وتفوق إمكانياته بلا شك، ولم تكن صفية سعيدة بهذا القدر يوماً من الأيام، ولم يكن هناك شيء يؤخر الزواج، وكان من أسعد أيام بديعة التي أكملت دور الأم وزوجت أختها التي ذهبت أمها وتركتها لها ولم تكن قد جاوزت العاشرة من عمرها، وغمرتها السعاجة، وترحمت على أمها، التي كانت سوف تفرح بهذا اليوم، الذي تزوجت فيه صفية، بزوج مثل بسطويسي الذي عُرِف عنه شهامته وأمانته. وكانت صفاء أخت صفية، قد راقت لعلي، فطلبها للزواج، ولم تكن بديعة تستطيع أن

ترفض شاباً مثل علي جارهم وأخو صديقتهم أمل، وكانت السيدة حسناء متحمسة لهذا الزواج، وباركته، وساهمت بالكثير لإتمام الخطوبة، على أن يتم الزواج بعد تخرج علي من الكلية، وكانت بديعة قد أتمت الواحدة والعشرين من عمرها، وخرجت من بيتها أختها صفية، إلى بيت الزوجية، والأخت الثانية تستعد للزواج ، وبقيت أختها فوزية في السنة الأولى الإعدادية والصغرى نادية، في الخامسة الإبتدائية، أما جابر فكان في الثالثة الإبتدائية. وكان التوأمان مصطفى ودينا على قدر كبير من الجمال وأحبهما حسن كل الحب فكانا

روحه وقلبه، وكانا أول من رأى الجد والجدة
من أحفاد، فكانت الجدة السيدة حسناء لا تكاد
تُمضي وقتاً دون تدليلهما ومداعبتهما في
سعادة تكفيها العمر كله
أما الجد الحاج كمال فكان يعتبرهما ثمرة
حياته وسر فرحته.
ولم يكن التوأمان قد أكملا من العمر الشهر
الثالث، عندما سافرالجد إلى
الإسكندرية كعادته لمتابعة بعض الأعمال
التي يقوم بها بنفسه وأحياناً ينوب عنه حسن،
فلا أحد يعرف عنها شيئاً إلا إبنه حسن.
وطلبت زوجة حسن منه أن تصحبه في
رحلته، فهي ترغب في شراء بعض الملابس

والأغراض التي إعتادت أن تشتريها من محلات معينة من الإسكندرية ووافقت الجدة، بشرط أن تترك لها الطفلين، فهي لم تعتد فراقهما، ثم أن عظامهما لا زالت أضعف من أن تتحمل رحلة طويلة بالسيارة.

وبعد أن أدّى الحاج حسن صلاة العصر في المسجد، حاول أن ينام بعض الوقت وما أن غفلت عيناه قليلاً حتى رن تليفونه فنهض من نومه وجلس على الفراش نصف جلسة وقد أسند ظهره على حافة السرير وكان الإتصال من رقم لا يعرفه

قال بصوت يغالب النعاس:

- ألو..

ومثل صاعقة رهيبة، إنقض عليه الخبر المشئوم، مثل غزال شارد، فجأة إنقض عليه حيوان مفترس، فمزقه إرباً، جاءه خبرعبر الهاتف، زلزل كيانه.

- لقد تعرض الحاج كمال لحادث وهو في سيارته.. إذ هاجمه مجهولان.. وأطلقوا عليه النيران.. هو والسيدة التي كانت بصحبته.

وكأنه هو من أُطلِقَت عليه النيران.. وغَرِقَ قلب حسن في الظلام والأسى لدى سماعه هذا الخبرالرهيب.. وغمره ألم شديد إعتصره بضراوة.. فأطلق العنان لنفسه ليصرخ مفزوعاً حزيناً.. وملأ صراخه فضاء

الغرفة..وإنتشر لكي يملأ فراغ كل الغرف بالبيت..وهرولت حسناء مضطربة مرعوبة.. ومن خلفها فرح وفاتن..وقد راحتا تلهثان.. وكاد قلباهما يقفزان من بين الضلوع خوفاً وهلعاً..

وتبينوا حقيقة ما حدث..لقد إغتال مسلحان الحاج كمال وزوجة حسن.

وراحوا يصرخون والحزن يمزق قلوبهم، تخنقهم دموع الهلع الهستيري منهمرة من عيونهم في بكاء مرير، وشعروا وكأنهم يسمعون إنفجار الرصاصات المدوية الغادرة تصمّ آذانهم، إنهم لا يريدون أن يصدّقوا آذانهم، لا يصدّقون هذا الخبر القاتل، بعد أن

سيطرت عليهم مشاعر الذهول الفاجعة، ولم يكن أحدهم في حياته أشدّ تعاسة وحزناً عنه في هذه اللحظات المميته، كيف يحدث هذا؟ ولماذا؟ لماذا
يقتل أحدهم الحاج كمال؟ لقد وهب حياته لفعل الخير، مستحيل أن تكون هناك خصومة بينه وبين أي إنسان، وهذه المسكينة التي أطلقت عليها رصاصات الغدر ماذا فعلت لكي يزهقوا روحها بدم بارد؟...
الكثير والكثير من الأسئلة تظل بلا إجابة.
لقد إنهاروا وتحطموا، وكان حسن على وشك الجنون، لفقده والده وزوجته في

لحظة واحدة، وكان ذلك اليوم هو أطول يوم عاشته الأسرة .. وأشدها هلعاً ورعباً وحزناً، وقد حطّم الألم عظامهم، وسحقتهم هذه المصيبة.

"كان حادثاً مروعا .." هكذا كتبت الصحف التي نشرت الخبر في اليوم التالي.

"فقد شهد الشهود أن شابان، في الثلاثينات من العمر، كانا يستقلان دراجة بخارية أوقفا السيارة التي كان يقودها الرجل، وما أن توقف حتى انهال عليه وابل من الطلقات النارية، وأيضاً على السيدة الشابة التي كانت تركب إلى جواره، وأردياهما قتلى، ولاذ الرجلان بالفرار، ولم تكن الدراجة تحمل

لوحة أرقام معدنية، وقد قضت السيدة في الحال، بطلق ناري واحد، أما الرجل فقد أصيب في الرأس برصاصة، بينما استقرت في القلب عدة رصاصات، وبينما كان يترنح كانت يداه ترفرفان بعد تلقيه لكل طلقة وكأنهما جناحا طائر يرفرف في الجو وهو يطير .."

"وقد تبين بعد ذلك أن الرجل هو رجل الأعمال الكبير صاحب شركة الإسكندرية للإستثمارات العقارية والسياحية.. السيد كمال الشرقاوي.."

وقُيد الحادث "ضد مجهول"..وكان سبب الإعتداء مجهولاً..فلماذا قُتِل الرجل؟ ولماذا قُتِلت المرأة؟ لا أحد يعلم ..

هذا ما جاء في الصحف.. في اليوم التالي.

وكان الفاعل مجهولا للشرطة، ومجهولاً للجميع، إلا حسن! وهذا ما قد تكشف عنه الأيام! فالرجل يده بيضاء، وممدودة للخير دائماً، حتى أنه معروف لدى الكثير من الجمعيات الخيرية، ويؤدي صلاة الفجر في المسجد، ولا أعداء له!

ويقال أن عائلة المرشدي، في الشرقية، قد وافقت أخيراً على تقبل العزاء!

وكانت الفاجعة قاتلة، أقسى من أن يتحملها قلب حسناء، وإبنتيها، وبكى حسن بمرارة، وعلم أن هذه هي نهاية والده المحتومة، وأن هذا هو التفسير البسيط للأحلام والكوابيس التي كانت تطارد والده في نومه باستمرار، فالهارب لن يظل هارباً، وساعة الحساب لا بد قادمة! ولكن زوجته، أم هذين الطفلين، ما ذنبها؟

هكذا هو الحال دائماً، فلا بد أن يكون هناك ضحايا، لكي يكون العقاب أشد إيلاماً! بهذا أقنع نفسه، لكي يتقبل الأمر! وكان عليه أن يتماسك، لكي يخرج من هذه المحنة سالماً! ومن أجل طفليه اللذين يحتاجان منه الرعاية

والإهتمام، ورغم حزنه الشديد، إلا أن هذا لم يجعله يتزحزح عن طريقه الذي رسمه له أبوه قَيدُ أنملة! فلقد بدأ طريقاً، عليه أن يواصل فيه حتى نهايته!

ومع مرورالزمن، بدأت حسناء تستعيد حيويتها، وشيئاً فشيئاً بدأت تمارس حياتها الطبيعية، وتذهب إلى دور الأيتام والجمعيات الخيرية التي هي عضوة فعالة فيها

وكانت تحاول أن تهب الحياة لمشروع إعادة تأهيل العشوائيات الذي إنطلق منذ نحو ثلاث سنوات، ولكن بالأقوال فقط، حيث لم يرَ النور بعد، لأسباب كثيرة أهمها عدم الإنتهاء من تدبير الأموال الكافية لتنفيذه بعد، وعدم

الإنتهاء من بناء البنية التحتية والمرافق والخدمان اللازمة، قبل إنشاء المساكن، إلا أنها لم تستطع أن تُقيم في الفيلا التي شهدت كل الأيام السعيدة والليالي المميزة التي ملأت حياتها فرحة وبهجة مع كمال، فقررت أن تقيم مع حسن إبنها في السيدة زينب، مع إبنتيها فرح وفاتن حتى تستطيع أيضاً أن ترعى الطفلين مصطفى ودينا اللذين خطف الموت أمهما وهما لا يزالان صغيرين في أمَسّ الحاجة إلى الرعاية والإهتمام بهما، وفعلا كان للجدة والعمات الدور الكبير في أن يتجاوز الأطفال هذه المحنة الرهيبة، وامتلأت

غرفتهما باللِعَب ووسائل الترفيه، وأغدق الجميع عليهما بالحب والحنان.

الفصل الثاني عشر
التخرج

ما أن وقف مدحت في مدخل المدرج وجال بعينيه من حوله ومن أمامه حتى رأى موريس وسامي وسميرالخضري يجلسون على اليسار من المدرج، في الصف الرابع، وأيضاً علي وأخته أمل اللذين كانا ينشغلان بالحديث مع محمد وفرح، أما المجموعة

الأخرى من الأصدقاء فكانت تضم كريم ومنال ومعهما أسامه، وكانوا يلوحون له، كما لو كانوا في انتظاره، توجه من فوره إلى حيث يجلسون وقد حجزوا له مقعداً إلى جوارهم في الصف الثالث وسط المدرج، وبعد أن تبادلوا التحية، قال له أسامه مازحاً:

- كم أنت محظوظ يا مدحت!

وقبل أن يكمل حديثه قاطعه كريم ضاحكا ضحكة رنانة، التفت إليه على أثرها الطلبه من حوله وقال:

- كلا.. كلا.. تحدّث عن الحظ على أي انسان آخر.. إلا مدحت!

وأضافت منال مبتسمة:

- حقاً.. صدقت يا كريم.. فقد ضل الحظ طريقه إلى مدحت!

وقال مدحت ضاحكاً:

- ما بالكم يا شباب..

ثم أردف مستبشراً:

- وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها.. فلا تحبطونني..

ثم أشار إلى أسامه، وقال ولم يزل ضاحكاً:

- ولربما تحقق الحظ على يد أسامه.. فلنسمع منه..

قال أسامه:

- لقد طلبت أمي اليوم أن أوجه الدعوة لمدحت لتناول الغداء لدينا في البيت

وبالمرة.. بالمرة.. أدعوك معه يا كريم.. أنت وأختك منال.. أي أنكما على هامش الدعوة..تخيلا ذلك.. وطبعاً لم تنسَ أمي دعوة علي ومحمد وأمل وفرح.. وطبعاً فاتن أخت فرح لم تنسها أمي.

فقال كريم ضاحكاً:

- ولو، سوف نقبل الدعوة.. وسوف نتخذ أماكننا حول طاولة السفرة قبل أن تفعلوا.. فأنا أموت في أكل الحسين.

وقالت منال قول الواثق من نفسه:

- بل إنكم لا تعرفون شيئاً.. إنها تعتبرني أنا وكريم من أهل البيت.. فلا حاجة لنا

لدعوة.. ولذا فسوف نتقدمكم في حفل الغداء.

وسأل مدحت موجها الحديث إلى أسامه:

- ولكن ما سبب هذه الدعوة اليوم؟

- ربما لأن الامتحانات قد اقتربت، وبعدها تتخرجون، وتصبحون من حَمَلة المؤهلات العليا، أي من وجهاء المجتمع،أو من شاغلي الوظائف المرموقة على أي رصيف! وتنسون أسامه وأهل أسامه.

وها هي عفاف ترتقي درجات المدرج صوب مدحت، فقد كانت تجلس في البنش في الصف الأول، ويبدو أن مدحت لم يرَها عند قدومه،

وبعد أن قَدّمتْ التحية إلى منال وكريم وأسامه، قالت لمدحت:

- انتظرني بعد المحاضرات اليوم يا مدحت، فاليوم الخميس كما تعلم، وسوف أسافر اليوم معك إلى الفيوم.

فضحك مدحت وقال مازحاً:

- أه.. إذن عليك يا عفاف أن تحضري معنا حفلة الغداء التي دعانا إليها أسامه لتوّه.

فتدخل أسامه في الحديث، موجهاً لها الدعوة:

- والله يا عفاف ليتك تقبلين.. فقد طلبت أمي توجيه الدعوة لكم جميعاً ..

فقالت عفاف في امتنان:

- أشكرك كثيراً يا أسامه.. سوف أفعل.. في يوم آخر..

ثم وجهت الحديث إلى مدحت، متسائلة:

- في أي وقت تعود من منزل أسامه؟

قال متردّداً، فهو لا يدري متى ينتهي من تناول طعام الغداء في بيت أسامه، فهذا يتوقف على أشياء خارج سيطرته:

- إنني لن أتمكن من إدراك القطار الذي ينطلق في الثالثة بعد الظهر.. مما سوف يضطرني إلى انتظار الموعد الذي يليه في السادسة مساء.. فما رأيك؟

قالت.. متسائلة:

- وماذا في ذلك؟

- إنك لا تعلمين إذن أنه يصل إلى الفيوم بعد خمس ساعات! أي في الحادية عشرة مساء.. ألا يعني هذا لكِ شيئا؟!

فهزت رأسها بأن نعم، وقالت في إلحاح:

- ولكن هناك حَلّ آخر ..

وصمتت ثواني ناظرة إليه وأردفت:

- سوف أنتظرك في محطة الحافلات.. إنسَ القطار اليوم!

وصمت مدحت، وقد تعلقت عيناه بعينيها، دون أن يقول لها شيئاً إيجاباً أو رفضاً

إنه متردد لسبب ما، لا يستطيع أن يفصح عنه، وقرأت ما تقول عيناه ولم تستطع أن

تقوله شفتاه، وحدّثَتْ عفاف نفسها "المسكين.. ربما كان يفكر في أن الفرق بين قيمة تذكرة الحافلة.. و قيمة تذكرة القطار هو ما يجعله يتردد.. وربما كان ما يملكه من نقود.. إنما يكفي فقط للسفر بالقطار"

فقالت له وهي تستدير منصرفه وكأنها قد حزمت الأمر:

- لا تكن سخيفاً، سمجاً.. ودع ما تفكر فيه.. سوف أنتظر منكَ مكالمة، عندما تَهِمّ بمغادرة بيت أسامه، إتصل بي حتى من تليفونه.. ومن ثم نتجه مباشرة إلى محطة الحافلات.. فلا تتأخر.. كما أنني سوف أتصل بوالدي.. حتى لا

ينتظرني في المحطة في الفيوم..لأنك سوف تصحبني إلى البيت!

وصمَت، فكان صمته موافقة، على كل ما قالت، مكتفياً بابتسامة عريضة، مُلوِّحاً لها بأنْ مع السلامة، رغم أنها كانت قد انصرفت، وتابعتها عيناه، كانت تنطلق رشيقة الخطو، ريّانة كزهرة الربيع، خفيفة كالفراشة، وكانت منال تتابع الحديث الذي جرى للتوّ بين عفاف ومدحت، وأدركت أن الأمر بينهما، ربما، ربما كان ينطوي على أبعد مما تظن! إن الشك يداخلها، وإن النفس لتنازعها إلى مصارحته بما يدور في خلدها، ولكن الشجاعة تخونها، ويعقلها الحياء،

وضاق صدرها، إن نوراً يخمد في قلبها، وتنطفيء شموعه، الشمعة تلو الأخرى، حتي الأمل الوهمي الذي كان يجعل أمنيتها محتملة التحقيق، قد تبدد وتلاشى، وتسللت أحاسيس اليأس والحزن إلى أعماقها، ولم تعد تدري مما يدور حولها شيئا، وأُلقيَ بها بدون رحمة في مركزالدوامة، دوامة لا تُبقي جسدها كلاً متماسكاً، بل أجزاء ممزقة، تتقاذفها الرياح، والدنيا تراءت لها ألوانا وأصوات، أفكارا وخيالات، ملائكة وشياطين،

كلها أشياء متلاطمة، وشردت وشرد ذهنها، دامعة العينين، كسيرة الفؤاد، حتى أنها لم

تكن لتدري متى بدأت المحاضرة ومتى انتهت، إلا عندما قال لها كريم:

- هيا يا منال.. فلننطلق إلى الغداء.. في حي الحسين..

ولو كان الأمر بيدها لاعتذرت عن هذه الدعوة ومضت إلى البيت لكي تُلقي بجسدها على الفراش وتدفن رأسها تحت الوسادة، و تترك لعينيها فرصة البكاء قدر ما تشاء! حتى تجف الدموع ..

وتوجهوا إلى حيّ الحسين حيث يقيم أسامه، كان والد أسامه تاجراً ميسور الحال وقد جاوز الخامسة والخمسين من العمر، بدين قليلا، وقد غزا الشيب رأسه منذ سنوات،

وكان يبدو لمن يراه سليل أسرة تركية، فكان وجهه أبيض مستدير واسع العينين جميل الملامح، إلا أن زوجته، والدة أسامه متوسطة الجمال تميل بشرتها إلى السُمره، ضيقة العينين، لا نستطيع أن نقول أن أنفها دقيق، إلا أنه لم يكن كبيرا، ولكن لم يكن يعوزها رقة أو طيبة، بل كانت ودودة مبتسمة العينين والشفتين دائما، وكان من الغريب أن يرث الأولاد جمال الأب، وترث البنات ملامح وسُمرة بشرة الأم، فكانت أخته فاطمه متوسطة الجمال، وقد اكتفت بالتعليم المتوسط، إلا أن الجمال لا ينحصر في الوجه والجسد بل يتعداهما إلى العقل والروح،

فكانت لطيفة، قوية، طيبة القلب، تتحلىّ بمكارم الأخلاق، ولم تكن أخته خديجه أوفر حظا من فاطمه في التعليم ولا في الجمال.

وكانوا يقطنون عمارة رقم 8 في حارة القزازين قبل الحسين مباشرة للقادم من جهة الدراسة إلى اليمين بمحاذاة مسجد الحسين، أما حارة القزازين، فكانت نموذجا أصيلا لتصميم و لشكل الحارات في حي الحسين، فقد تراصّت البيوت على الجانبين، يفصلها عن بعضها شريط ضيق من الأرض لا يتعدى في بعضه عن مترين وفي البعض الآخر مترين ونصف، تكاد تسده عربة يد، وهاهي بيوته تكاد مشربياتها تتلامس

ودكاكينه الصغيرة في تلاصقها وزحمتها كخلايا النحل، والتراب يغطي أرضاً مليئة بالحفر، فيتحول وحلاً بمجرد تساقط بعض الماء

أو المطر، والمقاهي التي امتلأت أناساً لا يشغلهم إلا تدخين"النرجيلة ولعب النرد والدومينو، وتناول الشاي والقهوة، كل الوقت يقضونه في الثرثرة واللعب! بينما هناك الكثيرمن البطون الجائعة والأيدي الممدودة والعيون المتوسلة حول الحسين وفي كل الشوارع والحارات المحيطة به، كما كانت النسوة يرحن ويغدين في الحارة، وقد اختفت

أجساد أغلبهن وراء ملاءات اللف السوداء، بعضهن سافرات وبعضهن منتقبات.
وكان أسامه دائم التفاخر بمأكولات مطاعم حي الحسين التي لا مثيل لها في أي مكان آخر، فهنا أشهى طعمية وألذّ فول مدمس وأطعم كباب وأمتع كوارع وأحلى لحمة رأس.
وتراصّت على الجانبين دكاكين العِطارة والبقالة، صالونات الحلاقة، والخطاطين وبازارات منتجات خان الخليلي والآثار المُقلّدَة والتحف، كما اصطَفّ ماسحو الأحذية على الرصيف في جانبي الطريق الضيق.وفي العقار رقم 8 إلى اليسار إرتقى

أسامه وأصدقاؤه الدرج صعودا إلى الطابق الثالث حيث كانت الأم تستقبلهم في ترحاب ومودّة.

وكانت حجرة الإستقبال واسعة، منسَقة الأثاث، وقد تجمَّلت النوافذ بستائر جاءت ألوانها متناسقة مع ألوان البساط الفاخر وألوان القماش الذي كُسيت به كراسي الصالون الذهبي، كما استقرت في أحد الأركان أصيصة فخارية كبيرة ملونة، إحتوت أزهاراً رائعة تم إختيارها بعناية، من زهور البيتونيا البرية، كما كانت الزهور تملأ عتبات النوافذ من زهورالبورتولا الصغيرة والبيجونيا التي وضِعَت بعناية في أواني

الزهور البلاستيكية، وفي ركن آخر إستقرت أباجورة كبيرة فوق طاولة مرتفعة قليلا، كما عُلقت في السقف "ثريا" أضاء كريستالها وتلألأ توحي بذوق رفيع وسعة في العيش، وأما الحائط المواجه للأريكة الكبيرة، فقد عُلِّق

عليها إطار رائع الصنع، لبعض الآيات من القرآن الكريم، كانت قد تم تطريزها بالصَدَف، مما زادها تألقا وجمالا، وطعِّمت حولها بالنحاس مثل منتجات خان الخليلي، وفي الوسط من الغرفة استقرت طاولة جميلة من الخشب الموشى أيضا بالصَدف، وضِع فوقها قطعة رائعة من الرخام.

وجاء الطعام، كانت أهم الأصناف التي قُدّمت هي "المكرونة بالبشاميل"والغريب أن أول مرة يأكل فيها مدحت المكرونة بالبشاميل كانت هنا عند أسامه! وآخر مرة أيضا، وكان يحبها كثيرا، ولذا كانت أم أسامه في كل مرة يتناول فيها الغداء لديهم كانت تُعِدّ له هذا الصنف الذي أحَبّه والذي لا يتناوله إلا هنا! أما في بيته فلم يكن مدحت يشتهي أي صنف من أصناف الطعام أو الشراب، فقد اعتاد أن يأكل الموجود من الطعام وكأنما يأكل فقط ليسد جوعه ويفي بحاجة معدته للطعام، فلا تذكر أمه أنه طلب منها يوما أن تُعِد له صنفا معينا من ألوان الطعام المختلفة، وكان

أصدقاء مدحت يرون في هذا عُزوفا عن الدنيا وزُهدا وهي صفة كانوا يحبونها من صفاته الجميلة العديدة، ومما اشتهرعنه أيضا عزوفه عن النساء، فلم يكن يرى في البنات من حوله إلا الزميلة في الجامعة أو الجارة أخت صديقه، أو إبنة الحيّ، أما الفتاة الأنثى التي يرى فيها الشباب وجمال الجسد وسحرالعيون، فلم يكن يشتهيها كما يفعل معظم الشباب، لم يكن ذلك عن حياء أو خجل ولكنه التزام واحترام،احترام لنفسه وبنات جيرانه وأخوات أصدقائه، وزميلات الجامعة أو الكلية، فلا علاقات، ولا مغامرات نسائية، فتاة واحدة هي التي استطاعت، وفي غفلة

منه أن تتسلل إلى قلبه وعقله، هي عفاف، إلا أنها لم تستطع أن تجعل عقله يغير من طباعه المغلقة الصامدة أمام أية علاقات نسائية قبل أن يحقق المستقبل المنشود لكي يكون جديراً بالزواج والإرتباط الآمِن مِن غوائل الزمن، فحسْبُه نفسه وأسرته من المعاناة والبؤس الذي لا يتمناه لأولاده، ولزوجته، حتى

أن الجيران كثيرا ما كانوا يطلقون عليه "الشيخ مدحت". وعلى ضيق ظروفه المادية، ورغم ضيق ذات اليد بالنسبة لأسرته، ربما تمنته كثير من الأُسَر زوجا لإبنتهم، بعد أن يتخرج، فقد كان مثالا للخلق الكريم، والسيرة الحسنة، ومثالا للزوج كما تتصوره الطبقة

المتوسطة، لم يكن مدحت يعتد التردد على المَقهى، ولم يكن من المدخنين قط ولا يقرب الشرب، وكان بالطبع كغيره من الجامعيين ينتظره مستقبل عريض مضمون، وربما حاولت بعض الأمهات أن تغزِلن حوله شبكة الزواج، فيغضضن البصر،حول محاولات بناتهن الجلوس إليه، واستدراجه لأي نوع من العلاقات، إلا أنه لم يكن ليسمح لنفسه أن يُقْدِم على أي نوع من المغامرات معهن أو أن يقَدِّم لهن الوعود بالزواج أو حتى الإرتباط.

وكانت أم أسامه صديقه أُمّ ، مثل غيرها من الأمهات، فلا بأس أن تفكر مثلهن في شأن زواج بناتها، ولذا، وبعد تناول الشاي،

استدعت أم أسامه مدحت، في غرفة أخرى متعللة بأنها ترغب في أن يُصلح لها شيئا فإن إبنها أسامه لايُصلح في البيت شيئا إذا فسد، وفي الحقيقة لم يكن لديهم في البيت شيئا في حاجة إلى إصلاح، بل كانت ذريعة تتذرع بها أمام باقي الضيوف! وأجلسته قائلة:

- تفضل يا مدحت.. إجلس.. إنما أردتُ أن أدردش معكَ قليلا..

فجلس وقال وقد حار فكره:

- خير يا أمي.. تحت أمرك..

وكانت قد استقرت في المقعد الذي يجاوره، وبدت كمن تتنازعها الأفكار، أفكار تدفعها

إلى الإقدام، وأفكار تصدها، فلا تتحدث، وتمتمت في همس، وهي تتحامى عينيه:

- يا إلهي.. ما أصعب الموقف.. ما أصعب الموقف..

وانعقد لسانها حياء و خجلا، ولكن ثمة ما كان يدفعها دفعا، أن تُنهي ما جاءت بمدحت من أجله، فقالت في خجل شديد:

- تعلم يا مدحت أن أسامه يحبك كثيرا، ويشيد بنبلك وأخلاقك، وإن لك والله لمكانة عظيمة في نفوسنا جميعا أهل البيت.. بعد أن لمسنا من سلوكياتك وأفكارك والتزامك بالدين طوال أربعة أعوام هي سنوات الجامعة مع أسامه..

وكان مدحت يسمع إليها ولا يعرف بماذا يرد على هذا الثناء، ولايعرف حتى أسبابه، ولا إلى أين يقوده، قال في حيرة:

- أنتم الأحسن يا أمي.. ولقد نِلتُ كل الشرف بالتعرف عليكم وعلى إبنكم أخي وصديقي أسامه..

قالت الأم، وقد تلعثمت وتاهت الكلمات منها وصعد الدم حتى بلغ رأسها وكست حمرة الخجل وجهها:

- لا أعرف والله يا مدحت.. كيف أقولها لك!

وسكتت لحظات، كانت لها كأنها الدهر، ثم أردفت، وهي خافضة الرأس:

- إن المَثَل يقول "أخطب لإبنتك ولا تخطب لإبنك" أليس كذلك؟

وصَمَت، فهو أيضا لا يعرف شيئا مما تقول، وشعرت أنه عليها أن تكمل، قالت وكأنها عزمت على أن تقولها وتتوكل على الله!

- هل أنت خاطب يا بني.. أو تقدمت لطلب يد فتاة ما؟ أو مرتبط بشكل أو بآخر؟

وهنا وضح الأمر، وعرف مدحت ما يجعل الأم تتصبب عرقا، وتتكمش على نفسها، وتريد لو تميد بها الأرض، فأشفق عليها وعلى أمومتها، قال في تأدُّب كبير، وبصوت

ناعم يليق بمخاطبة هذه الأم التي ترغب في سُترة إبنتها:

- أبداً يا أمي.. لم يحدث.. فلم أتقدم لخطبة فتاة ما.. كما أنني لستُ مرتبطا..

وحتى يجنبها المزيد من الإحراج، فلا تسترسل في حديثها عارضة إبنتها عليه للزواج، فقد استتلى معللا:

- ولا أُخفي عليكِ يا أمي.. كما لم أخفِ على أسامه.. إن الوضع المادي لأسرتي.. لا يسمح لي.. الآن.. بمجرد التفكير في الزواج..أوحتى الإرتباط

فإن لي أخت في سن الزواج وعليّ أولا أن أنفق على زواجها، كما أنه عليّ أن انتهي من أداء فترة التجنيد ربما عام وربما أكثر.. لا أدري على وجه الدقة.. لِكَم من الشهورستدوم فترة التجنيد.. ومتى أخرج من الجيش..وهناك أمي..لأنفق عليها وأعوِّض عنها سابق الأيام.. ولو أنني لا يجب أن أتجاهل جهود أخي مدحت في مساعدة أمي قدر استطاعته.. ولا شيء غير هذا.. يدعوني إلى نسيان فكرة الخطوبة أو الزواج في الوقت الراهن.

وتنفست الأم الصعداء، وزال عنها الكابوس الذي كاد أن يُطبِق على أنفاسها، ويوقف ضربات قلبها، وقد شَعَرَتْ في هذه اللحظة بمقدار ما يحمله هذا الفتى من نُبل وطيبة وأخلاقيات، وحمدت الله أنها لم تكشف له عن مكنون صدرها، وإلا لكان الموقف الرهيب المُحرج الذي كانت تود أن تتلافاه وتتجنبه، قالت، وقد عادت الدماء تجري في عروقها وعادت إليها ابتسامتها التي فارقتها طوال هذا اللقاء:

- إن شاء الله يا بني.. سوف يعطيك ربك ما تستحق.. طالما كان لك هذا الهدف

الجميل من مراعاة أمك والمساعدة في زواج أختك، فلن يردك الله خائبا ..

واستأذن منها، وطلب عفاف مستعينا بموبايل أسامه، وأخبرها أنه سوف ينطلق بعد دقائق معدوده من الحسين إلى موقف الحافلات..

وفي الحافلة، جلس مدحت إلى جوارعفاف في صمت، فقد أرسل نظراته عبر النافذة يشاهد الصحراء ورمالها ويمتد بصره إلى نهاية المشهد هناك عند الأفق حيث تتماس خطوط الرمال والسماء، وقد مالت الشمس إلى المغيب وانحدرت وراء الأفق، وقد

أرسلت إلى الأرض هذا المشهد الرائع بأشعتها الذهبية التي تتلألأ متدفقة باعثة دفأها إلى القلوب، زجاج النوافذ سليم، وقد أُسدِلت عليه الستائر، هكذا .. لفت زجاج النوافذ غير المكسور انتباة مدحت والمقاعد نظيفة بلا أتربة، غير ممزقة، فلا يطل الإسفنج الذي يبطنها من تحت الكسوة الجلدية التي تغلفها، وقد اختفت "القفف" من المشهد، إلا أن شيئا أخر جعل مدحت يبتسم

فقد رأى تحت النافذة على جدارالحافلة بعض الكلمات كُتِبَتْ بالأقلام الحبر الجاف أو بالألوان مثل: للذكرة "هكذا كُتِبَت الكلمة" الخالدة، كما رُسِم إلى جوارها قلب وفي

داخله نُقِش حرف "أ" في الجهة اليسرى منه وحرف "س" في الجهة اليمنى

ونظر مدحت إلى عفاف ولا زال مبتسما قائلا:

- سوف تندهش أمي اليوم عند عودتي من القاهرة..

فابتسمت لابتسامته وتساءلت:

- ولم الدهشة؟

قال .. وهو يشير إلى شعره وملابسه:

- لن ترى شعري مغبّرا! ووجهي وملابسي غير مكسوة بالتراب! وتحولت ابتسامة عفاف، إلى نظرة إشفاق وأسى، قالت:

- لم تعد إلا أيام.. وتتخرج.. وتنتهي هذه السلسلة الجهنمية من العذابات والمعاناة ..

وصمتت عفاف بعض الثواني، ثم أردفت، وكأنها تستحث مشاعره أو توقظها من سُباتها:

- سوف تنسى القطار.. وأيام السفر.. وتنسانا جميعا..

فنظر مدحت إلى عينيها مباشرة، وكان وجهه باسما، وشفتاه باسمتان، وكأنه كان يريد أن يقرأ في عينيها ما تريد أن تقول، وإلى أي اتجاه، ترغب في تحويل الحديث، قال ولا زال يحدق في عينيها:

- قد أنساكِ .. ولكنني لن أنسى عم رمضان.. والدك.. إنه بمثابة والدي كما لن أنسى والدتك، فإنني أعتبرها أمي الثانية وإنني أحبهما كل الحب، إنني ألمس فيهما بساطة رائعة، وحين أجلس بينهما أجدني مشدودا إليهما لطيب مجلسهما وطيب حديثهما..

فقالت بخبث وقد اتسعت ابتسامتها:

- رويدك.. رويدك.. وماذا إذن عن إبنتهما؟

وكانت كلماتها مفاجأة ألجمت لسانه، نظر إليها في دهشة، وظل صامتا، وأدركت في التوّ تسرعها وخطأها، وأنها قالت كلمات ما

كان لها أن تقولها، وأفشت بشيء ما كان لها أن تفشي به، واستدركت بسرعة قائلة:

- أقصد.. وأين إبنتهما من كل هذا؟

ومرة أخرى صمت، واكتفى بالنظر إليها، إنها مرتبكة، وها هما عيناها تنطقان بما يخالج صدرها، ومرة أخرى أحست أنها أخفقت في اختيار كلماتها، فأحيانا ما يُصلح الإنسان خطأ بخطأ، قالت في إرتباك جلي، ظهر في لغة جسدها، فقد راحت تحرك يديها حركة عشوائية لا تعني شيئا:

- عمك رمضان.. والدك! وأمي هي أمك!

- أكيد!

- فأنا أختك إذن ..

فقال لها يبادلها مكرا بمكر وقد ضحك بصوت مسموع:

- تعلمين قدر حبي اللا نهائي لأختي.. ألا تفضلين أن تكوني أختي؟ إن حبي لهما لا يضاهيه حب..

وران صمت لفترة غير قليلة وكأنّ على رأسيهما الطير! قال مدحت بعدها بنبرة جادة:

- أريد أن أقول لكِ شيئا يا عفاف ..

- أرى فيما تريد أن تقول.. شيئا جادا.. علّه خيرا يا مدحت

قالت هذا لما استشعرته في صوته من جدية وعمق، فقال بنفس النبرة الجادة:

- صديقنا سمير الخضري ..

ونظر إليها، ولم تعلق بشيء في انتظار التوضيح، واستتلى:

- إن لكِ عندي رسالة شفهية منه..

واندهشت، و قد عبّرت كلماتها عن هذه الدهشة.. فتساءلت:

- أية رسالة هذه؟! ولماذا تجهّم وجهك وبدت عيناك جادتين؟

- إنه يريد أن يتقدم لوالدك.. طالبا يدك للزواج، ويريد أن يعرف رأيك في هذا الأمر، قبل أن يُقدِم عليه، فقالت .. وقد زال عنها القلق:

- لقد أقلقتني يا مدحت.. أهذه هي الرسالة.. وهذا هو الموضوع؟ وأنت.. فيم كان القلق الذي بدا عليك.. والتجهم.. والنبرة الجادة؟

وتمعنت في وجهه، وكأنها تروم سبرغوره، واستشفاف ما يربكه ويقلقه، قال مدافعا عن نفسه:

- لم ألاحظ شيئا من هذا التجهم على نفسي!

قالت وقد كان يهمها كثيرا أن تعرف رأيه ..

- لا أفهم.. ما رأيك أنت؟ بماذا تريدني أن أجيبه؟

وأسقط في يده، ولم يحر جوابا، صمت، وصمت، وكان يقلب الأمر على مختلف جوانبه، وكل وجوهه، في سرعة خاطفة، في صمت، فعليه أن يختار ما يمكنه قوله وما يصح الإفصاح به وتؤمَن مغبته، ولقد هَمَّ أن يقول لها "لا أستطيع أن أتدخل .. وأن هذا الموضوع لايخص أحدا في الدنيا سواكِ" إلا أنه آثر الصمت،

إنه يعرف جيدا أن من تتعلق به إنما تتعلق بخيوط الأوهام! إنه الصدق اللا متناهي مع الذات، والذي هو جزء من طبيعته، وكان صمته، هو أكثر ما أحزنها

بل أن صمته وقع من نفسها موقعا أليما، وسرعان ما عاد إليها القلق، قالت بصوت ممزق، وقد غلف الحزن كلماتها:

- كنت أعتقد يا مدحت، أنك آخر شاب في الدنيا، قد ينقل لي مثل هذه الرسالة البائسة، من إنسان يرغب في الزواج بي ..

ولمعت عيناها بدمعة تترقرق فيهما رغما عنها، وأردفت مندهشة متألمة:

- وكأن ما جاء بها .. لا يعني لك شيئا!

وحارت الأفكار في رأسه، ولاذ بالصمت مرة أخرى، وتصارعت أفكار وأحلام الماضي مع ظنون الحاضر، وكان ميدان هذا

الصراع، هو رأسها الصغير، وشعرت أن الدنيا تدور بها، وكاد يصيبها الغثيان، وألقت رأسها للخلف، وتركتها تستقرعلى مسند المقعد بينما تركت لعينيها الوقت كافيا لتمطر كل ما كان لديها من دموع! وغرق قلبها في خيبة أمل صادمة فبكى، بكى بكاء مريرا! وأدركت، والأسى يملأ صدرها، أن أملها قد انطفأت شعلته ربما إلى الأبد، لقد أطاحت بها رياح الصمت - صمت مدحت - البلهاء! ولم تكن في حياتها أشد تعاسة وحزنا، مما هي عليه الآن، في هذه اللحظة! ولم تكن عفاف تدري شيئا عما حولها إلا في صباح اليوم التالي عندما استيقظت، وهي تشعر بانقباض

داخلي، وخوف يملأ كيانها ويهز أعماقها، وأخذت تتذكر أحداث الأمس، فلم تكن تدري متى وصلت الحافلة إلى الفيوم، ولا كيف أوصلها مدحت إلى البيت، ولا متى غادر إلى بيته، وبرغمها، تسرب إلى نفسها شعور بالحزن، وكانت خائفة، خائفة من شيء ما، خائفة حتى الموت! وقد امتلأت نفسها بكل أشباح القلق والرعب.

وفي طريقه إلى البيت، كان مدحت مهتما بها مشفقا عليها، إلا أنه يعرف ظروفه جيدا، ويقدِّر مسئوليته الأخلاقية تجاهها، وما كان ليخدعها إطلاقا مهما كان السبب، وعندما وصل إلى البيت، فتحت سميحة الباب،

وكعادتها معه، ألقت بنفسها في حضنه وقبلته صائحة مهللة:

- إنه أخي مدحت يا أمي ..

وتناهى إلى أذنيه صوت أمه تقول:

- تعالى يا مدحت.. إنني هنا..

وعلى التو اتجه إلى الصالون، حيث مصدر الصوت، لم يكن لديهم ضيوف، إلا أن الأم كانت تجلس على الحصيرة التي فُرِشت على الأرض، مال إلى يد أمه، ورفعها كما اعتاد أن يفعل وطبع عليها قبلة طويلة حانية، ثم ألقى ظهره على الحصيرة بمحاذاة والدته ثم جعل رأسه تستقر في حجرها وأخذ راحة يدها ووضعها على رأسه قائلا:

- دلكي لي شعري يا أمي.. وفروة رأسي..

إنه يحب هذا كثيرا، منذ كان طفلا، وتساءلت أمه في دهشة وابتسام:

- أين التراب يا مدحت؟ أين ذهبت به؟ إن شعرك غير مغبراليوم وكذلك وجهك وملابسك..

فقال مدحت ضاحكا:

- تخيلي يا أمي.. لقد قلت هذا لعفاف..

وأخذ يحدثها عن كل أحداث اليوم، من الماكرونه بالبشاميل، إلى عودته من القاهرة بالحافلة.

وبينما كانت أصابع الأم تعبث بشعره وتداعبه كانت أفكاره تبدو وكأنها موجة صغيرة في محيط هائج يعبث بها التيار في قسوة وقهر ولا حول لها ولا قوة، فماذا يفعل مع منال؟ هذه الفتاة الرائعة، إنها تنتظر منه كلمة واحدة، ولكن هيهات، فإن الرجل الذي يعيش عالة على زوجته وأسرة زوجته أبعد ما يكون عن مدحت وطباعه وشخصيته، وماذا عن عفاف؟ إنها لا تَقِل حظا من الجمال عن منال، وحدّث نفسه..

"إن حديثي عن سمير قد أحزنها.. ماذا عليّ أن أفعل؟ إنني لا أستطيع أن أعطي وعودا لا حيلة لي في تنفيذها، إنهما تعلمان جيدا كل

ظروفي، لا أستطيع .. لا أستطيع ..وحاول مدحت أن يتجنب الإنفراد بعفاف في مكان واحد بدون تواجد باقي الزملاء، وهو نفسه ما فعله مع منال، حتى آخر يوم من أيام الامتحانات.

الفصل الثالث عشر

يوم في الفيوم

بعد فرح صفية، عرفت الفرحة طريقها إلى قلعة الكبش، وما حيّ قلعة الكبش إلا نموذج للكثير من العشوائيات، التي انتشرت في مصر، في مناطق كثيرة خرجت عن سيطرة التنظيم والتخطيط للمباني السكنية حتى أصبحت مشكلة يصعب حلها والتعامل معها.

وكان موضوع العشوائيات هو مجال إهتمام الطلبة من أصدقاء أمل وفرح في الكلية، فكانت فرح لها إهتمامات شخصية بظروف السكان في العشوائيات بصفة عامة، وبصفة خاصة حي قلعة الكبش نتيجة إرتباطها بعلاقة صداقة مع أمل وعلي والعديد غيرهما من الشباب والفتيات في هذا الحي، قالت فرح:

- إن هذه المناطق تسجل معدلات انجاب ووفيات مرتفعة.. نظراً لسوء الرعاية الصحية أوانعدامها، ولجوء الأهالي إلى الوصفات الشعبية والأعشاب للعلاج، كنوع من أنواع الطب البديل..

- وهم لهم العذر.. كل العذر في ذلك.. حيث لا يستطيع معظمهم تحمل تكاليف العلاج في المستشفيات أو العيادات الخاصة..

- وهناك أسباب أخرى لزيادة ارتفاع معدلات الوفيات غير نقص الرعاية الصحية، فهناك سوء وتدني مستوى المعيشة، كما يضاف إلى ذلك عنصر آخر، ألا وهو كثرة المشاحنات البدنية واستخدام الآلات الحادة، وهو الأمر الذي يترتب عليه قتل أحدهم، ودخول السجن للطرف الآخر..

- ويرجع ذلك إلى الجو النفسي المشحون الذي تتسم به هذه المناطق..

حتي الأطفال اختفت الإبتسامة من وجوههم.. لتحل محلها هموم البؤس العميقة

التي هي أكبر من أعمارهم.. فهاموا على وجوههم وتشردوا.. وباتوا مهمشين في الأرض.. قنابل موقوته تهدد الأمن.. تهدد السلام الإجتماعي.. تهدد بجرائم القتل والبلطجة والإرهاب..

- أما عني.. فإنني أرى أن وجود هذه الأحياء في مصر.." مصر" لهو كارثة يندي لها الجبين.. وينفطر لها الفؤاد!

- صدقت والله.. فنحن لا يجب أن ننسى أننا أحفاد عبد الناصر.. وقوانين يوليو الإشتراكية.. والعدالة الإجتماعية..

- ومع ذلك.. أنظروا إلى أين وصلنا..نساء ورجال..أطفال وشيوخ.. يعيشون على الهامش البائس.. في دائرة النسيان الجهنمية.. محرومين من أدنى حق للحياة الكريمة.. يعانون من الجهل..والمرض.. والفقر.. والأمراض النفسية.. والبؤس.. في بقعة من مصر"من مصر" احتوت كل السمات غير الحضارية والمشاكل الإقتصادية والإجتماعية..

- الخوف هو أن نتيجة وجود ثقافة الفقر.. وعدم القدرة على مجاراة العالم الخارجي.. من ناحية الإمكانيات الجبارة ومستوى المعيشة المرتفع.. قد يتولد لدى هؤلاء المقهورين.. الشعور بالعدوانية وخلق شخصية غير سوية لديها إحساس بإتهام هذا العالم الخارجى وهؤلاء الأغنياء الجدد بأنهم سبب مباشر لما هم فيه من معاناة رهيبة.. فيتولد لدى هؤلاء الإحساس بالغربة الإجتماعية.. الذي يتحول بعد ذلك إلى الإستعداد الكامل لاستخدام العنف ضد المجتمع الخارجى.. والميل

الشديد للإنحراف نتيجة كل هذه الظروف الحياتية التي تحيط بهم.. ونتيجة إحساسهم بالظلم الفادح الواقع عليهم.. وخاصة في ظل عدم وجود توعية إجتماعية أو دينية..

- ولكنني لست معك في هذا التحليل..فهم لا يعرفون هذه الآلية .. ولا يفهمونها.. ولا يحللون أوضاعهم هكذا..

- إنهم لا يعرفون هذه الآلية .. هذا صحيح.. إلا أنهم سيصبحون هكذا..

- ومن المؤكد أنه سوف تتولد بيئة مناسبة للعنف والإرهاب..

- أو حتى على أقل تقدير..ألا يفرز ذلك شريحة إجتماعية ذات مستوى إنتاجى وإقتصادى وإجتماعى متدني جداً.. لديها كل الأسباب للتوجه نحو تدمير المجتمع المحيط بهم..
- خاصة عندما يكتشفون أنه لا عائد عليهم من ارتفاع معدل النمو.. أو معدل التنمية..
- نعم.. هذا صحيح.. ولتذهب نظرية "تساقط الثمار" إلى الجحيم..فلا تساقط ولا ثمار..
- على العكس.. فلم يتساقط على رؤوس الفقراء إلا المصائب.. والآلام..

- ...

مجموعة من الطلبة يدركون قضايا بلدهم، مهمومون بمشاكلها، بعضهم من سكان العشوائيات، يقيمون في قلعة الكبش.

عرفت الفرحة أخيراً طريقها إلى قلعة الكبش، وانطلقت الزغاريد من"عشة" أبو علي، أجل، "عشة" فمن ذا يجرؤ على أن يسميها "بيت" فهي عبارة عن باب يخفي وراءه بعض الجدران غير المسقوفة، وحصيرة ملقاة على الأرض، وبعض المتاع التي أهلكها الصراع مع الزمن، وبعض الكراتين التي حلت محل دولاب الملابس، وربما لأن هذه الملابس القديمة لا حاجة بها إلى دولاب! الشيء

الوحيد الذي يستحق الإهتمام في هذه "العشة" هو وجود الكثير من الكتب في مجالات كثيرة، القرآن الكريم، علم الإجتماع، الفلسفة، الأيام لطه حسين، مؤلفات للعقاد، عبد الرحمن الشرقاوي، توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، تولستوي، ديستوفسكي، أرنست هيمنجواي، ديكارت، سارتر، وتشارلز ديكنز، وحتى كتاب رأس المال لكارل ماركس، تراصت هذه الكتب باهتمام في بعض الكراتين.

وانطلقت الزغاريد من بيت أبو علي، وكأن الجميع يبحث عن أي فرصة، وأي مناسبة، لكي يفرح ويسعد ولو لبعض الوقت،

وسرعان ما إمتلأ المكان بالجيران أطفالاً ونساءً وشباباً، يسألون ويتساءلون:

- خير يا أم علي! الله يسعدكم كمان وكمان ويكتر أفراحكم.
- علي.. الحمد لله نجح النهارده.. وأخد البكالوريوس.. وأخته أمل.. الإثنين نجحوا.. الحمد لك يارب.. تَعَبنا وصَبْرنا جه على فايدة..
- ألف مبروك ..
- ألف مبروك ..

وجاءت البنات بالطبلة، واحتشد الجميع أمام بيت أبو علي وشكلوا دائرة، وفي داخلها بدأت بعض البنات في الرقص، على دقات

الطبلة المتعطشة للفرح والسعادة، واستمر الطبل والرقص والغناء حتى أرخى الليل سدوله، وقضى الجميع يوماً جميلاً ، وسعدت فيه قلوبهم بنجاح علي وأخته أمل..

- أين محمد ياعلي؟ ألم تلاحظ أنه لم يحضر؟ إنه لم يتناول معنا طعام الغداء..

قالت أمل ذلك لأخيها علي، بعد أن أقلقها غياب محمد في هذه المناسبة..

- لقد قرر أن يذهب إلى قبر والده ووالدته لكي يخبرهما أنه قد نجح وحقق أغلى أمنية لهما في حياتهما.. وحصوله على الشهادة التي كانت

هدفهما وأمنيتهما طوال حياتهما.. ويقرأ لهما الفاتحة..

- مسكين محمد.. لقد أثر فيه غياب والده.. ثم غياب والدته..

- لعلنا نستطيع أن نقف بجواره حتى يخرج من هذه المحنة سالما!

- أكيد سوف نفعل.. هيا بنا نبحث عنه..

- سوف أذهب أنا لأجده.. ولتبقي إلى جوار أبي وأمي.. فقد يحتاج أيّ منهما إليك..

- سوف أستأذنهما.. وأذهب معك..

- في إنتظارك..

وطلب منها الأب والأم ألا يتركا محمد وحيدا، فقد يكون في حاجة إليهما اليوم.

- أين تعتقد أننا سنجده يا علي؟

- ربما على نفس الصخرة التي اعتاد أن يجلس فوقها.. فلنذهب إليها أولاً.. وعلينا أن نسرع..

- ربما يكون هناك فعلا ..

و صدق حدس علي، فها هو محمد يجلس باكيا فوق الصخرة، يلفه الظلام، كما يلف قلبه الحزن والألم!

- ها أنت يا محمد..

بادره علي.. وأردف:

- أنت تجلس هنا.. بينما نبحث عنك..

وقالت أمل:

- كان الجميع سعداء اليوم يا محمد..

وكانت قد اقتربت منه أكثر، فلمحت دموعه تلمع في عينيه، وهو يحاول أن يمسحها، فقالت في نبرة أسى:

- ماذا؟ هل تبكي يا محمد؟

- لقد عاشا حياتهما ينتظران هذا اليوم يا أمل..

وأردف وهو يمسح دموعه:

- لم يمنحهما العمر الفرصة أن يحضرا اليوم الذي عاشا من أجله.. كيف لا أبكي.. لقد تركاني وحيدا في هذه الحياة

المظلمة الموحشة .. كيف لي أن
أتحمل ذلك..

ويبدو أن أمل لم تتمكن من السيطرة على مشاعرها، فدمعت عيناها، وقالت:

- ولكنك لستَ وحدك يا محمد..

وقال له علي وهو يمد له يده يساعده ليقفز من فوق الصخرة التي يلازمها طول الوقت:

- هيا يا رجل.. وإلا جعلتنا نبكي هنا للصباح ثلاثتنا.. فلم تكن أم محمد أمك وحدك.. ولقد أحببناها جميعا..

وقفز محمد، وتساءل:

- إلي أين؟

- إن أبي وأمي ينتظراننا حتى نتناول العشاء معا.. فرحة بهذا النجاح لنا جميعا..

قال علي ذلك، ثم أردف:

- مبروك يا محمد.. أعتقد أنه لم يبارك لك اليوم أحد..

- الله يبارك فيك يا علي.. ألف مبروك لك ولأمل..

قالت أمل:

- وبهذه المناسبة السعيدة.. فسوف أُعِدّ أنا بنفسي عشاءً فاخراً هذه الليلة.. وأنت تعلم مدى جمال..

وكان محمد قد بدأ يخرج من حالته النفسية السيئة، وقاطعها قائلاً:

- لأ.. الله يرضى عليك يا أمل.. لا تفعلي.. فنحن نرغب في أكلة من يد أمي الثانية أم علي..
- ماشي يا عم.. ربنا يخلي لك الست أم علي..وعلى فكرة.. لقد رتبت موضوع سفرنا غداً إلى الفيوم مع كل الأصدقاء..
- نعم.. ستكون هذه الرحلة جميلة وخاصة بحيرة قارون ووادي الريان ..
- وطبعاً باقي الزملاء سيكونون في إنتظارنا..

- أكيد سوف تنتظرنا عفاف ومدحت ومنال وكريم لاستقبالنا في الفيوم..

- سوف يكون يوماً رائعاً.

- لا شك أن مدحت يطير فرحاً.. لقد حصل على تقدير عام إمتياز..

وجاء ترتيبه الأول على الكلية..

- إنه يستحق التوفيق.. فهو أكثر من كافح طوال الأربعة أعوام .. كما أنه إنسان ذكي فعلاً..

و في اليوم التالي لم يتخلف أحد من الأصدقاء، وكان بسطويسي قد علِمَ من فرح بنجاحهم، وأنهم قد عزموا على قضاء يوم جميل في الفيوم، فقررأن يكون هذا اليوم في

ضيافته، تكريماً لفرح وفاتن من جهة، ومن جهة أخرى، عرفاناً بالجميل لمدحت الذي كان سبباً في تغيير مجرى حياته.

وفعلاً، كان يوما رائعا، حُفِر في ذاكرة الجميع، وكانت هذه هي المرة الأولى

التي تزور فيها فاتن الفيوم،وكان لديها الوقت متسعاً مع مدحت لكي يحدثها عن

الفيوم، قال:

- تمتاز محافظة الفيوم عن سائر محافظات مصر بمناخها المعتدل طوال العام.. وبتاريخها العريق الذي يمتدّ إلى ملايين السنين..فقد بدأت الحضارة بها منذ العصر

الحجري..كما أنها المحافظة الوحيدة التي تضم بحيرتين هما بحيرة قارون ذات المياة المالحة والتي تعتبر من أقدم الآثار الطبيعية في العالم.. وبحيرة وادي الريان ذات المياة العذبة.. وبها الشلالات الدائمة الوحيدة بمصر..وبها وادي حيتان الذي يحتوي على هياكل حيتان عمرها 40 مليون سنة.

ودّ الجميع لو يعودوا في رحلات إلى الفيوم تغسل القلوب، وتبدّد الهموم، ووقف كريم وأسامه يطلبان من الجميع الإنصات لهما، فسوف يعلنان خبراً سعيداً على الجميع، وحاولت منال أن تسبقهما في إعلان الخبر،

إلا أن أخاها كريم وضع يده على فمها مازحاً، وطلب منها أن تترك الفرصة له ولأسامة لإعلان الخبر، قال أسامة في فرح وسعادة:

- أعلن لكم جميعاً أن خطوبة أختي فاطمة وصديقنا العزيز كريم.. يوم الخميس من الأسبوع القادم إن شاء الله.. وطبعاً كلكم مدعون للمشاركة في هذا الحفل.. وأيضاً أرجو ألا يتخلف السيد بسطويسي وأسرته عن حضور هذا الحفل.. فما رأيكم في هذه المفاجأة الرائعة؟

وهلل الجميع لهذه المفاجأة السارة، وكثرت التعليقات، وأعلنت الزغاريد الفرحة الكبرى، بهذه الخطوبة التي أبهجت الجميع..

- ألف مبروك للعروسين..
- ومتى تقدمتَ يا كريم لفاطمة؟
- طبعاً.. لقد رتبتَ لكل شيء في السر أيها الخبيث..
- يا لكَ من إنسان محظوظ يا كريم..
- ونِعم النسب يا أسامة.. إن كريم والله شاب يستحق الخير..

وبعد انتهاء (الفرح) .. والاحتفالات ..طلب مدحت من كريم وهاله، بطريقة لا تنم عن تخطيط، ولا تشي بأن هناك نية مبيته، أن

يصاحبانه عندما هَمّ بتوصيل عفاف إلى بيتها، ولم يكن هذا التصرف يمر مرورالكرام على منال**!** التي قالت في نفسها:

" أموت واعرف .. لماذا فعل مدحت ذلك**؟"**

لماذا يحاول مدحت أن يتجنب الإختلاء بعفاف إلى هذا الحد**؟!**

بينما ترك هذا التصرف الذي أقبل عليه مدحت، الألم والأسى في قلب عفاف،

فلم يكن من الصعب عليها أن تدرك أن نية مدحت مبيتة على فعل ذلك، وأنه تصرُّف مقصود أن يرسل مدحت من خلاله رسالة لها، وأن هذه الرسالة معروفة لها جيداً، وهو ما أحزنها جداً.

الفصل الرابع عشر

عفاف في الكويت

كانت الطائرة قد أقلعت في طريقها إلى دولة الكويت، وقد أقيم على متنها احتفال للعروسين، عفاف وسمير، احتفال بسيط، ولكنه رائع، كان أصدقاء سمير في الكلية يعلمون أنه الإبن الوحيد المدلل لأسرة كريمة على قدر غير قليل من الثراء وأنه يمكنه أن يعيش في يُسر ورغد من العيش في كنف

أسرته في القاهرة، إلا أنه فضل أن يذهب بعروسه إلى الكويت ويعمل هناك، في الوظيفة التي تمكن أحد الأصدقاء من تأمينها له، في شركة البترول الوطنية الكويتية، وقد شجعه على اتخاذ قرارالسفر إلى الكويت، وجود الكثيرين من أصدقاء الجامعة، ومضى مدحت في طريق العودة، بعدأن أوصل العروسين إلى المطار وودعهما..

- هل أنت مبتهج هكذا؟ هل أنت سعيد بما فعلتَ بي؟ هل أنت مسرور بما فعلتَ بنفسك؟ إنني أعلم بما في نفسك.. وما هو كائن بداخلك أكثر مما تعتقد..

ها أنت ترى بنفسك إلى ماذا قادنا عنادك..

وقد انهمرت دموعها رغما عنها، فأخرجت منديلا ورقيا من حقيبة يدها، ومسحت دمعها، إلا أن شيئا فاجأها وأذهلها، فقد رأت الدموع تنهمر من عينيه، دون أن ينبس بكلمة، ناولته منديلا، وقد أدركت أنه ليس عليها أن تضغط على أعصابه أكثر من هذا، كما شعرت أنه إنما يتألم أكثر مما تتألم، قالت له في مواساة وشجن:

- إمسح دموعك.. فلم تَعُد تُغْني عنا شيئاً..

وصمتت ثواني، ثم أردفت في استسلام:

- على أية حال.. علينا أن ننسى.. فلم أعد ملك نفسي.. الوداع!

كانت هذه هي أخر كلمات سمعها من عفاف بينما كان سمير منشغلاً بنقل الأمتعة، ووضعها على السيرالمتحرك لنقلها إلى نقطة تجميع الحقائب، لنقلها إلى بطن الطائرة، حيث تستقر حقائب الركاب ..

لم تكن عفاف تعلم أن كلماتها إنما هي سكين حادة، راحت تمزق قلبه تمزيقا، وأنها عندما غادرت، إنما غادرته معها روحه، كما لم تكن تعلم أنها عندما ودعته وخلا لنفسه، أجهش بالبكاء، إلى حد أنه لم يكن يدري من حوله شيئا واعتصره الألم حتى شعر بأن

شيئا يحطم عظامه ويخلع قلبه من بين أضلعه، لقدعرف الآن ولأول مرة، شعورالأم التي ينتزعون منها رضيعها!وتذكر عينيها الدامعتين وهي تردد: "كنتُ أعتقد يا مدحت أنك آخر شاب في الدنيا قد ينقل لي مثل هذه الرسالة البائسة". ولم يكن آخرخيط قد تمزق، ولم يكن آخرأمل قد ذهب مع الريح،

وعندما طلبتْ عفاف الإنفراد به في بيتها، وقد سألها والدها رأيها في العريس الذي رشحه مدحت بنفسه، يومها خرجتْ عن طورها وجذبته من يده، أمام والدها في عنف وحنق، ودخلت ممسكة بذراعه حجرة الصالون، حتي أنها تمادت، فأوصدت الباب

وراءها، سألته وقد جَنّ جنونها واتسعت من الدهشة حدقاتها:

- من أنت؟.. هل أنت مدحت الذي أح..

لقد هَمّتْ في انفعالها الشديد أن تقول:

"هل أنت مدحت الذي أحببته طوال أربع سنوات" إلا أنها استيقظت، وقالت:

- هل أنت مدحت الذي عرفته طوال أربع سنوات؟ لماذا أنت بارد هكذا؟!

لماذا أراك مُغَيّباً؟! ماذا دهاك؟! لماذا أراك مُنَوّماً؟! ألا تراني أضيع منك؟! فإن لم يكن يعنيك ضياعي.. فليكن.. دعني أذهب..دعني أذهب ولكن ليس بيدك، ولا تدفعني أنتَ إلى

الضياع..ألا تراني أغرق؟! فليكن.. دعني أغرق.. ولكن لا
تدفعني بيدك إلى أعماق النهر..إن صمتك يقتلني.. يمزقني..
ولم يزدد هو.. إلا صمتاً! ولم تزدد هي.. إلا بكاءً! قالت في يأس وكبرياء:

- حسناً.. ليس لديك إلا الصمت..

مسحتْ الدموع، تبادلت معه النظرات في صمت، هو عنيد ويائس، وهي غاضبة بائسة يائسة، فقد نفذ صبرها، وانطفأت آخرشمعة من شموع الأمل في الإرتباط به، فقد أطاح بصمتِه للتوّ بآخر بصيص للأمل، فاهتز

وترنح، ثم سقط صريعا، يلفظ أنفاسه الأخيرة.

أصلحَتْ من شأنها، رفعَتْ رأسها عالياً في شموخ، فتحَتْ الباب بثقة أو بكبرياء أو بعناد ومرارة، قالت لأبيها:

- علي بركة الله يا أبي.. إني أوافق.

تهلل الأب فرحاً، وقال مبتسماً:

- الحمد لله.. لقد أقنعكِ مدحت إذن بالموافقة..

فوجهت نظرة قاسية إلى مدحت، وتكلفتْ الإبتسام المُرّ، وقالت في نبرة لايفهمها إلا مدحت:

- نعم يا أبي.. وما كان لأي شاب في
الدنيا.. أن يقنعني بالموافقة..غير
مدحت!

إنطلقت الطائرة ..

وبعد أن استقل مدحت الحافلة في طريق
عودته، حتى وصل إلى الفيوم، لم يستطع أن
يتخلص من طيف عفاف في ثوب الزفاف
بجوار سمير لحظة عقد
القران.

كان حفل الزفاف قد أقيم في صالة الحفلات
في فندق فخم، وكان مدحت يتحامى
عيون عفاف قدر الإمكان. وبعد أن أكملت
زينتها في الكوافير استقرت في

سيارة فاخرة، كانت قد زينت بالزهور وشرائط الزينة والدانتيلا، واستقر سمير إلي جوارها في حلته السوداء والبوبيون الذي تَصَدر ياقة قميصه الأبيض الأنيق، كانت العروس في أجمل فستان زفاف أبيض، من الحرير والدانتيلا والأورجانزا وقد انحسر عن ساعديها، وتلألأت الكريستالات والشوارفسكي على جوانبه وصدره، بالزخارف والزينة البراقة اللامعة، وقد أظهر التصميم الرائع للفستان جسمها بكامل رونقه وجاذبيته، وعلى رأسها الطرحة الطويلة، والممتدة حتى الأرض، وقد طُرِّزت بنفس تطريز الفستان ونفس نقوشاته وقد افترش

منها مساحة متر خلف العروس، ومن فوق الطرحة استقر إكليل الفُلّ والياسمين، بتصميم راقِ وأنيق أظهرها في لوحة فنية جميلة، كما زينت يديها بقفازات بيضاء جميلة، امتدت من أطراف أصابعها، حتى كست نصف ذراعها، وقد أمسكت منديلا أبيض مطرز الأطراف، وانشغل مدحت بالتجوال بين أصدقاء الجامعة الذين حضروا حفل الزفاف، وقضى وقته يتجاذب الأحاديث معهم، لكي ينشغل عن العريس والعروس، والزفاف، وكانت أم مدحت سعيدة كل السعادة،

لوجودها في مثل هذا الفندق، وحضورها مثل هذا الفرح، وكانت منبهرة، فهي أشياء لم

تحدث لها من قبل، أما أخته سميحة فقد كانت تبدو في فستانها الجديد رائعة الجمال، كزهرة متفتحة لفتت أنظار الكثيرين.

همس كريم لمدحت أن "فؤاد" ، وهو أحد أصدقاؤه ، يرغب في الحديث معه، إنه يعمل محاسبا بالمملكة العربية السعودية، وقد جاء في أجازة فقط لمدة شهر واحد انقضى منها عشرة أيام، وهو يبحث عن عروس، على أن يعقد القران ومن ثم يغادر إلى السعودية، ويرسل لعروسه تأشيرة لدخول المملكة، بعد إعداد مسكن الزوجية، وقد أعجبته سميحة جدا، بل أنه - كما يقول هو بنفسه - قد أُخِذَ بها،

فهل يأتي إليكم في المنزل لكي يطلب يدها؟!
على أي حال الوقت ضيق، وهو
يفضل لو كان ردكم سريعا لإتمام الإجراءات، في حال موافقة كل الأطراف طبعاً، ولم يكن هناك ما يمنع من استقبال فؤاد في البيت، وهذا ما أجاب به مدحت
على طلب كريم الذي قابل فؤاد وأعلن له الترحيب به في أي وقت، وفي ساعة متأخرة من الليل، انتهي الحفل، وغادر الجميع.
لم يبخل سمير عند البحث عن الشقة التي ستكون سكنا له، كانت بالطابق الرابع في شارع فهد السالم، في القلب من مدينة الكويت حيث أقيمت أشهر الفنادق الخمس نجوم،

فكان هناك فندق الشيراتون والميريديان، وفنادق أخرى أقل شهرة مثل فندق كاريلتون، كما كان هناك حديقة عامة هي حديقة البلدية التي يقصدها الكثيرون لجمال تنسيقها وهدوءها وندرة أشجارها وقد كان مدخلها الرئيسي من شارع فهد السالم، واستبشرت عفاف خيرا، فقد سرها أن تقيم في هذا الحي الجميل، وأن تطل شقتها على هذا الشارع الحيوي، وهكذا كان الإنطباع الأول الذي أدخل البهجة إلى نفسها، وساهم جمال الشقة في ترسيخ الإنطباع الأول ..

- يا لها من شقة رائعة.. أشكرك على اختيارها.. واختيار الحي.. وأيضا الشارع الذي يشرح الصدر..

قالت عفاف ذلك، بينما كانت تتجول بالشقة لاستطلاع تصميمها ونوافذها والغرف والحمام والمطبخ ..

اقترب منها سمير، حتي صارت بين يديه، واحتضن وجهها براحتيه وقال باسماً:

- الحمد لله أن أعجبتك إختياراتي..

ولا زال يحتضن خديها براحتيه، وغضت بصرها خجلا، إلا أن البريق في عينيها كان يشي بقدر كبير من السعادة، ولاذت بالصمت، وأردف:

- ومن الآن فصاعداً .. لا شكر"جاف"..

ولا زال باسما، ولا زال يحتفظ بخديها بين راحتيه في حب وحنان، ورفعت

عينيها متسائلة، مبتسمة، في صمت:

- !!

- نعم.. فالشكر لا بد أن يكون مصحوبا بقبلة هنا.. وقبلة هناك.. وحضن هنا وحضن هناك.. وعواطف..

قال ذلك، بينما كان يقبلها في خديها، وشفتيها، وفي رقة وخجل، انسلت من بين ذراعيه، ورنين ضحكاتها يسبقها فيملأ فضاء الغرفة، وجلست علي كرسي التواليت وهي تقول:

- لن أشكرك على شيء إذن ..

قال، وهو يقترب منها مرة أخرى ..

- بل سوف أجعلك تشكرينني كل يوم.. بل كل ساعة..

ونهضت، وهرولت بعيدا عنه، تحاول أن تجد شيئا تحتمي به، وهي تضحك في سعادة غامرة، قالت في تحدٍّ من خلال ضحكاتها:

- سوف نرى ..

بسط لها يده، وأمسك يدها، ورفعها إلى شفتيه، وطبع عليها قبلة حانية وهو يقول:

- هيا.. فلنتجول بالشقة.. فأنا أريد أن أعرف إنطباعك عن الأثاث والديكور

قالت بنبرة امتنان:

- الله عليها.. لقد أعجبتني.. إنها تنم عن ذوق رفيع.. وأشكرك جدا على اختياراتك الرائعة ..

وهلل ضاحكا مبتهجا، وفي حركة سريعة أحاط خصرها بيديه، وضمها إلى صدره، فلم تتمكن من الفرار، وهي تضحك بسعادة، قال منتصراً:

- ها.. لقد قلتِ "أشكرك" مرة أخرى لكي أقبّلك ..

وأخذ يقبلها، وقالت ولكن في استسلام:

- والله نسيت.. حسنا.. لن أنسى مرة أخرى..

ولكن ما أسعده أنه لم يأنس منها هروب ولا مقاومة، ولا حتى انسلت من بين ذراعيه كما حدث منذ قليل عندما قبلها أول مرة، وهو ما جعله يطيل ويشبعها تقبيلا ، إلا أنها دفعت ذراعيه برفق، وقالت في نبرة ناعمة:

- ألا تخرج من الغرفة.. حتى أغيّر فستان الفرح؟ وأنت أيضا..ألا تغيّر ملابسك؟

فندت عنه ضحكة تشي بسعادة ملء القلب والعين والروح، قال:

- أليست هذه غرفة النوم؟ فأين يغيّر الناس ثيابهم؟

وهَمّ يخلع ملابسه، وهو يدعوها أن تغيّر ثيابها، ثم قال فجأة وكأنه قد تذكر أمرا هاما:

- بل انتظري.. لقد كِدتُ أنسى..

قالت في دهشة:

- ماذا؟

قال مقتربا منها في مداعبة:

- نعم.. فلقد رأيت في أحد الأفلام.. كان العريس يساعد عروسه في نزع ثيابها .." ق .. ط ..ع..ة.."... " ق.. ط ..ع .. ة .."...

هكذا قالها، وهو يقف عند كل حرف، واستتلى:

- ولعلمك.. هي أيضا فعلت ذلك.. وساعدته على خلع ملابسه!

ضحكت كثيرا، وهي تسأله:

- وما اسم هذا الفيلم؟

وكأن السؤال فاجأه، قال متلعثما:

- وما اسم هذا الفيلم؟ نعم.. اسمه.. اسمه.. لا أذكر.. ثم ماذا يعنينا باسم الفيلم

قالت مبتسمة:

- تذكر المشهد.. ولا تذكر اسم الفيلم؟

ولم يعرف بم يجيب، قالت، وهي تدّعي الجدية، بينما أمسكته برفق في محاولة منها لأن تجعله يستدير:

- هيا استدر.. وتوقف عن هذا العبث.. ودعني أغير ملابسي..

كان المخدع مستطيلا، يتوسطه الفراش، وقد استقر التواليت والمشجب في الجهة المقابلة للفراش، وعلى الجانب منه صوان الملابس، وعلى الحائط المواجه لصوان الملابس كان سمير قد ثبّت صورة عفاف بعد أن وضعها في إطار رائع وقد أسعدها جدا أن زين الحائط بصورتها.

واستدار حتي واجه التواليت، وكان ظهره يواجه عروسه، التي راحت تنزع إكليل الفُلّ و الياسمين، ومن ثم أخذت تنزع ثيابها عن جسدها.. قطعة.. قطعة..

بينما أخذ هو يستمتع بمشاهدة صورة جسدها التي انعكست كاملة واضحة، على صفحة مرآة التواليت، مردّدا بصره بين ظهرها الرشيق، هابطا حتى ساقيها، مهنئا نفسه على هذا الحُسن، متمتما في نفسه:

- يا لهذا الحُسن.. والله إنكِ لحسنة الوجه.. حسنة الجسم.. وإني لأكون طامعا إذا كان لي بالدنيا مطالب أخرى سواكِ!

وكانت عفاف تتابع خلع ملابسها مبتسمة، فهي تعرف أنه يشاهدها في صورتها التي انعكست كاملة على صفحة مرآة التواليت!

وكان سمير قد فرغ من ارتداء "البيجاما" واتجه إلى الحمام قائلا:

- سوف أغسل أسناني وأعود إليكِ بعد ثواني..

فقالت ضاحكة مازحة:

- ولماذا بعد ثواني.. بل إصنع لي معروفا.. وعُد في الصباح..

قال منذرا:

- في الصباح؟! حسنا.. سترين صباحي.. بعد قليل..

وعاد متوعدا، وقال مازحا:

- هل سمعتِ صياح الديك؟ ها يا حبيبتي.. لقد صبح الصباح..

و كانت قد جلست على كرسي التواليت، تسوّي ما تبعثر من خصلات شعرها، و تصلح ما فسد من تبرجها، ولم تنسَ رش بعضا من رذاذ هذا العطر الفواح على قميصها القصير الأحمر، الذي يبدأ من فوق بعد نهديها، وينتهي من أسفل مع نهاية البطن، كما مستْ بالعطر خلف أذنيها، وحول رقبتها وخديها، رآها، وقد وقفت تتأمل نفسها أمام مرآة التواليت، واتجه صوبها من الخلف، وقد أذاب جمالها عقله، أحاط بذراعيه خصرها وضمها إليه حتى التصق جسدها كاملا، بجسده ومال بوجهه قليلا،

حتي ألهبت أنفاسه رقبتها، ومست شفتاه أسفل أذنها اليمنى ثم اليسرى، وهو يهمس:

- ما أجملك...

قبلها، أشبعها تقبيلا، انكمشت، انسلت برفق من بين ذراعيه، واتجهت صوب الحمام قائلة:

- تريث قليلا.. فيم العجلة.. لقد كِدتُ أنسى أن آخذ حماما.. أريد أن أعود فأجدك تغُط في نوم عميق..

فقال مازحا:

- آه.. إنك تحذرينني من أن أنام قبل عودتك.. هكذا أفهمك!

فقالت ضاحكة، وقد اختفت وراء الباب:

- يبدو أنك تفسر كلامي وفق ما تريد..

فاقترب من الحمام وهو يقول:

- انتظريني.. فأنا أيضا أريد أن آخذ حماما..

فتناهى إلى أذنيه صوتها وقد جاءت كلماتها من خلال ضحكات رنانة قالت:

- هيهات.. ولقد أغلقتُ الباب من الداخل..

ووقف يطرق باب الحمام بأصبعه..قال متوددا:

- من أجلي.. هذه المرة فقط.. وهي أخر مرة..

اختفت وراء ستارة الحمام، فهي تعلم أنه يشاهد طيف جسدها من خلال زجاج باب الحمام.. وقالت:

- مُحال..

- أمري إلى الله.. الصبر جميل!

قالها وهو عائد إلى غرفة النوم، وعادت بعد الحمام وقد أخفت جسدها وراء روب، فقط ، روب حريري أبيض، ورأى ما وراء الروب، فأشعل جمال جسدها نار الفتنة في دمه، وانفجر بداخله بركان ثائر، وجرى وراءها متوعدا، ضاحكا.

انتزعت الروب الذي كان يحول بين جسدها وبين عينيه النهمتين، ألقت بجسدها فوق

الفراش، رفعت الغطاء، وذابت تحته، ولم تزل تضحك، ألقى بجسده بجوارها، و قد اختفي جسده تحت الغطاء، يقترب منها، يضمها، وجاءت الأصوات من تحت الغطاء:

- نسيت أن تأخذ حماما!
- لا حاجة بي للحمام الآن!
- نسيت أن تطفيء الأضواء..
- لقد فاتني أن أخبرك أنني أخاف الظلام!
- لقد تزوجتُ طفلاً إذن!
- بل تزوجتِ طفلاً عاشقاً!

الفصل الخامس عشر

الخائن

كان أهل حيّ قلعة الكبش قد علِموا من أمل أن مشروعاً عظيماً قد تم إعداده، سوف يَنقُل الحيّ نقلة إجتماعية عظيمة، وخطوة تنموية سوف تعود بالخير على الجميع كباراً وصغاراً، حيث أن الجمعية الخيرية للتنمية المجتمعية التي أسسها الحاج كمال الشرقاوي قد بدأت في مزاولة نشاطها بدعم من السيدة حسناء، وقد تم الإتفاق مع رجال الأعمال المهتمين بالأمر، على أن يتبنى كل رجل أعمال أسرة، أو أكثر من أسرة، عن طريق توريد مستلزمات إنتاج متناهية الصغر لهذه الأسر، وكل منتجات هذه الأسر المنتجة

سوف تقوم شركة باستلامها وتسويقها لحساب الأسرة، وشركة التسويق هذه تم إنشاءها خاصة لهذا الغرض،لأن الأسرة المنتجة إذا لم تستطع تسويق سلعتها أو منتجاتها فإن المشروع مؤكد سوف يتعثر ويتوقف،وقد تم حصر آلاف من المنتجات التي يمكن تدريب الأسر على إنتاجها،

وكان على أمل أن تذهب هذا الصباح إلى فرح وفاتن من أجل الإتصال بمجموعة العمل من شباب الجامعة المتحمسين،وخاصة من أصدقائهم، لتنظيم العمل وإعداد الترتيبات اللازمة، قبل أن تسافر فرح مع زوجها في غضون أيام إلى الإسكندرية لأن فرحهم

سوف يكون بعد بضعة أيام، وسوف تقيم في الإسكندرية حيث يعمل زوجها، واتجهت أمل إلى حي السيدة زينب، حيث تقيم صديقتها فرح، وفي معرض السيارت قابلت الحاج حسن، الذي رحب بها أيما ترحيب، وفي لحظة اللقاء تنامى إلى مسامعه صوت أحدهم يناديه:

- يا حاج حسن.. يا حاج.. كلم.. المعلم الكبير.. إنه هنا شخصيا.. يريدك بالباب..

وكان هذا صوت إبراهيم، الذي يعمل مع الحاج حسن في المعرض وفي كل أعماله

التجارية، وكان هناك بسطويسي أيضاً الذي أقبل لتحية أمل، ثم انصرف

إلى أعماله..

اتجه الحاج حسن صوب الباب مهرولاً وهو يقول:

- طيب .. طيب .. أحضر عصير فريش للآنسة أمل بسرعة ..

ووجه حديثه لأمل:

- آسف يا أمل .. دقيقة واحدة فقط ..

وخرج مسرعاً دون أن يمنحها فرصة الرد، فأخذت مكانها على الكرسي أمام مكتب الحاج حسن، إنتظاراً لعودته، وكانت أمام المعرض سيارة فارهة تفوح منها رائحة الثراء!

- سيادتك هنا بنفسك يا باشا؟

قال الحاج حسن هذا وهو يفتح باب السيارة الخلفي لكي يستقبل المعلم الكبير بالترحاب والتأهيل، وجاء صوت أجش عميق خشن من داخل السيارة:

- إركب.. إركب يا حسن..

وألقى حسن بنفسه داخل السيارة في سرعة ودهشة..

- خير يا باشا.. خير..

- إسمع يا حسن.. هذا الحيوان الذي تسميه"شنب" والذي تقول أنه ذراعك الأيمن، وأنك تثق به كل الثقة، عليك أن تتخلص منه فوراً.

- حاضر يا فندم.. ولكن.. مجرد سؤال.. هل من سبب؟

- مؤكد.. فلقد تجرأ وحضر بالمقر.. وطلب مني أن يأخذ حصة.. ويعمل لحسابه.. إنني منذ وفاة والدك يا حسن أتحمل هذا الحيوان من أجل والدك ولكن فاض الكيل.. أثق أنك سوف تُحضِر البديل الذي يستحق الثقة بأسرع

وقت، مفهوم؟ و لا أريد أن أراه إطلاقا، وعليك أن تُحسِن إختيار من تريد

أن يُمثّلك عندي، وتمنحه هذه الثقة الكبيرة، كُنْ قويا مثل والدك يا حسن.

- مفهوم.. مفهوم يا فندم..

- مع السلامة.

ترجَّل حسن من السيارة، ووقف مشدوهاً، لقد فقد اتزانه لثواني.

- إبراهيم؟

وأخذ يرددها:

- إبراهيم؟ يا نهارك أسود يا إبراهيم.. هل تخون ثقة المرحوم والدي وثقتي فيك بعد كل هذه السنين؟ لقد تبناك والدي منذ كنتَ في العاشرة ورباك وعلمك كإبنه.. ولم يبخل عليك بشيء،

ولم أبخل أنا، حتى أصبح لديك ما لديك، ما يحلم به الجميع، ثم تخونني وتطلب من المعلم أن تنافسني وتعمل لحسابك، لا أكاد أصدق، هل هذا يحدث؟ إنني أحلم ..

ثم عقد العزم على أن يفعل شيئاً، للتخلص من هذا الخائن، وأخذ يُصِلح من هندامه ويصلح من وضع عباءته، وأخذ نفساً عميقاً وعاد إلى الداخل.

- يا شنب.. يا شنب..
- نعم يا حاج..
- ماذا تفعل؟

- لقد قدمتُ العصير الفريش إلى الآنسة أمل.. وكنت أشرح لها مزايا كل سيارة!

- وهل قالت لك أنها ترغب في شراء سيارة؟

- لقد كنتُ أشغل وقتها ريثما تصل أنت.. حتى لا تمِلّ..

- ومن قال لكَ أنه ليس أنت من تجعلها تمِلّ؟

ثم أمره بإسلوب جاف، ونبرة تعبِّرعن السأم والضَجَر، قال:

- إذهب الآن وأخبر بسطويسي أنني أريده بعد أن أنهي حواري مع الآنسة أمل.

فقد قرر الحاج حسن أن يتفق مع بسطويسي على أن يُعِدّ نفسه لكي يحل محل إبراهيم تدريجياً، لكي يكون هو المسئول عن كل أعماله، لأنه أصبح شديد الثقة به،على العكس من إبراهيم الذي فقد الكثير من مصداقيته، ومن ولائه للحاج حسن، وقد يحتاج ذلك منه وقتاً طويلاً، قد يمتد لشهور عِدّة.

ومضى إبراهيم لإنهاء المهمة التي كلف بها، بينما رحب حسن مجدداً بأمل وسألها عن إعداد الترتيبات الخاصة بحيّ قلعة الكبش،

فقالت أنها سوف تقابل فرح وفاتن الآن بهذه الخصوص، وسوف تتصلن بكل الأصدقاء، وأمام باب الشقة استقبلتها فرح بالأحضان والقبلات، فهي صديقتها المقربة، وعلمت منها أنها سوف تستقر في الإسكندرية بعد الزواج من أمجد، وأخبرتها أمل بدورها أن خطوبتها لمحمد سوف يتم الإعلان عنها في الغد، في حضورالجميع الذين سوف يحضرون غداً لمناقشة ترتيبات موضوع الأسر المنتجة، وراحت أمل تتصل بكل الأصدقاء،وكان الموعد في اليوم التالي في قلعة الكبش في الرابعة مساء، مراعاة لمواعيد مدحت الذي كان قد تم تعيينه معيداً

بالكلية حيث حصل على درجة البكالوريوس بتقدير إمتياز، وكان الأول على الكلية. وقبل الموعد المحدد بعدة دقائق كان مدحت ينتظر في المكان المتفق عليه حاملاً حقيبته السامسونايت، ولكي يقطع الملل من الإنتظار، فالمكان حقاً يثير الملل، فقد أخذ يذرع المكان جيئة وذهاباً في مساحة صغيرة، وكان ينظر إلى ساعة يده كل دقيقة، ولاحظ مدحت أن هناك رجلاً يتابع حركاته ويتفحصه من بعيد، يا له من رجل بشع الهيئة، رث الثياب، وبدوره راح مدحت يتفحص الرجل الذي أثار قلقه، كان الرجل طويل القامة، نحيف الجسم أشعث الشعر،

وقد إستطاع مدحت أن يميز فيه هذا الوجه الذي برزت عظامه في منطقة الخدين، وقد شق ندب طولي واضح ألخد الأيمن وغارت عيناه الضيقتان اللتان ينطلق منهما شرر وغضب وهياج تحت الحواجب الكثيفة، وتظلل عينيه هالات داكنة يبدو أنها من آثار تعاطي المخدرات، وتوجس مدحت خيفة، وتساءل مع نفسه، "لماذا يتابع هذا المخلوق حركاتي، إنه يتفحصني.. هل أسالت الحقيبة السامسونايت لعابه؟ هل يفكر كيف يهجم عليّ ويختطفها؟ سوف أكون مستعداً له بالمرصاد" وهكذا تحفز مدحت للمواجهة التي إعتقد أنها لن يطول إنتظارها، فالرجل بدأ يجول

بناظريه متفحصاً المكان من حوله، ربما كان يراقب المكان للتأكد أنه لا أحد هناك يتابعه، فيهجم ويفعل فعلته ويخطف الحقيبة ويلوذ بالفرار، وأخذ مدحت موقف الدفاع، وتأهب للمواجهة، يا إلهي، لقد إستل الرجل سكيناً من بين طيات ملابسه، نعم إنها سكين وهذا هو نصلها الذي برق في الضوء عاكساً أشعة الشمس، ولكن في لحظة تغير إتجاه الرجل الذي غير خطته بسرعة وبدلاً من أن يُكمل طريقه إلى مدحت، غير إتجاهه إلى الفتاة التي كانت قد وصلت في هذه اللحظة إلى مكانه على مسافة غير بعيدة من مدحت، يا

إلهي، إنها فاتن وقد وصلت في اللحظة الخطأ، إنه يتجه إليها، لقد أدركها في ثواني.

- السلسلة الذهبية.. والسوار..
والموبايل.. مقابل حياتك..

صرخ فيها الرجل مهدداً بالسكين في يده، يلمع نصلها في ضوء الشمس، وقد رفعها في مواجهة وجهها مباشرة ملوِّحاً بها، وكان الرجل فظاً، عنيفاً، نافذ الصبر، وهلعت فاتن، وكاد الخوف يطيح بها ففقدت توازنها وكادت تسقط أرضاً وقد ألجمت المفاجأة فمها، أعاد الرجل أوامره، متوعداً، صارخاً:

- هيا بسرعة قبل أن تمزق هذه السكين أحشاءك..

- حاضر.. حاضر.. خذ ما تشاء..

أجابت فاتن في رعب وفزع، بينما امتدت يدها إلى رقبتها لكي تنتزع السلسلة الذهبية..

- لا تقتلني.. أرجوك.. فلن يفيدك قتلي.. ولن أبلِغ عنكَ الشرطة..

كانت فاتن تقول ذلك، وهي تتوقع في أي لحظة أن يسدد لها الرجل طعنة سكين نافذة قبل أن يتركها جثها هامدة ويلوذ بالفرار. وانتزعت السلسلة ومدت يدها باكية للرجل المتحفز لطعنها إذا هي تراجعت، ومد الرجل يده ليتناول منها السلسلة وهو يأمرها في عصبية صائحاً:

- والسوار.. هيا بسرعة ولا تتباطئي..

- حاضر.. حاضر..

قالت فاتن ذلك بكلمات مرتعشة مبللة بالدموع ..

وكان مدحت قد قفز في خطوات سريعة، وبحركة خاطفة أمسك الحقيبة السامسونايت بكلتا يديه، وبكل قوته، وبكل غضبه سدد ضربة على مؤخرة رأس المجرم، الذي استوعب الضربة واستدارعلى الفور متأوهاً، واستطاع رغم الدماء التي تدفقت من رأسه غزيرة، إستطاع أن يسدد لمدحت طعنة في كتفه، ثم أتبعها بطعنة أخرى فأصابت ذراعه وقطعت الوريد، فانفجرت الدماء تسيل من مدحت غزيرة، وسقط أرضاً، وكان المجرم

قد فقد توازنه، وسقط أرضاً مضرجاً في دمائه ولا زال قابضاً على السلسلة، وإن هي إلا لحظات حتى تجمع جمع غفير منهم الغرباء الفضوليين ومنهم من جاء للدفاع عن الفتاة وسارعت أمل وبعض الأصدقاء الذين حضروا متأخرين دقائق معدودة عن موعدهم وانتزع محمد السلسلة من قبضة المجرم وأعادها لفاتن بينما قام علي والآخرون بالقبض عليه وتوثيقه إنتظاراً لتسليمه للشرطة وكانت أمل تحتضن فاتن الباكية، تسري عنها وتهديء من روعها وتطمئنها أن كل شيء قد أصبح تحت السيطرة، وفي هذه الأثناء كانت فرح قد

وصلت بسيارتها، وهرولت ناحية أختها التي كانت تصيح في الجمع لكي يستدعوا سيارة إسعاف من أجل مدحت الذي سالت منه الدماء غزيرة، وكان البعض قد ساعدوا مدحت على النهوض وربطوا جروحه حتى يوقفوا الدماء التي لا زالت تسيل من كتفه وذراعه، ويبدو أن سقطته على الأرض كانت قاسية وكُسِرَت ذراعه على أثرها، و صاحت فرح فيهم في قلق:

- هيا ساعدوني ننقله إلى سيارتي لكي أنقله إلى المستشفى.

وبسرعة كان محمد وعلي قد ساعدا مدحت على النهوض وركبوا معه سيارة فرح التي

إنطلقت به إلى المستشفى وتبعتها سيارة فاتن التي انطلقت في أثرها مصطحبة معها أمل وأسامه بعد أن إلتقطت حقيبة مدحت السامسونايت من الأرض ووضعتها في سيارتها، ولم تزل تبكي منهارة مرعوبة، رغم المشاعر
الإيجابية التي تولدت لديها بوجود مدحت في هذه اللحظات الحرجة والفارقة ودفاعه المستميت عنها، وسعادتها أن ألقى بنفسه في هذه المغامرة غيرالمحسوبة، ودون تفكير أو حسابات، في مواجهة هذا المجرم الذي لم يكن ليتردد في أن يقتل أحدهم من أجل السرقة بالإكراه، فكانت ممتنة كثيراً لهذا

الشاب الوسيم الذي عرّض نفسه لمخاطرة كبرى، من أجلها، كما أنقذها للتوّ من الموت أوعلى الأقل أنقذ جسدها النحيف من طعنة بالسكين ربما كانت طعنة ناجزة.

أما المجرم فقد كان هناك الكثيرون الذين أحاطوا به، وتحفظوا عليه موثق اليدين والقدمين، بعد أن أوقفوا الدماء التي كانت تسيل من رأسه، ولكنه لم يكن قد إستعاد توازنه بعد، من أثر الضربة القوية التي سددها له مدحت فأفقدته توازنه،

وكان مدحت يقاوم آلامه، إلا أنه وقع مغشياً عليه بسبب النزيف الذي كان غزيراً

ففقد الكثير من الدماء، وربما أيضاً نتيجة كسر ذراعه وما سببه ذلك من آلام مبرِّحة، وتعددت زيارات فاتن لمدحت في المستشفى، وتعددت اللقاءات فإذا بها تشعر أن مشاعر جديدة بدأت تتسلل إلى قلبها، وكانت الأويقات التي قضتها فاتن مع مدحت فارقة في حياتها، ولم يكن قد جري بينه وبينها شيء سوى هذه المناقشات وتبادل الآراء أثناء زيارتها له في المستشفى، وقد سرها أن إكتشفت أنه بينهما مساحة كبيرة مشتركة من التفاهم والإتفاق في الرؤى والأفكار والهوايات.

وكانت تبتسم في نفسها، بسمة لا تظهرعلي شفتيها، عندما كانت تنظر فجأة إليه فتجده ينظر في عينيها، وسرعان ما يغض بصره، وعندما راقبته بعينيها خلسة، اكتشفت أنه يلتهمها بعينيه إعجاباً، وأحبت أن يفعل هذا، فهو يحب النظر إلي عينيها دائما واكتفت منه بهذه النظرات المعجبة في البداية، ومع مرور الوقت -ولو أنه قصير- ومع تكرار المناقشات، وتبادل الإبتسامات، وجدت أن الخجل ينزوي، ويحل محله إطالة النظرات، وأصبح يعلق عينيه بها دون ارتباك، فكان يرى فيها جمالاً هادئا يتسلل إلى قلبه في رفق كمخدرعبق إذا ما طاف به أدمنه ويتولد

منه نشوة غريبة وسرور، وارتبطت فاتن به لدرجة بعيدة، وكانت تشعر بغيرة شديدة عندما تجد أن الطالبات تبدين إهتماماً مبالغاً فيه بالتواجد معه، فهو معيد وغداً يكون دكتوراً، وهو زوج تسعى الكثيرات من البنات للفوز به ..

وتحدثت عن حقيقة مشاعرها لأمها التي كانت متعاطفة معها وأكبرت فيها مصارحتها لها إلا أنها كان لها تحفظ، فكانت تخشى عدم موافقة الحاج حسن، بسبب الوضع المادي البسيط والحالة الإجتماعية المتواضعة لأسرة مدحت، إلا أن فرح كانت هي الكفة الراجحة في هذا الأمر، حيث كانت تعلم جيداً كيف أن

مدحت إجتمعت فيه الكثير من الخصال والسمات التي تجعل منه زوجاً جيداً رغم كل شيء ،حتى ولو كانت أسرته رقيقة الحال ولا تنتمي إلى الطبقات الثرية وربما كان وضعه الإجتماعي الجديد ينطوي على مستقبل باهر، ربما يجعله ذلك زوجاً مناسباً ، واضطر الحاج حسن أن يقبل برأي الأم ورأي فرح وزوجها أمجد الذي كان رأيه أن مستقبل مدحت ربما يغطي على الجانب الإجتماعي لأسرته،

فوافق على طلب مدحت بالزواج منها، وبعد أن حدد مع الحاج حسن موعداً لزيارته لكي يتقدم لطلب يدها، كانت صورته المنطبعة في

ذهنها تداعبها ولا تفارقها في يقظتها ولا في أحلامها، ورغمها، تحولت الدنيا كلها إلى مدحت ..

وغابت عيناها في نظرات ساهمة شاردة، كما أصبحت شفتاها الرقيقتان أكثر ضنا بالكلام، إنها المرة الأولى التي تفتح قلبها للحب، جلست في غرفتها تنتظر

وتفكر.."اليوم سوف يأتي مدحت لمقابلة أمي وأخي حسن" .. ولاحظت أمها أنها تلازم غرفتها طوال الوقت، فكانت تتعلل بأن بها وعكة بسيطة وصداع خفيف،

وجلست في غرفتها على الفراش، وقد ثنت ساقيها وأحاطت ركبتيها براحتيها، وأسندت رأسها على حافة السرير، وأطلقت خيالها..

- سوف يأتي اليوم.. ما بال الوقت لا يمرّ؟ ما بال اليوم أصبح طويلاّ هكذا؟ لقد كنت أقول لأصدقائي كثيراً"إن غداً لناظره قريب"..عندما كانوا ينتظرون حدثاً ما.. ولكنني لن أقولها لأحد بعد اليوم.. فما أبعد الغد.. و ما أطول الساعات والدقائق والثواني.. وما أطول أوقات الصبر.. على من ينتظر!

وفجأة انتفضت فاتن في جلستها.. وفي ثواني كانت تقف خلف الباب المغلق لتسمع وتعرف

مَن القادم، فقد انتهى إلى أذنيها رنين جرس الباب، لعله مدحت، وأخذت تقفز فرحاً، أجل، إنه مدحت، فها هو صوت حسن يرحب به، وغمرتها السعادة، وهَمّت أن تفتح باب غرفتها وتخرج لاستقباله، إلا أنها استدارت ووقفت أمام مرآة التواليت، تطالع صورتها المنعكسة على صفحة المرآة.. فكرتْ..

"نعم.. هذا الفستان أعجبه عندما رآني به.. لقد قال لي يومها "إن هذا الفستان يبدوعليكِ رائعاً" إنني لم أسمعه يُعلِّق على ملابس أية فتاة من قبل..لقد خصّني أنا بالذات بهذا الإهتمام"..

وأصلحت من تسريحة شعرها، ووضعت أحمر شفاة خفيف يتناسب مع لون الفستان، ولم تنسَ القليل من العطر الهاديء، ووقفت ثواني قبل أن تفتح الباب، لكي تعطي لقلبها المضطرب الفرصة كي يهدأ ويخفق في انتظام، وأخذت نفساً عميقاً، حتي تعيد إلى نفسها السكينة والهدوء، وخرجت إليه تتهادى، وكانت ابتسامة سعيدة قد زانت وجهها فزادته إشراقا ..أما بريق عينيها فكان ينطق بفرحة بالغة، ورأتها فرح ففتحت فاها واتسعت عيناها وحملقت فيها ولم تنبس بكلمة ، في حين هَمّت أن تسألها "أين الصداع وحالة الصمت الرهيبة التي تغلفك منذ

الصباح" إلا أنها اكتفت بالإبتسام، مؤقتا! ورآها مدحت، وقد تزينت، وكأنه يراها للمرة الأولى، وقفز قلبه من بين أضلعه، سعادةً وابتهاجاً، كانت تتهادى نحوه ووجهها ينطق بالبِشْاشة، وقد بسطت يدها نحوه للتحية قائلة:

- أهلاً يا مدحت..

سمع صوتها موسيقي تعزف على أوتار قيثارة رائعة، وسمعت هي صوتها وكأنه قادم من أعماق قلبها، قال، وكان قلبه المتحدث:

- كيف حالك يا فاتن؟

- الحمد لله ..

قالت ذلك في خجل، فهي في حضرة أمها وأخيها الحاج حسن، وجلست إلى جوار أختها فرح.

وسعدت الأسرة بعد أن تزوجت فاتن لسعادة إبنتهم، وشعروا أن إختيارها كان

موفقاً، كما كان وجود مدحت بالقرب من الحاج حسن له تأثير كبير في حملته الإنتخابية، وبدعم كبير من السيدة حسناء والتي كان لها من العلاقات القوية في الأوساط المختلفة، وأيضاً دعم كل هؤلاء الذين شملتهم رعايته لهم إجتماعياً، كل هؤلاء كان لهم الأثرالواضح في فوز الحاج حسن

بكرسي البرلمان، وهو ما كان يخطط له، ويُعِدّ له العدة..

بعد التخرج، تفرق الأصدقاء في جهات متباعدة ، تزوج منهم من تزوج، ومنهم من سافر إلى محافظات مختلفة داخل مصر، ومنهم من سافر إلى دول الخليج بحثاً عن العمل من أجل المستقبل، إلا أن ذلك لم يكن يحول دون التواصل بينهم ومشاركة بعضهم بعضاً مشاكلهم.

وكانت عفاف في مراسلاتها وتواصلها ومكالماتها التليفونية مع فاتن وفرح هي الأقرب إلى صداقتهم من الأخريات، وكانت تتحدث كثيراً معهما عن حياتها الرومانسية

مع سمير زوجها الذي يحبها كثيراً، كما
تحدثت عن إبنتها أشرقت وقد أتمت عامها
الثاني، وكانت فاتن ومدحت قد شجعاها على
الدراسات العليا فتقدمت للماجستير، وساعدها
مدحت كثيراً، وقطعت فيها شوطاً كبيراً
..وعندما

طلبت فاتن وفرح من عفاف أن تشتري الشقة
المواجهة لشقة فاتن وافقت فورا
وأقنعت سمير بالموافقة، فقد كانت الشقة في
أحد أبراج والدهما، في الطابق
الثاني، وكان السعر جيداً، مما دفع مرقص
لشراء شقة كانت لا تزال شاغرة
في الطابق الثالث.

الفصل السادس عشر

وفاة سمير

إستيقظت عفاف مضطربة، يساورها قلق لا تعرف مصدره، ولا أسبابه، خائفة من شيء ما، كيف تخنقها هذه الأحاسيس الكئيبة، وهي التي يجب أن تصحو من نومها اليوم بالذات سعيدة، مبتهجة، فاليوم هو عيد ميلاد أشرقت، فقد أكملت اليوم عامها الثالث،

تضـيء البيت بالبهجة والسعادة، إن سعادة سمير بها لا يضاهيها سعادة، إنها له العين التي يرى بها، والقلب الذي ينبض بالحياة، وحاولت عفاف أن تتغلب على إحساس القلق، والتحرر من الخوف الغير مُبرَّر، دون جدوى،

كانت الساعة تشير إلى الرابعة عصراً عندما جاء موريس وأسامة لكي يصطحبا سمير وأشرقت لشراء الهدايا والتورتة واللِعَب وأدوات الزينة، والبالونات مختلفة الألوان، ولما كانت أشرقت في هذا الوقت تغُطّ في نوم عميق فقد تركوها نائمة وذهبوا بدونها، على أن يوقظوها بعد عودتهم، وراحت عفاف

تشغل وقتها بأي شيء ، والحقيقة أنها لا تحاول شغل وقتها، بل أنها تحاول الهروب من إحساس الخوف الذي لا زال يغالبها، يكاد يعصف بعقلها، دون أن تعرف له سبباً، ومضى سمير يمرعلى المحلات يشتري البالونات والتورتة واشترى كل لوازم الإحتفال بعيد الميلاد، واتجه إلى طريق البيت سعيداً، محمّلاً بكل الهدايا، سوف تفرح أشرقت بكل هذه اللِعب، وراح يتخيلها بعين خياله، تلهو وتمرح، وراح يسمع ضحكاتها تملأ فضاء البيت، وهي تحاول أن تغني أغنية عيد الميلاد ، إن صوتها جميل، ولو أنها لا تجيد الكلام بعد، ولم يسمع سمير كل

صيحات التحذير التي انطلقت تحذره من السيارة المسرعة التي تنطلق في إتجاهه شاردة، يقودها سائق أرعن، بأقصى سرعة، ولم يستغرق الأمر إلا ثواني، كان سمير بعدها مجرد شيء يطير في الهواء، ثم يسقط أرضاً، وقد إرتطمت عظامه بالأرض، يحيط به بحر من الدماء التي إنتشرت في كل مكان، وقد أحاطت بها اللِعَب والبالونات، التي إختلطت بالدماء، وتحولقت بسرعة حوله العيون الدامعة، والقلوب الباكية، من شدة الصدمة التي أحدثتها هذه الحادثة الأليمة، وإنهار أسامة فزِعاً، وارتعد قلب موريس، وامتلأت عيونهم بالذعر العميق، وشُلّت أفكار

أسامة و ضاق صدره، وبدأت تلوح في عينيه نظرة شاردة تغيب بصاحبها عما حوله، واضطرب اضطراباً كاد يذهب بعقله، كيف يتصرف وماذا يفعل، وارتمي موريس على سمير، وراح يجس نبضه، ولم يعد يعرف، أيفرح أم يبكي، إنه لا زال حياً، وفي هيستريا صاح:

- هيا يا أسامة.. ساعدني في نقله فوراً إلى المستشفى، فقلبه ينبض، ولكن النبض ضعيف..

وحاول أسامة وبعض الشباب المتواجدين أن يوقفوا النزيف، دون جدوى، فسارعوا لنقله إلى أقرب مستشفى، وانقضت أكثر من

ساعتين، ومحاولات الإنقاذ لا زالت مستمرة، دون جدوى، وأعلن الأطباء الخبر المؤلم، فقد فارق سمير الحياة، وصعدت روحه إلى بارئها، لقد قُتِل بدم بارد، ولم يستطع أحد أن يفعل شيئا، وغادرا المستشفى، لا يلويان على شيء ، ولا يعرف أي منهما ماذا يفعل، وماذا يقول لعفاف، وكيف سيكون مصير طفلته التي لم تجاوز الثالثة من عمرها؟ ومضى أسامة إلى بيته، لإحضار زوجته ندى لمعاونته في نقل هذا الخبر، وكانت الدقائق شديدة الثقل في هذه الظروف العصيبة، سمير تفصل بين حياته وموته لحظة، وصدفة.

كان أسامة يشق سبيله إلى البيت تقوده قدماه، بينما تاه فكره، وشرد ذهنه، أخبر ندى بهذا الخبر الحزين الذي صدمها وأصابها بالغثيان وارتمت متهالكة، باكية وضربت بكفها على قلبها، وهي تصيح:

- يا ألله..سمير؟ مات؟ يا لها من مصيبة ما بعدها مصيبة، وعفاف وأشرقت كيف تتحملان هذا الخبر؟

وبكى أسامة بمرارة ، وبكت ندى، كما لم تبكِ من قبل، وتساءلت والبكاء يبلل كلماتها بدموع هي أقرب إلى الدماء:

- والآن.. كيف نحمل إليها هذا الخبر الأسود؟

- لا أدري كيف تتلقاه؟

ومضى أسامة و ندى قاصدين شقة سمير.

كان أسامة يحاول أن يحث خطاه، فالوقت ينفذ وعفاف من المؤكد أنها قلِقة، وجثمان سمير في المستشفى، وعندما اقترب من الشقة وجد أن قدميه قد تثاقلتا، إنه لا يعرف كيف يواجه عفاف بأسوأ أخبار يمكن أن ينقلها لأحد، وضغط الجرس، وفتحت عفاف الباب، ليس خيراً، هذا ما أحست به عفاف، وسرعان ما خامرها شعور بالقلق، بل شعور بالرعب، فقد كان هذا ما شعرت به عفاف فور وقوفها على باب الشقة ناظرة إلى أسامة وندى، إنقبض قلبها وتسارعت دقاته، وزاغ

بصرها، إنها لا تعرف على من منهما تثبت نظرات عينيها، إنهما باكيان!

إنهما في حالة انهيار! وكان هذا كله في لحظات خاطفة.

- تفضلا ..

قالت ذلك والرعب يسيطر عليها ..

حدثها قلبها "أي مجهول أسود .. سوف يخبراني به ؟"

أغلقت الباب ..

- ماذا وراء هذه الدموع التي أراها؟ إنكما تبكيان! إنني مرتعبة .. أكاد أسقط مغشياً عليّ؟ ما خطبكما؟

قالت هذا في حيرة ورعب..

وألقى أسامة جسده على أقرب مقعد، وهكذا فعلت ندى..

- إجلسي يا عفاف ..

قال أسامة ذلك، وهو يبحث عن الكلمات، وسيطر الرعب على عفاف سيطرة تامة، تهالكت على المقعد، وتساءلت بكلمات هي أقرب إلى الصياح:

- سمير! أين سمير؟ لقد خرجتما معاً ..

وأحاطت ندى وجهها براحتيها وأجهشت بالبكاء، كما انفجر أسامة باكياً، إن مصيبته مضاعفة، هذا الصديق العزيز الذي قُتِل بلا سبب أمام عينيه، وعفاف، التي ربما تسقط قتيلة هي الأخرى لهذا الخبر المشئوم أو

يغشى عليها، ولم تمهله عفاف وقتاً ليبكي أويفكر، قالت صارخة في انهيار كامل:

- إنه سمير.. أخبرني يا أسامة.. ماذا حدث لسمير؟..أين هو..أين اللعب والهدايا؟

وكان عليه أن يقول شيئاً، قال في كلمات حاول جاهداً أن يستدعيها:

- لقد ..

وقبل أن يكمل كلماته كانت الصدمة قد أفقدتها الوعي، وسقطت مغشياً عليها،

وحدث ما كان يخشاه، نهضت ندى وارتمت عليها لإفاقتها، وجاء أسامة بالعطر ينثره

على وجهها، وأخذت ندى تدلك قلبها، وصدرها، كان جسدها يرتعد بالكامل والجميع يبكي، وكانت الطفلة نائمة في حجرتها لا تدري بما حولها، وعاد إليها الوعي، بين الألم والبكاء والهلع والحزن، قالت، وقد ملأت الدموع وجهها، وهي تسمع دقات قلبها كالطبول في وداع الموتى وكأن قنبلة منزوعة الصاعق قد
إنفجرت في قلبها:

- خذوني إلى سمير.. أين هو..أريد أن أراه..

وروى لها أسامة ما حدث، إن جثمانه الآن بالمستشفى، ولم تستطع عفاف أن

تحرك جسدها، لقد أصاب الخبر المشئوم كل جسدها بالشلل، وظلت تبكي بصوت مسموع، وأخذ أسامة وندى يخففان من صدمتها، كانت تستمع إليهم، ولا تسمعهم، وكانت تنظر إليهم، ولا تراهم، وفي عينيها نظرة لا يستطيع أحد أن يصفها إلا أن الإستسلام كان أقرب إليها فكانت نظرة مستسلمة ذابلة في عيون حمراء من كثرة البكاء حتى أن الناظر إلى دموعها يخالها دماء، وظلوا هكذا، بين الألم والبكاء لساعات، وغرقت عفاف في حزن مطلق، وقد تزلزل قلبها من من فرط الألم وكاد يكف عن الخفقان في سكون أبدي، كما سكت

قلب سمير، ولماذا تبقى هي على قيد الحياة؟ كل شيء بأعماقها يتحطم، وانخرطت مرة أخرى في البكاء ، والنشيج .

واستيقظت أشرقت من نومها، وأقبلت تسأل أمها في كلمات لا تجيد قول نصفها:

- فين بابي؟

فاحتضنتها عفاف بين ذراعيها بقوة ..

وراحت تبكي بمرارة.. بمرارة.

الفصل السابع عشر
مرض فاتن

كان يوماً جميلاً قضاه مدحت مع أسرته الصغيرة وأسرته الكبيرة في الفيوم، حيث تناولوا طعام الغذاء في بحيرة قارون، التي إشتهرت مطاعمها بتقديم أفضل الوجبات من السمك والجمبري، وكان والده ووالدته سعداء

بوجود جميع أولادهم وأحفادهم، وفي طريق العودة من الفيوم، وكان يوما من أواخر شهر ديسمبر، والذي شهد صقيعاً لا تشهده البلاد إلا نادراً، أحست فاتن بأعراض الإنفلونزا تغزو جسدها، وكما يفعل الكثيرون، لم تكن تعبأ بأعراض الإنفلونزا من سعال وصداع ووجع الرأس، وتناولت الأقراص المعتاد تناولها في هذه الحالة، والتي تحتفظ بها في درج الأدوية تحسّباً لحدوث مثل هذه الأعراض لها أو لزوجها، ولم تكن هذه الأعراض لتؤثر في أعمالها المنزلية، فهي تزاول نشاطها المعتاد والمعهود غير آبهة للمرض، وفي صباح اليوم التالي كان

الصداع قد اشتد عليها حتى أنها استطاعت بالكاد أن تُعِدّ طعام الإفطار لزوجها، بعد أن أطعمت إبنتها بسنت التي لم تجاوز الثانية من العمر، وأيضاً مصطفى ودينا اللذان يحبان الإقامة معها لتفانيها في رعايتهما والإهتمام بهما، وسألها مدحت عندما رأى أثر الصداع على وجهها وعلى حركتها المتثاقلة:

- ألم تتناولي شيئاً للصداع؟ لم أكن أتوقع أن يستمر الصداع هكذا.

فقالت تحثه على عدم القلق، ولكي تجعله يذهب إلى عمله مطمئناً:

- لا تقلق يا حبيبي.. إنه صداع لن يدوم وسوف ينتهي.. فاذهب إلى عملك مطمئن البال بغير قلق..

قبّلها حانياً في جبهتها، ومع ابتسامته التي طالما ارتسمت على وجهه، قال:

- إذا ساءت الأحوال.. لا قدر الله.. إتصلي بي أحضر إليك في التوّ.. وكوني مستعدة للذهاب إلى الطبيب.

ابتسمت، وقالت تطمئنه:

- لن تسوء الأحوال بإذن الله.. فاذهب مع سلامة الله..

- هل أتصل بعفاف وأطلب منها أن تأتي حتى أكون مطمئناً عليك في وجودها؟

- سوف تأتي مع أشرقت.. فمنذ عودتها من الكويت وهي تقضي وقتها معي كان الله في عونها.
- نعم.. فقد أثر حادث موت زوجها تأثيراً عميقاً في حياتها.
- أعتقد أنه لولا وجودي أنا وأنت في حياتها منذ عودتها لكان الوضع سيئاً جداً..
- لكنها بيننا أصبحت تمارس حياتها بصورة طبيعية..
- ليس تماماً.. فهي تبكي بمرارة في بيتها عندما تخلو لنفسها..وهي لم تنسَ

حبها لسمير..ولا زالت زكرياته معها لا تفارقها حتى في أحلامها.

- أعرف أنه أحبها بعنف..

- وهي فعلاً جديرة بهذا الحب.. إن جميع من إلتقى بعفاف أحبها بصدق.

- إذن سوف أذهب وأنا مطمئن..

إحتضن طفلته وقبلها، وداعب مصطفى ودينا ثم غادر، إلا أن حالة المرض اشتدت عليها في اليوم التالي، وكانت صديقتها عفاف تجلس معها في الصالون تتجاذبان أطراف الحديث، بينما مصطفى ودينا ومعهما أشرقت يداعبون بسنت، يلعبون ويلهون في الردهة، وبدأت تتناوب فاتن قشعريرة، وبسرعة

شملتها رعشة اصطكت لها أسنانها، قالت فاتن بصوت ضعيف متقطع، يخرج من بين شفاة مرتعشة، بينما كانت تضم إليها ثيابها لتدفيء جسدها المرتعش:

- ما هذه الرعشة المفاجأة يا عفاف.. إن أسناني تصطك.. وأشعر بوهن مفاجيء!

ولم تكن الرعشة والقشعريرة في جسد فاتن خافية على عفاف، وهو ما جعلها تنهض مسرعة إليها تضمها بين ذراعيها وتحاول تدفئتها وهي تقول، والقلق قد بدا عليها، فجاءت كلماتها مضطربة:

- يا له من تغيير مفاجيء.. دعيني آخذك إلى الفراش وأضع عليك الغطاء.. وسوف أخبرمدحت فوراً.. ولنذهب بك إلى الطبيب..

وصحبتها، ولا زالت تحتضنها خشية أن تخذلها قدماها، فلم تعودا قادرتان على حملها، ثم تأبطت ذراعها، وقصدتا غرفة النوم، واستلقت على الفراش في إعياء شديد، واستدعى مدحت الدكتور الذي طلب منها أن تأخذ قسطاً من الراحة وملازمة الفراش،على أن يراها بعد أسبوع، واشتدت الحالة، وتدهورت صحتها بسرعة مخيفة، فهزل جسدها وشحب لونها فبدت وكأنها يلازمها

المرض منذ شهور، وهي شاحبة شحوب الموت، وقد فقدت شهيتها للطعام، ولم تكن عفاف تتركها إلا وقت النوم، فكانت إذا أصبح الصباح، تأتي مع أشرقت بعد أن تتناول الإفطار، فتُعِدّ الإفطار لمدحت وفاتن وأيضاً لمصطفى ودينا اللذان كانا يفضلان الإقامة مع العمة فاتن حيث يشعران بحبها الكبير لهما ورعايتهما، وبعد أن يغادرا إلى المدرسة، ويذهب مدحت إلى عمله، ترعى شئون البيت وتهتم بأمور بسنت، كما تعد طعام الغداء، وكانت دينا في السادسة من عمرها، وأخوها مصطفى توأمها، بينما كانت أشرقت في الرابعة من عمرها، وهكذا كانت

فاتن تطمئن إلى أن شئون بيتها وزوجها وإبنتها بخير، وأن صديقتها عفاف لن تألُو جهداً في هذا السبيل، وأيضا كان مدحت يشعر أن زوجته في رعاية إنسانة تبذل قصارى جهدها لمساعدة صديقتها، مخلصة كل الإخلاص، وفية كل الوفاء، واشتدت الحُمّى، ومع نقص الشهية نقص وزن فاتن، ونحل جسدها، وازدادت حالات التعرُّق الليلي، وجلس مدحت إلى جوارها على طرف الفراش، وقد استقرت قدماه على الأرض، وأخذ يدها بين راحتيه، وراح يقبلها في حنان، ويدلكها بلطف، وكانت عفاف

تحتل الجانب الآخر من الفراش، إلى جوارها،
قالت عفاف في نفسها، مشفقة على فاتن، وقد حارت في سبب هذا التغيير السريع في جسدها:"يا إلهي.. لقد سارت كالخيال.. كالشبح الهزيل الأصفر.."
وساورها قلق لا تعرف مصدره، وفكرت.."وهل تفعل الإنفلونزا كل هذا؟! .."
وقد صدق حدس عفاف، فهذا وجه فاتن وقد شحب شحوب الموت، وبه عينان غائرتان في عظامه، وقد أحاطت بهما هالتان سوداوان، قالت لمدحت، في إشفاق:

- لم أكن أعرف أن جسدها ضعيف هكذا ..

قال مدحت، وهو لم يزل يدلك راحتها في لطف:

- في الحقيقة يا عفاف.. أنني لم أطمئن لدقة الكشف والتشخيص الذي أجراه الدكتور.. ولذا فقد أستدعيت لها طبيباً أخراليوم.. وهو أخصائي في الأمراض الصدرية.. لما شاهدته من نوبات سعال متكررة..فلا أعتقد أن الموضوع هو نوبة برد أو انفلونزا.. ولعله يكون أكثر خبرة وأقرب إلى معرفة الحالة بالتشخيص الجيد..

فقالت فاتن بصوت جاء ضعيفاً واهناً:

- لا تبالغا! إنه عَرَض من أعراض البرد.. وسوف يزول .

بينما كانت تتحرك في بطء وإعياء.

فقال مدحت يطمئنها:

- هو ذلك إن شاء الله.. ولكن لِمَ لا نطمئن ونجعل طبيباً أخر يصف حالتك..

وقد يكون لديه دواء أفضل؟

وقالت عفاف مداعبة:"هنيئاً لكَ بها يا عم مدحت.. إنها لا تريدك أن تسرف.. وتسعى جاهدة لأن توفر لك نقودك.. فلا تنفقها على الأطباء.. حتى ولو كانت هي المريضة"

وضحكوا، بينما جاءت ضحكة فاتن مكتومة، خافتة، ومع ضحكتها المكتومة، تعرضت لنوبة قاسية من السعال، حتى نال السعال من حنجرتها، وأبحَّ صوتها، وقبل أن يأتي المساء، حيث موعد الطبيب، كانت فاتن تسعل سعالاً شديداً، يهتز له جسدها الهزيل، وتدمع عيناها من شدته، وارتعب مدحت، وتجمّد الدم في عروقه، وانتفض مذعوراً، وخفق قلب عفاف، خفقة انخلع لها صدرها من مكانه، فقد لاحظ كلاهما بقعاً من الدم في المنديل الذي تسعل فيه فاتن، كما بدأ صدرها يعلو وينخفض، وجاءت أنفاسها مضطربة،

وتنفست بصعوبة، ولشدة سعالها فقد احمرت عيناها، فانتفضت عفاف في هلع..

- يا إلهي .. الحالة لا تُبشِّر بالخير يا مدحت.. بل تسوء.. عليك استعجال الطبيب..

قالت عفاف ذلك وقد سيطر عليها خوف قاتل، وما أن قالت ذلك حتى انتهى إلى الآذان صوت جرس باب الشقة، فاتجه مدحت مسرعاً إلى الباب قائلاً ، بعد أن نظر من خلال عدسة الباب:

- الحمد لله.. إنه الطبيب.. لقد جاء في موعده..

وسأل الطبيب عن أسباب الشكوى.. فأخبرته عفاف عن الحُمّى والقشعريرة، والسعال الذي أبحَّ صوتها، وأنها قد بصقت دماً! كما لم تنسَ أن تخبره عن نقص الوزن، وانعدام الشهية، والتعرُّق الليلي، فقد خبرت حالتها جيدا..

وضع الطبيب السماعة على أذنه، وأخذ ينقر بالسبابة على صدر فاتن، وظهرها وكل من رئتيها، ويعيد النقر على الرئة اليمنى، ثم على الرئة اليسرى، ثم يعود للنقر على الرئة اليمنى، وبعد إجراء الكشف، جلس الطبيب وأخذ يجول بنظراته بين عيني عفاف وعيني

مدحت، وكأنه يأخذ وقتاً كافياً للبحث عن الكلمات، ومن ثم قال بهدوء:

- لا شك أن المصارحة مطلوبة.. حتى يتهيأ المريض للعلاج.. ويُقبل بجدية على تناول الأدوية باهتمام.. دون تفريط.. فإذا ما تم تناول العلاج كماهو مطلوب.. فالشفاء بإذن الله مأمول..

وألجَمْ الخوف والذعر لسان عفاف، فلازمت الصمت ولكنها وإن استطاعت السيطرة على لسانها فلم يقل شيئا، إلا أنها لم تستطع السيطرة على قلبها الذي كاد أن ينخلع من سرعة ضرباته، ومن الخفقان المضطرب، فوقفت تنتظر كلمات الطبيب لتشخيص

الحالة، كمن يقف أمام هيئة المحكمة، ينتظر النطق بالحكم،

وكادت الأرض تميد بمدحت، وقد التمعت عيناه ذعراً، وتاهت منه الكلمات، وشردت منه الأفكار، وأما فاتن، فقد أسلمت جسدها للفراش، وأسلمت روحها ونفسها لله، فهو خالقها، وهو شافيها مهما كان المرض، وأخيراً جاء النطق بالحكم، وانخلعت القلوب، قال الطبيب:

- حسب ظني.. فإنني أشك أن الرئة اليمنى .. بها مباديء سُلّ..

ولو أن صاعقة سقطت في الحجرة، لما أحدثت هذا الرعب في النفوس كما أحدث اسم

المرض فور أن نطق به لسان الطبيب، وفي محاولة بائسة من الطبيب أن يخفف من وقع الكلمة، أردف، متحفظاً:

- ولكنني لن أجزم بشيء الآن..

وحدد لهم إسم الدكتور الذي يثق في دقة نتائج الأجهزة لديه، لتصوير الصدر
بالأشعة، ويثق في خبرته أيضاً، كما حدد لهم إسم معمل التحاليل الطبية الذي يثق في نتائج التحاليل التي يجريها، وأضاف، متواضعاً:

- فإذا أثبتت صور الأشعة أنني مخطيء ، وأيضا نتائج التحاليل الطبية، فلا بأس والحمد لله، وأما في حالة ثبوت

الإصابة بالمرض، فالعلاج بإذن الله ناجع ولا خوف.

إن لكلمة السُلّ وقع رهيب على النفوس والقلوب، و يا لها من كلمة، ويا له من إسم! لقد سمعتها فاتن فكانت مطرقة هوت على رأسها من عل، حطمت جسدها، هشمت رأسها، وسحقت معنوياتها، وكانت منشاراً قاطعاً، تلقاها مدحت، فتقطعت بها نياط قلبه، وتساءل في لهجة المفجوع:

- سُلّ؟!

وأحاط رأسه براحتيه، مرددا في فزع قاتل:

- سُلّ؟! .. يا إلهي!

ولم يكن الإضطراب والإنزعاج الذي أصاب مدحت ليخفى على الطبيب، فقال له في نبرة مطمئنة:

- فلتعلم أن نسبة الشفاء من هذا المرض تصل إلى 90 % من الحالات المصابة، إذا التزم المريض بتناول العلاج الصحيح، والتزم الراحة التامة والتعاون مع الطبيب وخضع للمراقبة والرعاية الطبية الدقيقة خلال فترة العلاج، وذلك لأن عدم تناول الأدوية حسب الأوقات، أو المدة التي يقررها له الطبيب، ويصفها له، سوف يمنح ذلك للجرثومة الفرصة لأن تصبح

أكثر مقاومة للعلاج، وهو ما يجعل من المهم بمكان أن يلتزم المريض بتعليمات الطبيب..وأرى أنه من الضروري.. أن يتم العلاج تحت إشراف

ومراقبة الطبيب بالمستشفى. إلا إذا كان التشخيص على غير ما تقول

صور الأشعة. وعليها بالغذاء الجيد، والراحة التامة، والهواء الجاف..

وتساءل الطبيب إذا كان أحد من أقاربها قد أصيب بهذا المرض، لأنه مرض وراثي، وكانت الإجابة أنه لا أحد يعلم عن هذا الأمر شيئاً، حتى فاتن نفسها لا تعرف ..

وفجأة، صرخت فاتن بصوت جاء ضعيفا، وكأنه آت من بئر سحيق:

- فليساعدني أحدكم.. إنني لا أستطيع التنفس..

وأخذ جسدها النحيل يهتز هزات مخيفة، ويرتعش بعنف، وانهمرت الدموع من عينيها، ولا زال جسدها الهزيل يهتز من الرعب، ودامت النوبه ربما خمسة عشر دقيقة، أفاقت بعدها، واستردت قدرتها على الكلام، ولم تزد عن أن تقول وتردد:

- أللهم يا أرحم الراحمين.. أللهم ارحمني برحمتك.. أللهم إني أسألك الشفاء والعافية..

وتابعت، وهي تمسك رأسها بين راحتيها:

- إن رأسي ثقيل.. تكاد تنفجر..

ومسح مدحت رأسها بعطف ورفق، ومال بوجهه فقبل جبهتها، وقالت دموعه ما لم تستطع شفتاه أن تقوله، ثم تناول يدها، وانخرط في البكاء ، ولم تكن عفاف أفضل منهما حالاً، ولا أكثر تماسكاً، فإن حبها لصديقتها فاتن يملأ قلبها، ويغمر حياتها، وقد انهارت، وارتمت على كرسي بجوارالفراش، وأخفت وجهها بين راحتيها، وأجهشت بالبكاء، ورغمه، تماسك مدحت، فقد كان عليه أن يسيطر على أعصابه، أو أنه كان عليه أن يدّعي التماسك..

وجاءت صور الأشعة بما جاءت به نتيجة الكشف واتفق مع نتيجة التحاليل الطبية

وكان على فاتن أن تنتقل إلى المستشفي للعلاج، وشعرت أنه عليها أن تبدأ

المبادرة، وأن عليها وحدها إذكاء روح التفاؤل في المكان، والتيقن بأن العلاج ناجع بإذن الله، ألم يقل الطبيب أن الإرادة القوية والحالة النفسية الجيدة تفيد كثيرا في تقدم الشفاء، وأنها تعتبر جزءا مهما من العلاج؟! وطالب بالتماسك أمام هذا المرض وعدم الإنهزام أوالإنبطاح أمامه، كما كانت تعلم أيضا أن الطاقة الإيجابية هي ما يحتاج إليه الجميع في هذه الظروف الصعبة الثقيلة،

وكان الجميع بمن فيهم هي نفسها يعلمون أنها إنما تحاول أن تستجمع شجاعتها، وتستدعي قدرات جبارة في عقلها ونفسها وقلبها، ربما لا تمتلكها أصلا، إلا أن المحاولة شيء جيد، قالت فاتن في محاولة لاستدعاء روح التحدي:

- سوف أمكث في المستشفي للعلاج، ولن يحتاج الإستشفاء إلا ستة أشهر.. بإذن الله.. وسوف ألتزم بالنصائح التي نصحني الطبيب بها..

وفي إشارة إلى عرفانها بوفاء صديقتها عفاف، قالت.. وهي تتكلف ابتسامة وشت بألم

تعانيه، وقد ظهر أثره على وجهها، وتجسد في دمعة حبستها، ترقرقت في عينيها:

- أما عن رعاية البيت.. ورعاية مدحت والأولاد.. فأعلم أن صديقتي وحبيبتي عفاف كفيلة بها.. وأنا أعلم أنها تموت في كل مرة ترى فيها جسدي ينحل.. والمرض يشتد..

ولم تقل عفاف شيئا، فلم يسعفها البكاء لأن تقول شيئا، بل أنها لم تجد الكلمات، فمالت عليها واستوعبتها بين ذراعيها، وضمتها في حضن حنون، استمرعدة دقائق، ذرفتا خلاله كل الدموع، وبكيتا من الأعماق، وكان

لمدحت نصيب من ذرف الدموع، مما دعى فاتن لأن تقول:

- أما حبيبي مدحت فعليه أن يتحمل بُعدي عن البيت ستة أشهر.. وأعده أنني بعدها لن أفارقه أبداً..

أما الأولاد فقد كانوا بعيدين عن المشهد، هكذا أراد لهم الآباء، حتى يغيب الحزن عن قلوبهم الصغيرة، وانتقلت فاتن إلى المستشفى ..

وجد مدحت للسيارة مكاناً تحت المظلة بجوار سور المستشفى، وتأبط ذراع فاتن وقد تأبطت عفاف ذراعها الآخر، فلم تشأ فاتن أن تذهب إلى المستشفى في سيارة إسعاف،

متعللة بأن حالتها ليست بهذا السوء والحمد لله..

كان المشهد العام للمستشفى من الخارج والحدائق والأشجار من حولها، منظر يبهج القلوب، ويُذهب عن النفس الحزن والإكتآب، ويبعث على الطمأنينة، اتجهوا إلى الإستعلامات، وجوه الجميع باشّة، المعاملات طيبة، إن هي إلا دقائق معدودة وكانت فاتن ترقد على سرير، في الدور الثالث، في غرفة تستوعب سريراً واحداً، وكان بالغرفة، كراسي جلدية ونافذة وضع على عتبتها أصيصة جميلة للزهور، وأهم من ذلك، كان الحمام بالغرفة نظيفاوبحالة جيدة، وبعد دقائق

جاءت السيدة حسناء إلى المستشفى ومعها حسن وفرح.. وفجأة أصابتها نوبة من السعال، فراحت تسعل بلا انقطاع، تهزها الرعشات بعنف، حتى لتحسب أن بقايا الحياة فيها تهجر صدرها، وقد عِيلَ صبرها، فراحت تتعجل الرحيل من جسدها الذي قتله الداء.

وعند مغادرتها المستشفى، أجهشت السيدة حسناء بالبكاء، وكانت تحاول التماسك

هي وفرح ، ولكن البكاء كان أقوى منهما..

وكثيراً ما شعرت فاتن بروحها تنسَلّ من جسدها، وكثيراً ما شعرت بالألم يمزقها، وانكمشت، وأصبح يغطي عظامها طبقة

رقيقة من اللحم، فكان شكلها يوحي بالدجاجة التى نُتِفَ ريشُها في التوّ، كما أصبحت عيناها غائرتان، وكست الصفرة وجهها، بل كل جسدها، أما السعال، فلم يكن لينقطع ليل نهار، فكانت تسعل أحيانا بشدة، حتى تدمع عيناها، وتشعر أن روحها تكاد تغادر جسدها، وقد انقطعت أنفاسها، وبينما كانت تسعل في نوبة قوية من السعال ، دخلت أم مدحت الغرفة باكية، تمطر عيناها دموعاً ملتهبة حارة، وتبعتها هند وسميحة، وقد احمرت عيون الجميع من البكاء، طوال الطريق من الفيوم إلى القاهرة في حزن وألم، ثم دخل فؤاد وتبعه طارق، أما ممدوح

فكان يساعد الأب على السير، ومعه وفاء، فإن البرد قارس، ولم يعد الجسد يتحمل مثل الخوالي من الأيام.

وكثّف الجميع من الإهتمام بها وبحالتها خوفا من أن تتدهور، أو تنتكس، فالأطباء يروحون ويغدون لمتابعة الحالة باهتمام،والتأكد من عدم ارتفاع درجة حرارتها، والإسراع بعمل اللازم إذا ما ارتفعت، ويكشفون دورياً على الصدر، والإطمئنان عليها، وعلى تناولها للعلاج بانتظام..

وبدأت صحتها تتحسن، فكانت شمعة جديدة تضاء كل يوم في ظلمة المرض السوداء فتضيء ركناً من أركان نفسها التي كاد

الخوف أن يقتلها، وشيئا فشيئا، مع كل شمعة جديدة، تتبدد الظلمة، لكي يحل محلها نور الأمل، ونور الشفاء، وتصفو حياتها، ويشرق وجهها، واستيقظت الشمس، وراحت تنشر من السماء شعاعها الوردي فيتلألأ على الأرض ويكسوها بالدفء والنور والجمال، وتستفيق العصافير، فتبعث الحياة والحيوية في الصباح بأغاريدها المرحة التي تنتشر في الفضاء مع تموجات أجنحتها الرقيقة، وتحسنت الحالة مع مرور الأيام، تحت الرعاية الطبية الدقيقة، وكان علي فاتن أن تكمل ستة أشهر كاملة، تحت الرعاية الطبية

في المستشفى، ولم تكن عفاف تتركها يوماً واحداً بدون زيارة.

- الحمد لله.. السعال تقريبا إختفى.. أو لنَقُل أنه ندر إلى حد ما.. والهُزال لم يعد هزالاً.. وشحوب الوجه تحول إلى ما يشبه الإشراق.. ليس إشراقا.. ولكنه على أي حال.. ليس شحوبا..

قال مدحت ذلك وهو يتناول قهوته مساءً بينما كانت عفاف تساعد دينا في

استذكار اللغة الإنجليزية، وكان وجهه بشوشا وفي عينيه البِشر والطمأنينة، وعلى ثغره ابتسامة، هل هي ابتسامة سرور، أو ابتسامة عرفان وتقدير لدور عفاف في

المرور من هذه الأزمة بخير، ولم تكن عفاف أقل منه سعادة بتحسن حالة فاتن، فقالت مبتسمة:

- الحمد لله.. إن حالتها تحسنت كثيراً..

وضحك مدحت قائلا:

- تقول فاتن أن نصف العلاج ساهم به الأطباء في المستشفى.. وأما النصف الأخر فقد ساهمت به عفاف في البيت..

وردت عفاف بتواضع:

- ما فعلتُ إلا ما كان عليّ فعله.. ولو تبودلت الأماكن.. لفعلت فاتن مثلما فعلتُ أنا.. وربما أكثر.. وإنها لتستحق

مني أكثر مما أفعل.. تعرف يا مدحت.. فاتن بالنسبة لي حد عظيم جداً.. حد رائع.. شخصية جذابة.. كل ما أفعله من أجلها أقل مما أريد أن أفعله وإن لها مكانة خاصة في قلبي..انني أحبها جداً.

فقال بخبث.. وقد اتسعت ابتسامته:

- رويدك.. رويدك.. كل ما تفعليه فقط من أجلها؟

وارتبكت عفاف بشدة، فقد فاجأها مدحت بسؤال لم تكن لتتوقعه، وألجمت المفاجأة لسانها، وعبّرَت عيناها عن ارتباكها، ونظرت إليه في دهشة، وجسدت لغة جسدها

هذا الإرتباك، بالحركات الإرتجالية التي لا تعني شيئا، والتي أتت بها يديها، ولاذت بالصمت شفتيها، ومن الغريب أن تستدعي ذاكرتها في ثانية واحدة هذا الذي حدث بينهما في الحافلة، عندما سافرت إلى الفيوم بصحبته. فكرت..

"يا إلهي.. إن الموقف يتكرر تماماً.. مع تبديل المواقع! فعندما كان يثني على أبي وأمي.. قلت له: رويدك.. رويدك.. وماذا إذن عن إبنتهما"

واستتلى مبتسماً:

- هل تعنين أنه ليس أيضا من أجل بسنت؟

أجابت، متكلفه الإبتسام:

- أنت تعلم مدى حبي لبسنت.. وأيضاً مصطفى ودينا.. إنهم مثل أشرقت.. أبنائي.. وفي قلبي..

وانشغل مدحت بعد ذلك بمشاهدة التلفاز، بينما انشغلت عفاف بدروس الأولاد.

وكانت ذكرياتها الجميلة مع سمير تداعب خيالها في كثير من الأحيان، فتبدو مبتسمة رغم شرودها، عندما تتراءى لها أمام عينيها كل لحظات الرومانسية والحب، في شريط هو أشبه بفيلم، تتابع أحداثه في الواقع لا في الخيال، حتى إذا أفاقت من شرودها، أحست بحجم ما فقدت بفقدانه، وبعمق الحزن الذي

غلّف قلبها لفراقه، فقد أحبها سمير حُباً جَماً، وكانت له الزوجة، والحبيبة، والأم، والحياة كلها، ولم يكن بوسعها إلا أن تحبه وتهبه قلبها.. بعد أن منحها كل شيء، كان سمير يحمل قلبا عظيما، تربعت وحدها بداخله، وملأت كيانه، وكانت ترى نفسها في عينيه وملء نفسه وربيع حياته، فإذا خرج من البيت، ودعها بكلمات الحب والغزل، وقبلة حانية على خدها أو جبهتها أو شفتيها، وإتصل بها كلما واتته الفرصه، وإذا عاد إلى البيت، دخل بالبِشر والوداد، واستقبلها بحضن دافيء وقبلات مشتاق، وحديث مُحِب، وخلال وجوده في البيت معها، لم يكن يسري بالبيت

إلا كل ما هو رومانسي، وكأن حياتها معه كلها شهرعسل، وهو ما جعلها تشتاق إلى وجوده إذا غاب، وتسعد بوجوده إذا عاد، ولا تطيق فراقه.

في كل ركن من أركان بيتها في الكويت، كانت له ذكرى جميلة، مع مداعباته، التي ما كانت تنتهي، كان يداعبها في المطبخ، في الحمام، في الصالة، في حجرة الصالون، في الفراش، على الأرض، في كل ركن من أركان البيت، ذكريات رائعة، كيف لا تحبه، كيف لها ألا تعشقه، بل كيف لها ألا تحزن على فراقه العمر كله؟!

كان يرى في عينيها كل النساء، ويراها في عيني كل النساء، لقد كانت هي محور حياته.
لكم أخذت أشرقت في حضنها، في الليالي الحزينة، وذرفت الدمع، حتى جفت مآقيها، وخياله لا يفارقها، حتى يطلع الفجر، وكانت عندما تسمع أغنية أم كلثوم:

كـان لك معايه أجمـل حكايـة
في العمـر كله
سـنين بحالـها ما فات جمالها
على حـب قبـله
ذكريات حبي وحبك .. مانسهاش
هــي أيامي إللي قلبي فيها عـاش
فيـها أحـلام قلتـها وحقـقتـها لـي

فيـها أحـلام لسه أنا ما قلتـهاش

كانت تذوب ألما، ويبكي قلبها، وتسيل دموعها أنهاراً، وهي تقف عند كل كلمة من كلمات هذه الأغنية، إن حب سمير يجري في دمها، وقد احتملت خطبها جلدة، وصبرت عليه عزيزة النفس، عميقة الحزن، وصرفت نفسها عن الحياة ولذاتها، وعاشت فقط لإبنتها أشرقت، وذكرى زوجها، وهو ما جعل فاتن ومدحت يرفقان

بها أشد الرفق، ويكبرانها، أعظم إكبار، فكانا يحاولان إخراجها من عزلتها بقدر الإمكان، حتى لا تخلو إلى أحزانها ووحدتها،

فبذلا الكثير من الجهد في هذا السبيل ، ومن هنا كثر الإتصال بها، واشتدت أواصر المحبة، وقلما كان يمضي يوم لا يجمعهم، ولم تكن فاتن تشتري ثياب لها، أو حتى لمدحت، إلا بصحبتها، وبأخذ رأيها واستشارتها.

وأفاقت عفاف على صوت مدحت يناديها:

- أقبلي يا عفاف.. إن القناة الثانية تعرض فيلم "دعاء الكروان".. وأذكر أنك تحبين مشاهدة هذا الفيلم!

وكانت عفاف تعشق مشاهدة "فاتن حمامه" التي أبدعت في هذا الفيلم، مجسدة دور

"آمنة" بعبقرية وإقتدار، وأقبلت عفاف واستقرت إلى مقعد أمام التلفاز، وقال:

- لقد جسدت "فاتن حمامة" الصراع بين شخصية "آمنه التي إنما جاءت للإنتقام" وشخصية "آمنه التي وقعت في حب من عليها الإنتقام منه" بذكاء شديد وقدرة هائلة..

- نعم.. كانت "آمنه .. المحبة" قد أحبته بعنف برغمها حتى أصبح يملأ عليها حياتها.. لا ترى أحداً غيره.. ولا تسمع أحداً غيره.. في اليقظة وحتى في النوم.. بل أصبح هو حياتها.. لقد أنساها كل شيء.. فأنساها حتى ذكرى

أختها.. التي ما جاءت هنا إلا من أجل الإنتقام لها..

- وهذا ما انتهي إليه هو أيضاً.. فلقد انتهى به الأمر إلى أن أحبها حبا جماً.. بلغ به حد الجنون..

- ولكنها كانت تصارع الحب فيها فتصرعه.. فإذا مالت إلى الإستسلام والتردّي في الهوة السحيقة التي هوت فيها أختها.. تمثلت إليها "آمنه المنتقمة" فأيقظت فيها الكبرياء.. وأعادت إليها ذكرى "هنادي" والإنتقام..

فترتد " آمنه.. المحبة " وتتراجع عن الهزيمة والإستسلام.. وتعود لتغالب

العشق فيها.. ولا تُذعِن لقلبها..

- وأصبح هو أيضاً يتمنى جسد آمنه بغير إلحاح.. وهو ما يعني صراع رهيب بداخله.. بين رغبته فيها.. فيفعل كما فعل مع هنادي وأمثالها من الفتيات.. وبين حبه لها.. الذي جعله يُبقي عليها دون إيذاء..
- فكان صراعها.. بين أن تُقبِل على حبيبها.. أو أن تهرب منه..
- كما كان صراعه.. بين أن يُبقي عليها.. دون إيذاءها.. منتصراً لحبه.. أو أن يتركها تمضي.. ويهرب هو منها منتصراً لكبريائه..

- فإذا به يكتشف حبها.. فيكشف لها عن حبه..
- إلا أنها تكشف له عن الحائل الذي يحول بينهما.. وبين قلبيهما..
- فهناك حائل إذن.. وهو حائل عظيم.. عليهما الإعتراف بوجوده..

وبعد انتهاء الفيلم كان الوقت متقدما من الليل، عندها غادرت عفاف إلى شقتها ومعها إبنتها أشرقت.

نامت أشرقت، وجافاها النوم، واستلقت على الفراش، وتلاعبت بها الأفكار وأخذتها إلى كل مأخذ، إلى ماذا يرمي مدحت؟ لماذا يحاول إيقاظ ما لا يمكن إيقاظه؟ إن الحائل

بينهما ليست ذكريات، حتى لو كانت ذكريات "هنادي" إنها " فاتن" إنها لحم ودم، حياة شامخة في الحقيقة وفي القلب، وليست مجرد ذكريات،

إنها فاتن، الصديقة الرائعة، إنه حبها لسمير.

ولم يكن مدحت أفضل منها حالاً، فها هو يرقد في فراشه .. وقد تعلقت أنظاره

إلى لا شيء في سماء الغرفة، إنه لا يعرف كيف يفكر، فقد تشتتت أفكاره، ولا يعرف ماذا يفعل، إن فاتن لا تستحق منه الإهمال ولا النسيان ولا الخيانة، وتذكر كيف بهرته ذات يوم، بل اختطفته بجمالها وشخصيتها، وذكائها، وقلبها الجميل

المحب لكل الناس، وإخلاصها بغير حدود.
إنها الآن تعاني من مرض عضال،
تعيش آلاماً لا يعلم مداها إلا الله ، أهذا هو الوقت المناسب للإستسلام لصراعات من هذا القبيل؟!

وفي اليوم التالي، عندما وصل مدحت إلى المستشفى، وجد الأصدقاء سامي وموريس، وزوجتيهما، وقد سبقوه إلى زيارة فاتن، وكانت هناك السيدة حسناء وفرح ، إلا أن فاتن لم تكن اليوم على ما يرام، فقد عاد إليها السعال، ولو أنه أخف عن ذي قبل، كما أنه لم يكن مصحوباً بالدم، وعاد وجهها شاحباً، كما لاحظ مدحت أن عينيها كانتا غائرتين

قليلاً، وتبادل الأصدقاء الأحاديث، والتعرف على أخبار بعضهم التجارية والأسرية وبعض أحاديث الماضي، وجاء الطبيب المعالج لمعرفة إلى أين وصلت حالة فاتن، وكشف عليها، واطمأن، وطمأنهم كثيراً رغم أن الظاهر يقول عكس ذلك، فقال أن معاودة السعال بعض الأوقات لا يعني تراجع الحالة الصحية للمريض، بل أن هناك مؤشرات تفيد تقدم العلاج، والإقتراب من الشفاء، مؤشرات إيجابية، وليس عليها أن تقلق.

وقالت فاتن لزوجها، وقلق يخامرها:

- إن حلما يراودني كثيراً يا مدحت.. وما يزعجني هو تكراره..

فقالت لها عفاف ضاحكة:

- ما أكثر أحلامنا يا فاتن.. أيقلقنا حلم؟ إذن فلن ننجو من القلق، ناهيك عن الكوابيس التي تجعلنا نقفز من الفراش خائفين، بل مرعوبين، وقلوبنا تخفق وكأنها حقيقة لا أحلام..

وقال مدحت، باسماً:

- خيراً يا فاتن.. ماذا ترين في نومك؟

وقد قال ذلك للدعابة، فهو لا يؤمن بصحة كلام من يدّعون أن بإمكانهم تفسير الأحلام، إلا أنه يؤمن بوجود دلالات الرؤى والأحلام، ولا بأس من قضاء الوقت في الحديث عن

الأحلام وتفسيراتها على سبيل التسلية. قالت، ولم يزل صوتها خافتاً ضعيفاً:

- إنني أراني وعفاف والأولاد.. جميعنا نقف فوق كوبري.. وإنه نفس الكوبري في كل مرة.. وأنت تسير فوق الماء.. تحت الكوبري.. وقد مددتُ إليكَ يدي.. عسى أن تستطيع أن تمسك بها.. فتخرج من الماء.. ولكنك لا تفعل.. وأناديك.. فلا تجيب.. وكأنك لا تسمع..

وسألته، وكأنه كان معها في الحلم! :

- لماذا لم تجب؟ أحقا لم تكن تسمعني؟ ولماذا لم تمسك يدي الممدودة إليك فتنجو؟

وضحك مدحت قائلاً:

- ربنا يستر.. فأنا لا أجيد السباحة!

وضحكت عفاف، و قالت تشكك في أهمية تفسير الأحلام:

- ربما كانت أضغاث أحلام.. فلا تعيريها اهتمامكِ..

ولكن فاتن كانت تعطي أهمية كبيرة للأحلام في حياتها، فقد اعتادت أن تحكي أحلامها لأمها وأختها، وحتى لصديقاتها، و كثيراً ما كانت تأخذ تفسيراتهم مأخذ الجد والإرتياح، وهي تذكر حلمها ذات يوم، وقد تذكرته عفاف نفسها الآن، فقبل يوم واحد من خطوبة عفاف، حلمت أن أحدهم قد ألقى منديلاً من

الطائرة لعفاف التي أخذت المنديل وفرحت به كثيراً، وكان تفسير الحلم، حسب والدتها، أن عريساً يعمل بالخارج سوف يأتي ويخطب عفاف، وهو ما تحقق في اليوم التالي فعلاً! حيث جاء سمير وتقدم للأسرة طالبا يدها للزواج! إلا أن فاتن لم تكن لتعتبرها صدفة! فإن تحقيق حلم سيدنا يوسف لم يكن صدفة، وطبعا ليس التشبيه هنا مقصوداً، قالت فاتن، ولم يزل القلق يكدر صفوها:

- إن ما يقلقني.. هو تكرار هذا الحلم.. فهو شيء مزعج..

وبعد لحظات من الصمت.. استدركت.. وكأنما تذكرت شيئا هاماً ، قالت:

- من الغريب أنني كنتُ أمد إليك يدي.. في حين لم تفعل عفاف..

وضحك مدحت، وأرسل عينيه إلى عفاف، متسائلاً:

- لقد هلكتُ.. لماذا لا تمدي إليّ يدك يا عفاف لإنقاذي؟

وتبسمت عفاف، وأشارت إلى فاتن بيدها قائلة:

- إن لديكَ منقذ واحد يا مدحت.. ولن يكون إلا فاتن**!** وكان عليكَ أن تستفيد من فرصة يدها الممدودة إليك.. وإلا.. فلا تلومن إلا نفسك..

وضحكت فاتن، وعلقت متوعدة:

- أو يغرق ويهلك.. بعد أن أسحب يدي!

وفي المساء ..

وبعد أن تناول الجميع طعام العشاء، همّت عفاف باصطحاب أشرقت للمغادرة إلى شقتها، إلا أن دينا وأيضا مصطفى طلبا منها أن تُبقى أشرقت معهما بعض الوقت كي يلعبوا معاً، وشاطرهما مدحت الرأي والرجاء، بأن يسهروا جميعاً

وقال مازحا:

- فما أطال النوم عمراً.. وما قصر في الأعمار طول السهر!

وفرح الأطفال بالإستجابة لطلبهم، وأرادت عفاف أن تشغل نفسها بعمل أي شيء.. فسألت مدحت:

- هل ترغب في فنجان قهوة؟

أجاب بلهفة:

- يا ريت!

ودخلت المطبخ متشاغلة، وأنهمكت في إعداد القهوة، كان يشاهد التلفاز، جاءت له بالقهوة، ووضعتها على الطاولة الصغيرة، أمامه، قال وهو يتناول الفنجان، وعيناه تلمعان، وثغره باسم:

- أشكرك يا عفاف..

واستقرت في المقعد المقابل.. ترتشف قهوتها، تشاغلت باحتساء القهوة، وبالفيلم الأجنبي الذي يعرض على القناة الثانية، ولكنها في حقيقة الأمر شاردة الفكر، لا تدري لماذا ثار البركان، ولماذا ينكأ مدحت الجراح؟ فهي لا يمكن أن تُقْدِم على

خطوة غير محسوبة، هناك حبها لسمير، هناك صديقتها المخلصة فاتن، هناك

هناك القيم التي لا يمكن أن تكون الخيانة أحد مكوناتها، إنها تعلم أن مدحت لم يكن ليقدمها لسمير زوجة له، إلا لأن أحواله المادية البائسة لم تكن تسمح له بالزواج في ذاك الوقت، لقد كانت أيامه كلها عسيرة، ولم يكن

دخله الشهري ليفتح بيتاً سعيداً يضم زوجة باحتياجاتها التي لا تنتهي، وأطفالاً في حاجة إلى
مدارس ودروس خصوصية وعلاج وأدوية، وغيره الكثير من صور الإنفاق،
والحب وحده لا يكفي، بل أن الحب لن يستطيع أن يقاوم كل هذه الزلازل، وسوف يستقر في النهاية تحت أنقاض هذه الحياة البائسة والسعادة الوهمية، ولن يكون هناك سعادة، كما لن يكون هناك حب، فقط أنقاض، فقط ركام، ولن يخلف الحب وراءه إلا التعاسة والبؤس، وآلام وندم لا سبيل إلى وصفه، آلام حب يموت تحت أقدام فقر

يدوسه ويسحقه بلا رحمة، آلام آمال تذيبها دموع تذرفها عيون أذبلتها الحاجة وأبكاها العوز والحرمان والإنكسار.

وتذكّرت هي نفسها يوم بكت، عندما أخبرها بأن أحد جيرانهم صعد إلى سطح البيت الذي يقيم به، بعد أن خرج لليوم الثاني يبحث عن عمل فلم يجد، وقد ظل أولاده جياع منذ الليلة السابقة، فلم يتحمل جوع أولاده، ولا سبيل له ولا حول ولا قوة، ففقد عقله، بعد أن فقد الأمل في إشباع هذه الأفواة التي أنجبها ومنحها الوجود إلا أنه لم يستطع أن يمنحهم لقمة العيش، ولم يمنحهم إلا معاناة الجوع والعطش، ففقد رشده، وصعد إلى السطح،

وأنهى حياته بأن أرسل جسده إلى الفضاء يحلق فيه قليلاً قبل أن يرتطم بالأرض جثة هامدة وعظام مهشمة، وبكت يومها عفاف، كما بكى الحي كله، مأساة هذا الرجل، بل مأساة أولاده! ليس معنى هذا أنه قد يحدث لمدحت ما يشبهه، إلا أن ذلك يعني أن أقدام الفقر سوف تكون قاسية إذا ما سحقت الفؤاد، ثقيلة كقدم فيل تسحق نملة! فهل تلوم مدحت الذي فكر قبل أن يختار؟، لقد انتهى كل شيء، وما فات قد فات، وأخذت عفاف تلعن المرض، فلولا مرض فاتن ما توافر لهما هذه المساحة من الوقت ولما كانت بينهما هذه

الأحاديث ولما استيقظ الماضي، ولما كان هذا الصراع.

وإلى كل ذلك إنصرفت أفكار مدحت، حتى أنه انتفض في جلسته وارتعب لفكرة جالت بخاطره .."يا إلهي.. هل يمكن أن تكون فاتن قد أحست بشيء؟ ما سر هذا الحلم الغريب الذي يراودها؟ إنها تراني أفعل شيئا خطأ.. أو أن هناك خطأ ما يحدث.. فالناس يسيرون على الأرض وليس فوق الماء..كما أنهم يعبرون فوق الكوبري وليس أسفله.. والأكثر وضوحا من هذا أنني لا أعرف إلى من أمد يدي لإنقاذي من الماء..هل أمدها إلي فاتن أم إلى عفاف..يا إلهي!

وقالت عفاف تحدث نفسها.."والله إنها لهالكة.. إذا وجدت نفسها بين أنياب مرض قاتل، وطعنات زوج خائن، وجحود صديقة غادرة! الله وحده يعلم يا فاتن أنني لن أشترك في هذا الإثم.. ولن أخون صداقتك .. ولن أخذل ثقتك .."

وفي ذات مساء، وقد يأس من محاولاته، سألها مدحت، ولم يكن أمامه إلا المواجهة الصريحة:

- إلى أين تهربين مني يا عفاف؟ وأنتِ تعلمين أنكِ لا زلتِ في قلبي..

فقالت، وكأنها أرادت أن تسمع منه هذا السؤال الصريح حتى تخبره بما بداخلها

صراحة لإنهاء صراع ليس من المفضل أن يطول، وكانت كلماتها تخرج من بين شفتيها قوية نارية، كما أطلقت عيناها نظرات كالسهام ثاقبة متحدية،ألهبت عينيه:

- أهرب منك.. إلى جانب فاتن.. أهرب منك إلى شاطيء الأمان.. لن نكون في أمان يا مدحت.. في المركب الذي تريد أن نبحر فيه معا.. علينا أن نهرب من مياه هذا البحر العميق يا مدحت.. ليس أمامك في هذا البحر إلا أن تغرق.. وتأخذك أمواجه العاتية إلى أعماق سحيقة.. لا مهرب منها.. ولا نجاة.. وبعد فوات الأوان.. لن يفيد الندم..فلا

تبحث عن ماضي قد فات على جثة فاتن.. وهي من تحبك وتخلص لك.. حسبُها من الأيام.. مرض فتّاك.. فكن لها عوناً عليه.. ولا تكن له عوناً عليها..

قال في رجاء، معتذرا عن الماضي، وقد غمره فيض من الحزن والألم، ومزق اليأس قلبه:

- لا تلوميني على شيء أنتِ أعلمُ به.. فقد كنتُ يومها حجراً مهملاً، مُلقى تحت الأنقاض.

قالت بعناد، ونبرة جادة، وإرادة لا تلين:

- أنا لا ألومك.. ولا أتحدث عن الماضي.. ولا أنكأ الجراح.. إنني أتحدث عن حياتي التي أعيشها في الحاضر.. وعن حياتي في المستقبل.. يا مدحت لا تغضب مما أقول.. إن ما كان يوما بيننا.. قد توارى خلف زواجي لسمير، وحبي اللانهائي له.. توارى خلف صداقتي المخلصة لفاتن.. وأسدلتُ عليه ستارة كثيفة قوية.. فأنا لا أرى فيكَ إلا الصديق العزيز.. وزوج واحدة أُحِبّها وأخلص لها.. فأنا أراكما كتلة واحدة.. كياناً واحداً..وهناك دائما الزوج الرائع الذي

فقدتُ جسده.. ولكنه دائما معي.. لا يفارقني.. إنني يا مدحت لا زلتُ أعيش مأساة فقد سمير.. ولا زلتُ أتجرع الألم.. والحرمان القاتل.. والفراق المرير..إنني لا أستطيع أن أتجاوز هذا الألم.. بل لا أريد أن أتجاوزه.. إنه الشيء الوحيد الذي يُبقيني على قيد الحياة.. إنه كل ما تبقّى لي من هذه الحياة.. وإن هي إلا أيام.. وتخرج فاتن من المستشفى سالمة معافاة.. وتعود إلى بيتها وزوجها وإبنتها..

وتوقفت قليلا، ثم وجهت إليه سؤالاً قاسيا في حِدّة:

- أتفعل ذلك بزوجتك فاتن؟!

- يا عفاف..فكري في ظروفي وظروفك .. لقد زالت الأسباب التي حالت بيننا .. ولن نفترق.

- وأين القيم يا مدحت؟

قال بأسف:

- تضعنا الحياة أحيانا في أوضاع صعبة لا نستطيع أن نتخلص منها.. إلا بالتخلي عن القيم التي ندافع عنها.. والمباديء التي نؤمن بها..

قالت بحزم، وقد جحظت عيناها، فقد أدهشها أن تسمع منه ذلك:

- إذا تخلينا عن قيمنا.. نكون قد تخلينا عن كل شيء.. وإذا تخلينا عن المباديء التي نؤمن بها.. فماذا يكون قد بقيَ لدينا من ديننا؟ هل تعلم.. سيكون العالم حينئذ بربريا.. متوحشا.. إذا تخلّى الجميع عن القيم!

وفي رد فعل غاضب، استدار مدحت، وبكل قواه، ضرب باب المطبخ الخشبي

لكمة عنيفة بقبضته، ولم ينبس بكلمة، ولم تكن تعرف، هل أراد أن يسدد لها هي هذه اللكمة؟ أم أنه أراد أن يؤنِّب نفسه، ويعاقب قلبه وعقله؟

وصمتت عفاف برهة، ثم تابعت، وقد ترقرقت في عينيها الدموع:

- على أي حال.. لقد قررتُ السفر.. سوف أنتقل إلى الفيوم.. بعد تمام شفاء فاتن.. وعودتها إلى بيتها بإذن الله..

لقد ترقرقت الدموع في عينيها بسبب موقف مدحت.. إلا أنها أجهشت بالبكاء.. وانهمرت دموعها كالسيل.. بسبب قرارها الرحيل عن القاهرة.. وفراق فاتن..

وما لبثت أن جففت دمعها وقالت بثقة:

- لا بأس بالحياة في الفيوم..

قال برجاء، مستميتاً في محاولاته:

- لا تسافري إلى الفيوم.. إبقي هنا.. ولا محاولات من جانبي فيما بعد.. أعدك ..

قالت، بغير أمل فيما يقول:

- كلا.. لقد كان ذلك ممكنا قبل أن تنكأ الجراح..

ونظرت إليه في لوم وعتاب، قائلة، برجاء:

- أرجوك يا مدحت.. انا أقدِّر دوافعك.. ولكن.. كن حكيماً.. ودع هذا الأمر يمر بسلام.. بصفة خاصة أن فاتن زوجة عظيمة.. تستحق منكَ التضحية وصديقة رائعة.. تستحق مني أن أحافظ عليها..كما أنها أم حنون.. علينا

أن نساعدها لكي ترعي طفلتها في سكينة وهدوء.. وأمان.. بعيداً عن الإحباط

أرجوك يا مدحت.. لا تقترف الحماقات.. فإن من يتوغل بعيداً جداً.. لا يمكنه العوده.. صدقني.. لن يعود شيء كما كان من قبل!

في صباح اليوم التالي، توجه مدحت إلى إدارة المستشفى، فقد كان عليه سداد مبلغا من المال تحت الحساب من قيمة فاتورة العلاج، وكانت فاتن قد تماثلت للشفاء، وقرر لها الطبيب المعالج الخروج بعد أسبوع، وقد اطمأن أنها لا خوف عليها من الخروج، وأن

حالتها مطمئنة، فقد عادت إلى وجهها النضارة، والإشراق، وعاد البريق إلى عينيها.

جلست دينا على حافة الفراش، إلى جوار عمتها، بينما راحت بسنت تلهو بالدبدوب الجديد الذي اشتراه لها والدها، وأمالت دينا وجهها ليقترب من وجه العمة، وقالت لها همساً:

- أريد أن أخبرك أمراً يا عمتي ..
- ولماذا الهمس يا دينا.. لا أحد معنا في الغرفة؟

سألتها العمة باسمة، استطردت الطفلة همساً، فهي تعتقد أن ما سوف تقوله لا يقال إلا همساً!:

- كنتُ ألهو وألعب مع مصطفى وأشرقت.. وأحسستُ بالعطش.. فنهضتُ واتجهت إلى المطبخ لكي أحضر كوباً وأحضر زجاجة الماء من الثلاجة.. ولكنني توقفتُ عندما تناهى إلى أذني صوت عمو مدحت.. وصوت طنط عفاف.. قادماً من المطبخ..

وتساءلت العمة، ولكن في نبرة لا تعني شيئاً محدداً:

- وماذا كانا يفعلان في المطبخ؟

فأجابت دينا، وقد وضعت يدها فوق شفتيها، وكأنما لا تريد للكلمات أن تتبعثر أو تتناثر بعيداً!:

- كانت طنط تصنع لعمو فنجان قهوة ..

فضحكت فاتن، وقالت بنفس النبرة الهادئة:

- هذا عن طنط.. فماذا عن عمو؟

- لقد كان يقف أمام باب المطبخ من الداخل.. بينما كانت طنط تقف أمام البوتاجاز..

وما زادت فاتن عن أن إبتسمت، ناظرة إليها حتى تُكمِل، قالت بنفس الاهتمام:

- سمعت عمو يقول لها:" إلى أين تهربين مني يا عفاف؟ وأنتِ تعلمين أنكِ
لا زلتِ في قلبي.."

وتجهم وجه العمة، وجحظت عيناها، وقطبت حاجبيها دهشة، وعلقت عينيها بعيني الطفلة، كأنما تطلب منها المزيد، بالتفصيل! قالت:

- ثم ماذا؟

استطردت دينا، وقد ازداد حماسها لرواية ما حدث، فقد أحست أنها جذبت انتباه العمة لسماع ما لديها من أخبار، قالت ولا زالت تهمس:

- فقالت له طنط كلاماً كثيراً أذكر منه:

"أتفعل ذلك بزوجتك فاتن؟!"

وكادت العمة أن تفقد أعصابها، ودب في قلبها خوف ورعب، وكادت تصيح في الطفلة.. "هيا بسرعة.. قولي ما سمعتي.. ولا تنسي حرفاً واحداً.. بل أسرِعي في الحديث قبل أن أفقد عقلي!" وأرهفت السمع، لم تكن تسمع بأذنيها فقط، بل كانت تستمع إليها بأذنيها، وعينيها، بكل جسدها، بكل كيانها.

أضافت دينا، سعيدة باهتمام العمة بما تقوله!

- قال عمو:" يا عفاف..فكري في ظروفي وظروفك.. لقد زالت الأسباب التي حالت بيننا.. ولن نفترق "

وقالت له طنط من بين كلام كثير" كن حكيماً.. ودع هذا الأمر يمر بسلام.. بصفة خاصة أن فاتن زوجة عظيمة.. تستحق منكَ التضحية وصديقة رائعة.. تستحق مني أن أحافظ عليها"

وانفجرت قنبلة في رأسها، فتبعثرت وتناثرت أشلاؤها، وتسارعت أفكارها في طريق الجنون.. " يا للمصيبة.. كلام في الحب.. وذكريات الغرام.. ومزاد علني يعرضني فيه مدحت.. زوجي.. حبيبي.. يعرضني فيه للبيع.. كما يعرض حياتي كلها.. وحبي.. وإبنتي.. يعرضنا كلنا للبيع.. بلا ثمن.. بلا مقابل.. ولا يجد المشتري! "

وزلزلت العمة زلزالها، وتساءلت ودمعة رقراقة تنساب على خدها الشاحب:

"وماذا بوسعي أن أفعل بعد الآن..أليس هناك ما يحول بينهما؟.. أينكر وجودي؟

أ أنا نكرة يا مدحت؟ فماذا أكون إذاً؟ وبيتي.. وإبنتي؟ وقلبي.. وحبي.. وحياتي

أكل هذا لا وجود له؟ هواء؟ فضاء؟ أبعد هذا خيانة يا مدحت؟ "

وارتفعت حرارة فاتن، واشتدت نوبة الرعشة، وخفق قلبها بشدة ولم تكن تدري، هل هذه الأعراض بسبب المرض، أم نتيجة هذا الخبر الرهيب، وهذا الحديث القاتل، وفي براءة سألتها دينا:

- هل تبكي يا عمتو؟ هل أغضبك حديثي؟

فأجابتها بسرعة وارتباك، بعد أن أدركت أنها لاحظت دموعها التي تترقرق في عينيها، قالت:

- لا عليكِ يا حبيبتي.. إن النساء يُحبِبنَ البكاء.. فهن يبكين من الفرح، كما يبكين من الحزن، وقد تريهن يبكين بلا سبب معروف.

وضغطت على شفتيها بقوة كي لا ترتعش، وأغمضت عينيها لتمسك دمعها فلا ينسكب، وفي محاولة مستميتة، استعادت فاتن رباطة جأشها، ومسحت براحتيها دموعها،

وبسرعة، رسمت ابتسامة متكلفة على شفتيها الجامدتين، الجافتين، وأمالت وجهها إلى وجه دينا، وطبعت على خدها قبلة حانية، وسألتها بكلمات مرتعشة:

- كيف ترين طنط عفاف يا دينا؟ هل تحبينها؟

فأجابت بحماس.. وبلا تردد:

- أحبها جداً يا عمتو.. إنها تحبني أيضا.. وتعتبرني كإبنتها أشرقت..

وأسعدها أن تسمع ذلك، وسألتها بابتسام:

- وماذا ترين في عمو.. بعد هذا الحديث الذي نقلتيه لي الآن؟

- لا أعرف ما وراء هذا الحديث يا عمتو.. لقد سمعت حديثاً.. فنقلته إليكِ.. ولكن عمو هو عمو.. فأنا أحبه جداً.. ولا يعنيني ما سمعت.

- هذا ما أحببتُ أن أسمعه منكِ يا حبيبتي.. وعليكِ أن تنسي الحديث برمته.. فلا يسمعنه منكِ أحد..

قالت مؤكدة:

- أكيد يا عمتو.. فلا تخشي شيئاً..

وضحكت العمة مرة أخرى، وقالت مداعبة:

- ولكن قولي لي يا دينا.. كيف حفظتِ هذا الحديث الطويل.. لو أنكِ تحفظين

دروسكِ هكذا حفظ.. لكنتِ الأولى في المدرسة..

- يا عمتو.. وماذا يفرق الأولى عن الثالثة.. ألم أكن الثالثة في الترتيب على المدرسة؟ وعلى أي حال.. سوف أحاول أن أكون الأولى.. من أجلكِ..

و طلبت فاتن من الطفلة أن تنسى هذا الذي أخبرتها به الآن، ولكن ماذا عنها؟

هل يمكنها أن تنسى؟ هيهات، لقد تقلبت في فراشها حتى أصبح الصباح، وتقلبت معها أفكارها، وتشتتت، فقضت ليلة ساهرة حائرة أشد الحيرة، مرتبكة أعظم الارتباك، تفكر محزونة، تضطرب الخواطر في نفسها،

وبات الطريق ممهدا لرياح الشك أن تعصف بها، فأصبحت ريشة خفيفة في مهب ريح عاتية تلعب بها وتلهو كيف شاءت، وأصبحت فريسة لشك مدمر يلعب بأفكارها لعبا، وسرت في جسدها الواهن المريض رعدة عنيفة، وكأن مرض السُلّ اللعين هذا وحده غير كاف ويحتاج إلى هذه الرياح لكي تأتي بما لا تشتهي السفن، فيأتي هذا الخبر لكي يقتلها قتلا ويقتل ما قد يكون في نفسها من أمل، ويطيح بما قد يكون في قلبها من مقاومة وصبر، وشملها اضطراب رهيب، وما يقتلها أنها هنا حبيسة هذا الفراش، سجينة هذه المستشفى، أسيرة مرض السُلّ الذي لا يرحم،

ولا تدري من أمر بيتها شيئاً، ولا من أمر زوجها أمنا، كم هي عاجزة، كم هي ضعيفة، لقد اشتمل اليأس عليها اشتمالا تاما، لقد شُلّت أفكارها، ويمر طيف عفاف في خيالها فيرسل شعلة مضيئة في نفسها، ويرسل الحرارة والدفء إلى جسدها، فيبعث فيه الحيوية والنشاط والجمال والقوة، ويزيل هذه الظلمة الكثيفة التي كادت سحبها الثقيلة تغلف نفسها، كما يمر شعاع الشمس فيضيء القمر أو يصل إلى الأرض فيملأ ربوعها نورا وسحرا وخضرة وأملا وبهجة، ويخلصها من ظلمة شاملة باردة عاصفة. "ما أجملك يا عفاف .. وما أنبلك .."

هكذا تحدثت فاتن مع طيف عفاف عندما جال بخاطرها وهي وحيدة في فراش المرض في المستشفى ..

"لم تضعفي أمام قلبك، كيف تَسنّى لكِ أن تكوني قوية هكذا؟ منيعة وهو يحاول معك مرات ومرات أن يوقظ فيك الحب القديم ويعيد إليكِ مشاعر دُفِنَت منذ سنوات وسنوات، إلا أن محاولاته تنهزم أمام قوتك وعزيمتك، أي روح عظيمة هذه يا عفاف تسكن جسدك؟ وأما عنكَ يا مدحت يا زوجي يا حبيبي فماذا أقول؟

لماذا ضعفتَ يا مدحت؟ ما الذي أوقظ فيك الحب القديم لعفاف؟ ولماذا اندفعتَ وراء

قلبك؟ هل أعاتبك على ما فعلت؟ هل ألومك على محاولة هجري؟ هل أثأر منك لكرامتي، هل أثأر لحُرمتي وحُرمة بيتي التي أنتهِكت؟ هل ألقي حجابا رقيقا على أحزاني وآلامي وأمضي قدما في حياتي، فلا أُظهِرعذابي، ولا أجهر بيأسي

هل أدع سياط الشك تُلهب ظهري وتمزق نفسي؟ هل أقابل حبيبي بشفاه ضاحكة وقلب باكي منكسر؟ وهذا التكلف والتصنع، ألا يقتلني؟ ألا يذهب بعقلي؟ وماذا يبقى لي، إذا ذهب المرض بجسدي، وذهب شكي في حبيبي بعقلي ونفسي، وأملي، وماذا يبقى لي غير الأسى واليأس؟ ألا يجف ينبوع الحياة

في أعماقي بسبب التصنع والتكلف؟ أكنتَ تعتزم حقا يا زوجي الحبيب، أن تهدم هذا المعبد،

الذي بنيناه معا، وأناره الله لنا ببنت من أجمل ما تكون البنات!

ماذا تراني فاعلة يا حبيبي؟ هل أكرهك حتى الموت، هل أصيح فيك وأترك المقص يعمل في ملابسك فيمزقها إربا إربا وقمصانك وسراويلك ثم ألقي بك وبهم من النافذة فتمضي مع من تحب؟ كلا فلن تذهب معك، لقد رفضت عفاف حبك، ورفضت قلبك.

هل أستطيع الفرار منك ومن حبك ومن حياتك كلها؟

إنني جبانة عن الإعتراف لك بأنني أعرف كل ما كان منك لعفاف، وما كان منها لك، إنني أكرهك يا مدحت، أكرهك حتى الموت، يا ليَ ويا لغبائي الفظيع فأنا أحبك حتى الموت!

أكاد أجن .. أكاد أجن ..

فهل أصمت، وأحتمل في سبيل إبنتي، وبيتي، وحبي، وزوجي، ونفسي، أحتمل أقسى وأمرّ ما يمكن أن تحتمل المرأة من مشقة وألم وتضحية، أحتمل خيانة زوجي لي على مرأى من الأطفال؟ أحتمل نكران زوجي لي ونكرانه لوجودي

هل أصيح أصرخ أثور أجن؟ هل أخفي في بطني السر الذي لم يعد سرا؟ هل أقابل زوجي بالأحضان والقبلات، أحضان باردة وقبلات جافة وأترك له قلبي يكيل له الخيانة والطعنات؟ هل أدّعي السعادة في النهار وأذرف الدمع شلالا في المساء؟

وإذا سلّمتُ لأفكاري، وقررتُ أن أهجره وأن أنساه، فهل أستطيع ذلك؟ يا لضعفي يا لغبائي يا لجُبني، بل يا لقلبي، إنني أشتاق إليه منذ الآن، إن حبه يملأ كياني،

إنني لا أستطيع أن أخلو إلى نفسي ساعة من نهار أو ساعة من ليل، إلا وهو معي، أمامي،

ولا أسمع في الدنيا إلا منه، ولا أرى في كل الناس، إلا شخصه،

لقد ملأ عليّ حياتي، بل هو حياتي، لا مفر منه، إلا إليه، ولا حياة لي، إلا به،

إنه قلبي الذي ينبض، وعقلي الذي يفكر، وعيني التي ترى، ولماذا أهرب؟ كلا لن أهرب، كيف أهرب وأترك هذا القلب الذي أعشق يفلت مني ويهيم بغيري وأدعُ غيري يهيم به؟ عليّ إذن أن أوطِّن نفسي على البقاء، ولأصارع الغضب، فأقهره مرات، ويقهرني مرات، ولأسعد أحيانا، ولأبكي أحيانا أخرى، المهم ألا أفعل شيئا يذهب بي إلى ما لا أحب، المهم أن أحتضن حبيبي أخر

اليوم، المهم أن أحتضن إبنتي أخراليوم، المهم أن يحتضنني بيتي أخراليوم."

بينما هي هكذا مضطربة النفس، مشوشة الأفكار، دخل الحاج حسن، فقد جاء يطمئن عليها، في زيارته الشبه يومية، فأسعدها أن ترى أحداً تحبه في هذا الوقت حتى يُسَرِّي عنها ويُدْخِل عليها البهجة، وكانت فرح قد إتصلت بها وأخبرتها أنها سوف تحضر مع السيدة حسناء، وقبل أن يشرب الحاج حسن العصيرالذي قدمته إليه فاتن، كانت أمها وفرح قد وصلتا، وإطمأن الجميع أن فاتن أصبحت بخير، وأن وجهها قد جرت فيه الدماء، وتوردت خدودها، وزال الشحوب،

وطلب مصطفى ودينا من العمة فرح أن تصحبهما معها إلى الإسكندرية لقضاء يومين لتغيير الجو، فاستأذنت لهما فرح من الحاج حسن، وطبعاً لم يمانع وسألها:

- متى تعتزمين السفر إلى الإسكندرية؟
- سوف نسافر الآن.. فقد إطمأن قلبي على فاتن.. وحمدتُ الله أنها قد تحسنت كثيراً..
- إذا كنتِ تنوين السفر فهيا بنا ..

وإتجهت فرح وبصحبتها الأولاد إلى الإسكندرية، واتجهت السيدة حسناء إلى البيت، بينما كان الحاج حسن على موعد مع بسطويسي في المعرض.

كان الحاج حسن يخطط منذ فترة طويلة للتخلص من إبراهيم، إلاأن ظروف دخوله البرلمان لم تجعل الوقت مناسباً لأية أخطاء، فكان لا بد له أن يتريث،

كانت السعادة تبدو على بسطويسي عندما دلف إلى المعرض، وكان الحاج حسن في إنتظاره، فقد أخبره الأخير أنه قرر أن يمنحه الفرصة كاملة لأن يثبت وجوده ويكسب ثقته في المكان الجديد بدلاً من إبراهيم، وكان الحاج حسن يُعِدّه لكي يكون جاهزاً وقت الطلب، فأجزل له العطاء، وجعله غير مؤهل لأن يرفض طلباً مهما كان، هكذا كان الحاج حسن يفكر..

بعد أن دفع الحاج حسن مبلغ الخمسين ألف جنيه لبسطويسي كانت أوامره له

ألا يدع إبراهيم يعود من الإسكندرية في اليوم التالي، أويعود إلى المقابر، حيث

كانت الخطة أن يلحقه إلى الإسكندرية ، وبينما هو يحضر النقود التي سوف يسلمها أمجد لفرح، يفعل بسيارته ما يضمن عدم عودته نهائياً، ولا حتى مصاب

وفي ظُهراليوم التالي وصل إبراهيم إلى مكتب أمجد، حسب الإتفاق مع الحاج حسن، وكانت فرح موجودة مع مصطفى ودينا اللذين أحضرتهما معها لكي يذهبوا جميعاً مع أمجد لتغيير الجو، فطلب منها إبراهيم المبالغ

المالية التي طلبها منها الحاج حسن، لكي يعود مُسرعاً إلى القاهرة، كما طلب منه الحاج حسن،

ولكن فرح فوجئت بهذا الحديث، لأنه ليس لديها أدنى فكرة عن هذا الأمر، كما لم يتفق معها حسن على شيء ، ولقد كانت معه أمس في القاهرة، ولم يخبرها بشيء من هذا، وإتصلت فرح بأخيها تسأله عن موضوع النقود التي يطلب منها أن ترسلها له مع إبراهيم، فقال لها أنه لا يعرف مما تقول شيئاً ، بل أنه لم يرَ

إبراهيم اليوم، ولم يطلب منه شيئاً.

وبعد أقل من عشرة دقائق كان بسطويسي يهرول ويلهث داخلاً إلى المكتب عند السيد أمجد الذي جلس ينظر إلى الجميع، لا يفهم شيئاً مما يحدث حوله، وكان تفسير الأمر كله لدى بسطويسي، فقد قال لهم، وهو يشرح الإتفاق الذي حدث بينه وبين الحاج حسن:

- أولاً إليكِ يا فرح هذا المبلغ.. إنه خمسين ألف جنيه.. أعطانيه الحاج حسن أمس.. دفعة تحت الحساب.. والدفعة الثانية بعد أن أعود اليوم إلى القاهرة على أن أنفذ حكم الإعدام في حق إبراهيم، وهذه هي مفاتيح السيارة،

لا أريد شيئاً من الحاج حسن، الله الغني عن الأموال الحرام.

وكان الجميع ينظرون في ذهول إلى بسطويسي، لا يفهمون شيئاً مما يقول، قالت فرح مندهشة:

- أي أموال حرام يا بسطويسي؟ هل جننت؟

فقال موجهاً الحديث لإبراهيم:

- يا إبراهيم.. عليك بالهرب.. فإذا لم أقتلك أنا.. فإن الحاج حسن قد حَكَم عليك بالإعدام.. وسوف يدفع أحداً غيري لقتلك.. فهو يقول أنك تخونه.. وتُفشي أسرار العمل للغير، وترغب

في العمل لحسابك، ولقد أرسلتُ أنا أسرتي إلى الفيوم، وتركت الشقة للحاج حسن بالأثاث، كما أستلمتها منه.

وإزداد الأمر غموضاً، ولم يعد أحد يفهم شيئاً، اللهم إلا إبراهيم، صاحت فيه فرح متسائلة بدهشة:

- لماذا يريد الحاج حسن قتل إبراهيم؟ وما طبيعة هذا العمل الذي يفشي إبراهيم أسراره، وما هي هذه الألغاز التي أسمعها اليوم؟

قال لها بسطويسي:

- الموضوع من البداية أن الحاج حسن يريد أن يتخلص من إبراهيم بناءً على

طلب من الراجل الكبير، إنه يعمل في تجارة المخدرات.

وغرق قلب فرح بالحزن والأسى لدى سماعها هذا الحديث الرهيب .. وكادت تخنقها الدموع وإحساس عميق بزلزال قادم، وصاحت فيه فرح مستنكرة هذه الإدعاءات وقد ملأها الغضب منه والضيق به:

- إخرس يا بسطويسي.. كيف تقول ذلك على الحاج حسن، وكيف تدعي أنه يتاجر في المخدرات، هل جُننت؟

وشرح لهم بسطويسي كيف أن الحاج حسن جعله ذراعه الأيمن في تجارة المخدرات، بعد أن إكتشف خيانة إبراهيم له، وقد آلت إليه

هذه التجارة بعد وفاة الحاج كمال، وأن الحالة المادية له - بسطويسي - هي التي فرضت عليه الموافقة على هذا النوع من الوظائف، إلا أنه ليس قاتلاً، وقد صارح زوجته بكل ما حدث وهي التي طلبت منه أن يترك هذا العمل، ويعيد كل الأموال التي أخذها من الحاج حسن، وغادرت إلى الفيوم لكي تقيم مع أهله ولم تقبل المال الحرام، وسوف يلحق هو بها إلى الفيوم من الإسكندرية مباشرة.

وكان كل ما يقوله بسطويسي، له ألف سؤال وسؤال لدى فرح، وهي أمور يستحيل أن يصدقوها، وعليهم أن يسمعوها من حسن مباشرة، فحسموا أمرهم، وقرروا أن يذهبوا

إلى القاهرة فوراً لكي يفهموا حقيقة الأمر من الحاج حسن، فهو أمر لا يمكن تصديقه أو استيعابه، وفجأة إكتشفوا أن إبراهيم قد غافلهم وإختفى، لقد استغلّ غفلتهم واندهاشهم بكل هذه بالأكاذيب التي يطلقها بسطويسي زوراً وبهتاناً - هكذا إعتقدوا - وهرب، ولقد إكتشفوا أن إبراهيم قد إستدرج مصطفى ودينا وأخذهما معه رهائن ، يا للكارثة، هل هذا يعني أن كل ما قاله بسطويسي، إنما هو صدق، لا كذب فيه ؟

وهذا هو بسطويسي نفسه قد تركهم وغادر، لينجو بنفسه، إن هذا يؤكد صدق حديث

بسطويسي، كيف؟ كيف يكون الحاج كمال والحاج حسن، تجار مخدرات ؟

وجن جنونهم، وراحوا يبحثون عن الأطفال، ولا جدوى!

هل هو كابوس مخيف، أم أنه هزيان ؟ هل هذا شيء يمكن تصديقه ؟ وأصبح الجو شديد التوتر، وكانت مشكلة لا حل لها، وحيرة لا مخرج منها، فهل يبلغون الشرطة للبحث عن الأطفال المخطوفين؟ وماذا يقولون للشرطة عن الخاطف، وماذا يقولون عن سبب الإختطاف؟ أم يذهبوا إلى القاهرة ويطلبوا الحل من الحاج حسن، إنه هو وحده من يعرف الحقيقة، وماذا إذا كان فعلاً يتاجر في

المخدرات؟ كيف تتلقى السيدة حسناء هذه الصدمة المضاعفة، زوجها تاجر مخدرات وإبنها تاجر مخدرات؟ أم أنها كانت تعلم بهذه المصيبة الكبرى؟ مستحيل، إنها تُصلّي بخشوع يكاد يفطر قلبها، إنها لا تفعل شيئا إلا ما يقربها إلى الله، ولا تبتعد عن شيء إلا ما يبعدها عن الله، كيف؟! والحاج كمال ، لقد كان هو أيضا كذلك مثالاً للتقوى والورع! لم يكن يصلي الفجر إلا في المسجد ! وكثير من الجمعيات الخيرية كانت تعلم أنه رجل صالح، لم يتبرع لهم أحد مثلما تبرع هو لهم ! فمن يصدّقون ؟! ومن يكذّبون ؟!

وأخفت فرح وجهها بين راحتيها، وانخرطت في البكاء، وإلتفتت إلى أمجد تسأله بين البكاء والذهول:

- هل معقول أن أمي كانت تعلم أن زوجها تاجر مخدرات ؟! .. وكيف قَبِلت أن تعيش معه .. وأمواله كلها من الحرام ؟! أم تراه كان يخدعها ؟ وحسن
تاجر مخدرات ؟! ..وهل خصه أبي هو فقط بهذا السر اللعين ؟!..أم أنني أنا الوحيدة البلهاء التي لا تعرف شيئا مما يجري حولها ؟! .. وكيف استطاع

أبي.. ومعه حسن .. أن يخفيا هذا السر الرهيب عن الجميع ؟! ..

هل تعلم شيئا عن هذه الأمور يا أمجد ؟!

وكان وجه أمجد يشي بأنه لا زال غارقاً في حالة من الذهول التي سيطرت عليه

ولم يُعَلِّق أمجد على سؤالها.. فلن يسمح لنفسه أن يتفوه بما يسيء إلى والدها وأخيها.. مهما كان الأمر! وهؤلاء الأطفال الذين إختطفهم إبراهيم وإختفى، سيكون هذا الخبر زلزالاً يحطم حسن وفاتن، التي ترقد على سرير المرض في المستشفى، كيف تستوعب هذا البركان الثائر، من الأخبار القاتلة، في لحظة

واحدة وفجأة تنهار كل ثوابت الأسرة، تنهار كل الأعمدة، فيسقطون جميعاً ضحايا، تحت الأنقاض، صرعى، تحت أطنان من الركام، وإتجهوا فوراً إلى القاهرة ،أمجد وفرح ، وفي رأسهم آلاف من الأسئلة، ولم تَكُفّ عينا فرح عن ذرف الدموع طوال الطريق إلى القاهرة ..

أما أمجد فكان يراقب فرح بحزن شديد، وينظر إليها بعينين مشفقتين، ويشعر أنها في مواجهة كارثة لا تعرف أين تنتهي، ربما إلى بئر سحيق لن تستطيع أن تخرج منه أبداً!

ثلاث ساعات مرت حتى وصلوا إلى القاهرة، وكأنها ثلاثة أيام، وكان الصمت الرهيب هو

سيد الموقف، إلا ما كان يصدر من فرح من شهقات تقتل الفؤاد وهي تبكي هذا البكاء المرير، وقد غمر قلبها ألم شديد جعل يعصره بضراوة.

ومثل صاعقة رهيبة، إنقض ذلك الخبرالمشئوم على حسن، وبُهِت، ووقع أسيراً لحالة نفسية سيئة، وبدا في حالة هيستيرية ثم أصيب بدوار مفاجيء سقط على أثره مغشياً عليه، ونثروا على وجهه العطر والماء ودلكوا له عضلة القلب، وأفاق

كل أفكار الدنيا تزاحمت في رأسه، كل ما فعله من أخطاء تحولت إلى وحوش ضارية تلاحقه لكي تفتك به وتغرس أنيابها في قلبه،

لقد أطل عليه الماضي بقوة من كل نوافذه الظلامية، وكل ما فعله من شرور.

وحدّث نفسه كمن أصابه مسّ .. "ولكن أولادي الأبرياء، لماذا يدفعون الثمن؟!"

وراح يتخيلهما يصرخان خوفاً وهلعاً، بينما إبراهيم يعذبهما إنتقاماً منه لمحاولة قتله والتخلص منه، إن كل ثانية تمضي دون أن يخلصهما من قبضة إبراهيم فيها

عذاب لهما، وتحمل لهما خطر الموت، لقد توقفت حياته اليوم باختفاء أولاده،

وغرق في ضيق مطلق تحت تأثيرالزلزال الداخلى من الألم والشعور بالذنب

وأصيب بحالة سيئة من الإكتئاب سيطرت عليه تماماً، فإنقطع عن كل شيء، أعماله وكل الناس والمجتمع ..

ولم تمر بضعة أيام حتى صار الألم لا يُحتمل، إنه لا يستطيع أن يتجاوز الألم، و لا تمرعليه دقيقة دون أن يفكر في أطفاله، ودون أن يلوم نفسه عن إختفائهما، بل ويُحمِّل نفسه مسئولية إختطافهما، وكان ذلك يفوق طاقته على التحمل، ولم يحاول أن يتوقف عن الإنحدار قبل العثورعلى أولاده والإطمئنان على أنهما لا زالا على قيد الحياة، وأصيب بحالة سيئة من الإكتئاب فجعل يفكر في أن يطلق رصاصة على رأسه

لكي يتخلص من حياته التي صارت بائسة في غياب أولاده، إلا أنه تراجع عن فكرة الإنتحار، لكي يستمر في البحث عنهما ويخلصهما من قبضة هذا المجرم الذي قرر أن ينتقم منه في صورة أولاده، لأن إنتحاره لن يحل المشكلة، ولن يجعل ابراهيم يحررهما، لقد غرق في شعوره الدائم بالذنب، وكانت هذه هي أقسى ضربة توجهها له الحياة بعد مقتل والده وزوجته في ضربة واحدة، إن رأسه توشك على الإنفجار، و يغرق في هاوية الألم.إن أسئلة كثيرة راحت تعذبه كالسياط تلهب جسده، هل تتألم دينا الآن ؟ هل يتألم مصطفى ؟

ماذا يفعل بهما المجرم الآن..

إنه يعرف أنهما يتألمان، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، لا يعرف كيف يخلصهما من العذاب والتعذيب،

إنه شيء فوق الإحتمال ألا يجد المرء سبيلاً لإنقاذ أولاده، فيتألم ويتألم، إنه يرتعد من كل أوصاله ولا يتمنى شيئاً في حياته سوى أن يحتضنهما و يضمهما إلى صدره في حب لا نهائي، ماذا تأكل دينا الآن؟ أين تنام؟ إنه لا يتوقف عن التفكير فيهما ولا لحظة واحدة، ويبذل كل الجهد لكي يعثر عليهما وعلى المجرم الخاطف..

وجن جنونه مع تزاحم الأسئلة على رأسه في هجوم متوحش، وراح خياله يصور له لحظات رهيبة من تحرش ابراهيم بإبنته دينا، وهي تصرخ في ألم، وتقاوم في ضعف، ثم تستسلم في إنهيار كامل أمام وحشية هذا الذئب البشري، ومن ثم يبدأ في تعذيبهما..

كيف يعذبك هذا المتوحش الآن يا دينا؟ هل يفعل ذلك باستخدام الكهرباء ؟ وكلما تخيّل حسن ذلك شعر بسلك الكهرباء يلف جسده، فيكويه ويحرقه حتى يخرج الدخان من جسده، ويرتعد جسمه كله ويرتعش، ويصرخ حتى تدوّي صرخاته في السماء، وأحياناً يرى

بعين خياله إبراهيم وهو يحمي سيخ في النار، ثم يدخله في جسد الطفل مصطفى، فينهار ويسقط مغشياً عليه، ولا يتحمل جسده الصغير هذا العذاب.

كان يبكي البكاء المرير لما آلت إليه حياة أطفاله بسببه، وطوال اليوم تصمّ آذانه صرخات الطفلين تناديه لكي ينقذهما من ويلات هذا العذاب، وفي الليل تعذبه الكوابيس، وتحيل حياته إلى قطعة من الجحيم.

وهناك أمه التي شغلت جانباً من تفكيره، لماذا فعل بها ذلك؟ ولماذا فعل أبوه ذلك بها من قبله ؟! وماذا تقول الأم الآن عن زوجها وعن

إبنها؟ كيف تتحمل هذه المصيبة الكبري ؟ والأب ، كيف طاوعه قلبه أن يفعل ذلك في هذه الإنسانه التي أحبته كل هذا الحب ! وأخلصت له كل هذا الإخلاص.

كان الأب يعتقد أنه بهروبه من الشرقية قد حقق لنفسه الأمن والأمان، وأنه سوف ينجو بفعلته من عقاب السماء، بعد أن قتل أحدهم من عائلة المرشدي، من أجل مغازلة فتاة، ربما لم تكن تستحق أن يفقد أحدهم يوماً واحداً من مستقبله أو حاضره من أجلها، إلا أنها أصبحت أكثر من ذلك بكثير! فلقد فقد أحدهم حياته كلها وفقد الآخر حريته إلى الأبد، حيث قُدِّر له أن يعيش مطارداً كالفأر

المطارد لا يطيب له العيش في مكان حتى يضطر إلى الإنتقال القهري إلى مكان أخر، إنتظاراً في خوف ورعب لموعد انتقاله إلى مكان جديد، وهكذا تحت جنح الليل إبتلع الظلام جسد كمال ومعه بعض الحقائب التي امتلأت بالملابس والأموال التي تكفي حتى يستطيع أن يشق طريقه الجديد في المكان الجديد.ولكنه دفع الثمن

وها هو إبنه يدفع أيضاً الثمن، ونال العقاب حتى من الأحفاد.

وإنشقت الأرض وإبتلعت إبراهيم، ومعه الأطفال الأبرياء.

ولم يكن حسن على إستعداد أن يضحي بأطفاله من أجل إنقاذ نفسه أو حتى من أجل عدم المساس بسمعته، فلم يتبقَّ أمامه إلا خيار واحد، وهو أن يترك مسئولية البحث عنهما للشرطة، فهي وحدها القادرة على البحث والعثورعليهما قبل فوات الأوان، بعد أن فشلت كل محاولاته في العثور على ابراهيم ..

وكانت فضيحة كبري قد تناولتها كل الصحف ووسائل الإعلام المختلفة، تلك التي غطت محاكمات رجل الدولة ذات المستوى الرفيع في قضية تجارة المخدرات، وقد كانت الأدلة التي قدمها حسن الشرقاوي أدلة دامغة فلقد

سلم له والده هذه الأدلة بالصوت والصورة تحسباً لأي موقف أو حالة غدر من الرجل الكبير، ولا أحد فوق القانون ..

وشفيت فاتن تماماً من مرضها ، وعادت لبيتها وزوجها وطفلتها، كما انتقلت عفاف إلى الفيوم ..

ولم تترك أمل صديقتها فاتن في هذه المحنة التي ألمّت بها.

- كيف هي الوالدة يا فاتن اليوم.. لقد كانت الصدمة عنيفة عليها.. كان الله في عونها..
- لقد كانت الصدمة أكبر مما تحتمل يا أمل.. انها لم تستوعبها حتى الآن..

- إن ما ضاعف من المشكلة.. هو أن والدك أخفى عليها هذا السر سنوات وسنوات.. دون أن تكشف أمره..

- كانت تعتقد أنه يعمل في مجال الإستثمارات العقارية.. في الإسكندرية والقاهرة.. فقط هذا النشاط..

- علِمتُ من فرح أنكِ قابلتِ المحامي الخاص بالعائلة.. وأن الدكتور مدحت إستدعاه لكي تناقشوا وضع العائلة من النواحي القانونية والمالية..

- نعم.. إن الوضع كارثي.. ولكن علينا اختيار المسار الذي يتفق مع قيمنا..

- الوضع خطير.. ويحتاج إلى قرار شجاع..
- هذا هو ما تم الإتفاق عليه.. فقد قررنا الإعتماد على نصيب ماما في شركة دار السلام للإستثمارات العقارية والسياحية.. وهو الذي كانت قد ورثته بعد وفاة جدي لأمي.. أما شركة الإسكندرية للإستثمارات العقارية والسياحية.. فهي شركة مملوكة لأبي فقط.. وهذا ما جعل ماما تقرر أن نتصرف فيها كصدقات أو وقف و تبرعات.. هذا بالإضافة إلى باقي أملاك أبي.. سواء العقارية.. أوالنقدية

في البنوك.. كل أرصدته الدائنة.. لن نُبقي منها أي شيء ..

وتوقفت فاتن قليلا عن الكلام ، ثم أردفت قائلة:

- وبالمناسبة.. فهذه أيضا هي رغبة أخي حسن.. إنه لم يعد يرغب من الدنيا إلا رعاية مصطفى ودينا.. وضمان حياة سعيدة لهما ومستقبل آمن و سعيد بعيدا عن المال الحرام! ولم يندم على إعترافه للشرطة.. فقد كان هذا الإعتراف هو ثمناً رخيصاً للقبض على إبراهيم، وتخليص الطفلين من قبضته.

- والسيد أمجد زوج فرح.. ماذا كان تأثير هذه الأخبار على أهله.. كيف واجههم أمجد.. فمن المؤكد أنه خاض معارك كلامية معهم بأن فرح لا دخل لها بما حدث..

- تعلمين يا أمل أن أمجد إنسان رقيق جداً.. وهو يحافظ على أحاسيس ومشاعر الأخرين.. ولم يشأ أن يسبب لفرح أي إحراج أو تجريح.. فقط قال لها أن الموضوع قد انتهى مع عائلته على خير.. وهم يقدرون موقفها وموقف ماما.. وأن لا شيء ترتب على

الأوضاع الجديدة لأسرتي.. فهم يتعاطفون معنا..

- واضح طبعا يا فاتن.. فأمجد يحبها كثيراً.. وهو من أسرة كبيرة وعريقة .. ومن المؤكد أنهم هم أيضا يحبونها كثيراً ..

- وما أريدك أن تعرفينه يا أمل هو أنني ومعي ماما و فرح.. قررنا أن نخص حي" قلعة الكبش" بالنصيب الأكبر من هذه التبرعات والوقف.. وقد وجهنا المحامي فعلا لأن يُعِدّ الترتيبات اللازمة من النواحي القانونية .

- لا أخفي عليك يا فاتن حالة الحزن والإحباط التي أصابت أهل الحي.. فهم خائفون من تأثير هذا الأمر عليهم..
- عليك أن تخبريهم إذن هذه المعلومات..
- قد يكون عليك أن تخبريهم هذا بنفسك يا فاتن.. فأنتِ تعلمين مدى حبهم وتقديرهم لكِ ولفرح.. وأنا آسفة على طلبي هذا.. فأنا أعلم أنكِ تواجهين مشاغل و مشاكل كثيرة هذه الأيام..
- هل تعلمين أن بعض أعضاء "جمعية مصر للتنمية المجتمعية" ألذين حضروا إلى الحي من قبل معنا.. قد

أخبروني بأن شيئا لن يتغير من البرنامج الذي أعدوه للحي من قبل..

- وأنا التي اعتقدتُ بأنه لن يكون بيننا في الحي وبينهم أي تواصل.. ولكن اتضح حقا أنهم أهل خير..

- ولماذا يا أمل ؟! .. هل لكم دخل بما حدث ؟!

ثم قالت مبتسمة:

- بالعكس .. لقد كانت صفية وبسطويسي على قدر كبير من الإلتزام بالقيم .. ولولا تضحيتهما بكل ما يملكون لما إنكشف أمر هذه التجارة المحرمة .. ولقد قررت ماما وأمجد أن

يستدعوا بسطويسي من الفيوم .. ويُسندون له إدارة المعرض .. مكافأة له على أمانته وإخلاصه .. وهو جدير بهذه الثقة ..

- نعم .. لقد كان حسن يخطط له للتخلص من إبراهيم دون أن يدري أحد ..
- أما أنتِ يا أمل فيمكنك أن تعملي أيضاً بالمعرض إبتداء من غد مع بسطويسي .. إذا لم يكن لديكِ مانع ..
- ألم تقولي أنكم قررتم تصفية أعمال والدك والحاج حسن كلها .. والتصرف فيها على شكل تبرعات ؟

- نعم.. ولكن بالنسبة للمعرض.. فقد قررت أسرة أمجد.. بالإتفاق معي ومع والدتي وفرح.. أن يتم تقدير قيمته.. ويدفعونه بالكامل.. حتى يتم ضمه إلى باقي المبالغ التي سوف يتم التبرع بها.. على أن تؤول ملكية المعرض إلى أمجد.. وقد أبلغنا أخي حسن.. ورحب جداً بذلك..فهو جاد في توبته.
- سبحان الله.. يهدي من يشاء .
- أين حسن اليوم.. من حسن الأمس.. لا أعرف لماذا يُلقي الإنسان نفسه إلى التهلكة.. ويُهِلك معه من أحبوه وأحبهم.. ثم يفيق بعد فوات الأوان..

- كان الله في عون والدتِك يا فاتن!

- نعم.. لقد وقعت الضربة عليها قاصمة، وظلت طريحة الفراش لفترة طويلة تتناوبها الكوابيس، وقد رزحت كل آلآم الدنيا فوق قلبها.. وأثقلت صدرها بالهم والأحزان.. حتى أنها كانت تتمنى لو أنها تموت في الحال.. وكانت

تشعر أن الجميع ظلمها، زوجها وإبنها والناس بنظراتهم القاسية، بغير رحمة ولاشفقة!

ولكن فرح وفاتن بذلتا كل مجهود من شأنه أن يساعد الأم على تجاوز هذه المحنة رغم قسوتها، وعادت السيدة حسناء لدورها الداعم

لدور الأيتام، والجمعيات الخيرية، وقررت أن تعود حياتها إلى سابق عهدها في عمل الخير، وتعافت، وقررت أن تستمر باقامتها في نفس الشقة.. ومعها أولاد حسن.. ترعاهما كما عاهدت حسن على ذلك.. ولاشك أن أمل سوف ترعى المعرض على أكمل وجه وسوف يساعدها بسطويسي في هذا الشأن.

" تمت بحمد الله "

رقم الإيداع :

1451674
2015/10/27